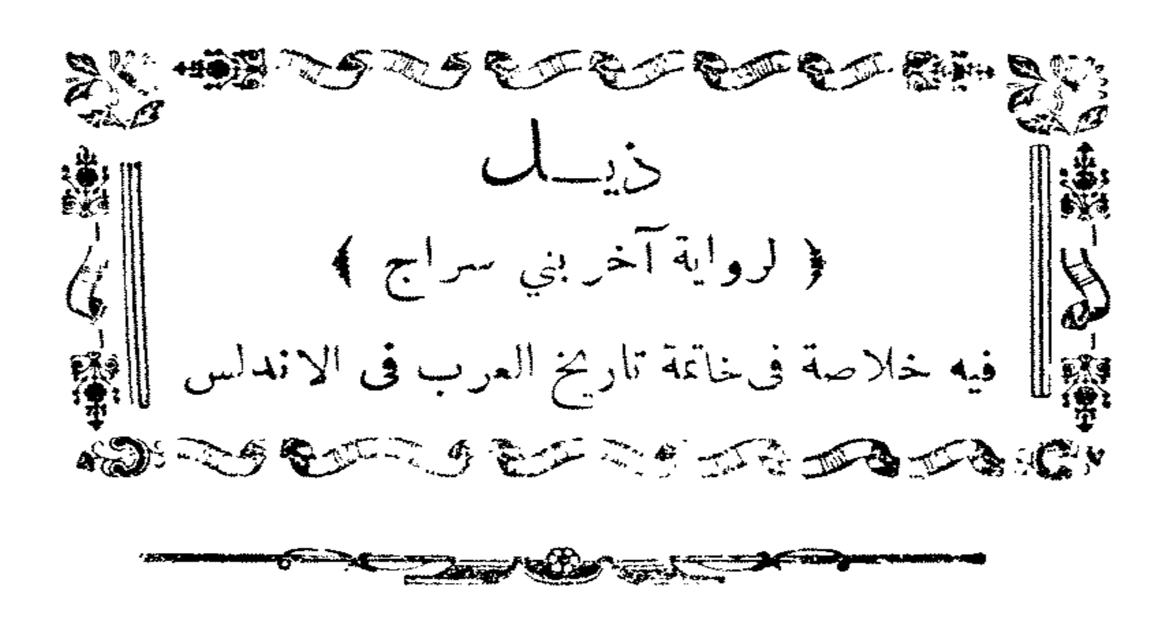


ذيل

﴿ لرواية آخر بني سراج ﴾

فيه خلاصة في خاتمة تاريخ العرب في الاندلس

تمهيد

انما حدا بي الى تذييل هذه الرواية أمران : الاول إعانة القاريء على فهم الحوادث ومعرفة المواقع بما تفقد بدونه لذة المطالعة ، والثاني ما رأيته من اختصار جرم الرواية فآثرت إردافها بذيل يطيل من قدها ويزيد في حجمها ، ويكون فيه من حقائق الوقائع التاريخية، ما لا يقصر فكاهة عن موهوم الرواية الغرامية، فجاءت روايتنا ذيّالا وان لم نرج أن تكون طاووساً ، وليست هذه أول مرة جرت فيها الروايات أذيالا ، واتخذت القصص عصاعص طوالا

وما أقصد بهذا الذيل استقصاء تاريخ الاندلس الاجمالي الا ما اضطر اليه مساق الكلام،فقد كنت منذ نشأتي ممن لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف وطال فيه المقال ،كأنما اعده تكراراً لسابق أواعادة لصدى ، وخلواً من كل براعة. وأخبارالاندلس مستفيضة في التواريخ شرقا وغربا ومعروفة عند الادباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة في عدد الكتب ، وانما يستحب الانشاء فيما ندر فيه الكلام ، وعز البحث وطمست الاعلام ، فاذا قرأته العامة بل الخاصة سقطت منه على جديد ذي طلاوة ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الاخرى مدارسة كتب القواعد التي لا تتغير

فأشد الاقسام عوزاً الى البحث من تاريخ هذه البلاد — التي لا

نزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها —
انما هو القسم الاخير واحوج طائفة من أخبارها الى التدوين ما تعلق
بدور الجلاء وعصر الخروج من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة
سنة،لان هذا الحادث الكبير الذي هو من أضخم الحوادث في الاسلام
وقع على حين خمول من القرائح العربية ، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة
عند معشر الناطقين بالضاد ، ولدى اقحاط البلاد بالادمغة المتوقدة ،
وعقم الامة عن الرؤس المولدة ، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه
ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة فانه لا عطر بعد عروس

نعم لا أنكر أن (كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب)
للعلامة المقري هو من أوفى الكتب بأخبار الاندلس وآدابها : حقيبة
أنباء، وقمطر حوادث وخزانة آداب، وكشكول لطائف وديوان أشعار ،
وقد كان عهد تصنيفه على إثر النازلة الكبرى بباقي الاندلس وامتصاص
سؤر الكأس وعفاء الاثر الاخير من سلطان المسلمين فيها بحيث أمكن
لصاحبه ذكر سقوط مملكة غرناطة واستيلاء الاسبانيول على الجميع
وختم الدولة الاسلامية في تلك الديار، ولكنه ككثير من مؤرخينا أو
مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الاشياء، ولا ينتبهون الى قاعدة أن
الحسن انما هو تناسب الاعضاء،فقد بحث في هذا الخطب الجلل والحادث
العمم بحثاً هو دون حقه بدركات، وأتى عليه كما يأتي على واقعة متوسطة
البال من الوقائع التي أشار اليها فى بطن كتابه واستوعبه في أوراق
يسيرة كانت لطافتها في كثافتها، فان التناسب يقضي باعطاء كل مقام من
المقال ما يكافيه ويقوم بحقه ويجيء على قدره. ولو فسح الفاضل المقري

رحمه الله لواقعة سقوط مملكة غرناطة وحادث انقراض أمر الاسلام بالاندلس ما فسحه في تاريخه للنثر الكثير الذي يغني عن كله بعضه،من المخاطبات التي صدرت عن لسان الدين بن الخطيب أو وجهت اليه أو الى غيره، أو الشعر الغزير الذي كثير منه حقيق بالاسقاط من ذلك المجموع، أو القصص التي يرويها عن بعض المشايخ مع طول اناة غريب في الاستقصاء، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم الى السماء، لكان ذلك أجزل فائدة وأسنى موقعاً، وكانت الناس قد شفت غليلها من خبر هذه الطامة التي لكل الحوادث سلوان يسهلها وليس لها سلوان كما قال أبو البقاء الرندي ، ولكفينا مؤونة النقل عن كتب الافرنج فيما يختص بالعرب، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبي عبد الله بن الاحمر وعمه الزغل وذهاب تلك المملكة وما جرى في ضمنه من الحروب وما حصر من المدن في مسافة من التاريخ استوعبت أطول منها رسالة واحدة صادرة عن ذلك السلطان الى الشيخ الوطاسي صاحب فاس في موضوع ابرد ما فيه مع طوله انه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالاندلس على يده بأن الخطب غير نادر المثال وان بغداد دار خلافة بني العباس قد اصابها ما أصاب غرناطة، فانظروا هل هـذا مما يؤثر على طوله ، او مما ترتاح الانفس الى قبوله، على فرض صحة تمثيله؟ وان كان العذر في ذلك ما يقال من ان صاحب النفح قد ألفه وهو نضو اسفار خال من الاسفار، ليس لديه من المدة ما يستعين به على الاطالة والاخذ بالاطراف، فسبحان الله كم يتلهى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع، عن تعلق ما ينفع ؟ وهـذا الفاضل المقري قد املى عن ظهر قلبه اربعة مجلدات كبار اودعها من

التاريخ الجغرافية والقصص والنكات وحشاها من الشعر والنثر والتراجم والتصوف غثا وسمينا مما لا اظن حافظة تتمكن من اختزانه بين صدغيه وتركنا في التاريخ المهم من تفصيل الوقائع الشداد والمعارك التي سالت فيها انهر الدماء في دور المنزع الاخير عيالا على الافرنج مضطرين الى الاخذ عن مصنفاتهم، فكنا وإياهم في اخذ تاريخنا عنهم كما كنـا في اخذ لغتنا عن صحاح الجوهري(١)

ولا نشك ان في ديار المغرب من التواريخ عن كائنة الاندلس الاخيرة ما يشتد في شرحها، ولكنه لم يشتهر عندنا في المشرق غير (نفح الطيب) من متأخر التآليف وهذه الحال معه، ولاعجب ان ساقنا حب الاستقصاء واقتفاء اثر أبناء الجلدة الى اخذ اخبارنا عن الاجانب وتلونا: (هذه بضاعتنا ردت الينا)

الفصل الاول

﴿ في ذكر بني سراج الذين تنسب الى آخرهم هذه الرواية ﴾

هذه العشيرة من أشهر عشائر العرب الاندلسيين عند الافرنج وأبعدهم صيتا وقد يتوهمونهم لعهد دولة بني الاحمر في غرناطة بمقام العشيرة الثانية للاسرة المالكة ويعزون اليهم الوقائع ويبنون عليهم القصص والحكايات ومن جملتها قصة الملكة التي من بنات ملوك غرناطة علقت بحب أحد

« ١ » يعني أخذ العرب لغتهم عن الجوهري وهو أعجمي النسب ولكنه صار من العرب لغة وأدبا ودينا وكتابه الصحاح احد معاجم اللغة وقد ألف العرب قبله وبعده معاجم تغني عنه وليس فيه شيء لايوجد في غيره

شبان هذه العشيرة الموصوفين بالجمال وضربت له موعداً للقاء في احدى خلوات القصر الشهير بالحمراء فاجتمعا ساعة هي بالمراجم « وقدكانت كذلك » يتناجيان ويتغازلان ولكنهما بُغتا وهما على تلك الحالة ونمي امرهما الى السلطان فاستشاط غضبا واستحضر لديه اكثر رجال بني سراج وأمر بضرب اعناقهم في المكان المسمى بقاعة الاسود من حمراء غرناطة فقتلوا جميعاً، ومن خرافات الاسبانيول أنه لم يزل يسمع لرؤسهم صدى عند خفوت الاصوات وانسدال حجب الظلام وهو صدى المقتولين بغيا وظلما (١)

والذي في موسوعات العلوم الفرنسية الكبرى أن بني سراج عشيرة نبيلة في غرناطة تروى لهم قضايا يطول شرحها في المناظرة مع بني الزغري من قبيل الروايات، والتاريخ لا يعرف بني سراج سوى وزراء عند سلاطين بني الاحمر نصروا محمد الاعسر على ابن أخيه محمد الصغير فلما تولى هذا منذ سنة ١٤٢٧ فتك بقسم من بني سراج فذهب رئيس العشيرة ملتجئاً الى ملك قشتالة وقد أشارت الى واقعة قتلهم بعض الاغاني المتعلقة بفتح قلعة الحامة التي فت ذهابها في اعضاد المغاربة وبكوها طويلا . اه

وأما بنو الزغري هؤلاء فيظن انه تحريف عن بني الزغبي نسبة الى قبيلة زغبة وأن البنغاس في رواية شاتوبريان يريد بهم مكناسة لكونهما من القبائل الكبار كما تنطبق عليه اشارة صاحب الرواية وفي التحريف المعتاد في اسماء

«١» في دائرة المعارف الفرنسية الاسلامية يميل الى ان هذه الاسرة هي من قرطبة هاجرت الى غرناطة ونظن ان واقعة هذا القتل حصلت فى زمان أبي الحسن علي الذي تولى من سنة ١٤٦١ الى ١٤٨٢

الاندلس بين عربها وعجمها مالا يجعل هذا التحريف بعيداً

وأما الذي بايدينا من كتب العرب فلا يشير الى شيء من هذه القصة ونظن انها لو كانت واقعية لم يسبق اليها أحد صاحب نفح الطيب الذي ينبغي أن لا تفوته حكاية غرامية كهذه في كتاب استوفى امثالها وهكذا قرر المرحوم ضيا باشا الاديب الشاعر المشهور من وزراء الدولة العثمانية في تاريخه للاندلس باللغة التركية فانه أشار الى هذه الحكاية المتداولة عند مؤرخي الافرنج وبين استحالة وقوعها بدون أن يعرفها كتّاب العرب وتشتهر عندهم ورجح انها من اوهام الاسبانيول وخيالاتهم

وأنا اذهب الى انها ان كانت ذات أصل فلا بد أن يكون ضعيفا جداً نظراً لتعامس المؤرخين عنها ويا ليت شعري ماذا كان يقول ابن خلدون لو احياه الله في المائة التاسعة بدل الثامنة اذا وقف على حكاية الفاهمة الاميرة في الحمراء مع الشاب السراجي وما أعقب ذلك من نكبة أبي عبد الله بن الاحمر لبني سراج أفلا يخطر ذلك بباله قصة العباسة مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ونكبة الرشيد للبرامكة من أجل تلك القصة(١) لاجرم انه كان ينتهج هذه المرة من الخطة في البرهان على عدم صحة الرواية ما انتهجه في تبرئة شرف العباسة وتنزيه جانبها عن خرص القصاصين ووضع المؤلفين. على انه اذ كانت قصة اخت هارون عديمة الصحة مع اشتهارها في كتب العرب ونقل الكثيرين لها الدال على اقتناعهم بها ، فما ظنك بهذه وهي عربية ولم يعرفها العرب ولا حكاها غير الافرنج فيما نعلم

(١) أي على القول بأنها سبب النكبة والصواب ان سببها سياسة البرامكة الفارسية المراد بها نزع الملك من العرب

وبالاجمال فكثير من هذه الاحاديث الغرامية في الشرق وفي الغرب هو من اوضاع أهل القصص خصوصا الجانحين منهم لهذه المشارب لما هو مركوز في فطرة القراء ولاسيما العشاق المستهترين من الميل الى مطالعة هذه الحكايات وتصديقها تأسيا بها فيما هم عليه من التهتك والمجون واسترسالا بعدها الى الشهوات ولو لم تكن قصص العشق أعلق الكلام بالقلوب وأميل الاحاديث بالنفوس لما كان السواد الاكبر يؤثرون مطالعة الاقاصيص الغرامية في هذه الايام حال كونهم يعرفونها من اوضاع القرائح وخيالات الاذهان والفرق بين هذه وبين تلك في لذة المطالعة فرق ما بين الواقع و الموهوم

وأما ما نعرفه عن بني سراج من الكتب العربية فقد ورد في النفح عند ذكر انساب الاندلس وأصول القبائل التي نزلت بها جالية عن المشرق قوله: قال ابن غالب بنو سراج الاعيان من أهل قرطبة ينتسبون الى مذحج ولم يقل انهم من غرناطة فلعلهم انتقلوا الى غرناطة بعد انتقال قرطبة الى الاسبانيول وذكر صاحب مطمح الانفس رجلا يقال له ابن سراج في ترجمة الوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد قال انه كان من البلاغة في مدى غاية البيان، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان، وروى عنه نكتة لطيفة لصاحب الترجمة لا بأس من ايرادها وهي انه كان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره فجلس فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه، وهم يقتطفون من نخب آدابه واذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها وأمامها طفل كأنه غصن آس وهي متنقبة خائفة ترتاد موضعا لمناجاة

ربها ، وتبتغي مكاناً لاستغفار ذنبها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولت سريعة وتولت مروعة ، خيفة أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ؛ فلم يغن عنها تواريها شيئاً لانه حال ما نظرها ، قال قولا فضحها وشهرها ، وهو :

وناظرة تحت طيّ القناع	دعاها الى الله للخير داع
سعت خفية تبتغي منزلا	لوصل التبتل والانقطاع
وجالت بموضعنا جولة	فحلّ الربيع بتلك البقاع
أتتنا تبختَرُ في مشيها	فحلت بواد كثير السباع
وريعت حذاراً على طفلها	فناديتُ ياهذه لا تراعي
غزالك تفرق منه الليوث	وتنصاع منه كماة المصاع
فولت وللمسك من ذيلها	على الارض خطٌّ كظهر الشجاع(١)

وورد في المطمح أيضاً في ترجمة الاديب أبي بكر عبد المعطي انه كان مرتسما في عسكر قرطبة وكان ابن سراج يتأنى له في كل ما يبتغي خيفة من لسانه ، ومحافظة على احسانه ، فلما خرج الى اقليش خرج معه ؛ وجعل يساير من شيعه ، فلما حصلوا بفحص سرادق ، وهو موضع توديع المفارق للمفارق ، قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعهِ ، وانشده في تفرق الشمل وانصداعه :

هُم رحلوا عنا لامر لهم عنَّا	فما أحدٌ منهم على أحد حنا
وما رحلوا حتى استفادوا نفوسنا	كأنهم كانوا أحقَّ بها منا
فياساكني نجد لتبعد داركم	ظننَّا بكم ظنًّا فأخلفتم الظنا
غدرتم ولم أغدر وخنتم ولم أخن	وقلتم ولم أعتب وجرتم وما جرنا

«١» الشجاع اسم نوع من الحيات

وأقسمتم ان لا تخونوا أخا الهوى   فقد وزمام الحب خنتم وماخنا
ترى تجمع الايام بيني وبينكم   ويجمعنا دهر نعود كما كنا

ومما ورد أيضاً في النفح من ذكر بني سراج عند ترجمة الوزير الرئيس العلامة ابن عاصم الغرناطي انه من جملة من أخذ عنهم الامام القاضي أبو القاسم ابن سراج وقوله في مكان آخر عند ذكر ابن عاصم أيضا ومما خاطب به شيخه قاضي الجماعة بغرناطة أبا القاسم بن سراج وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة فظن انه يستخبره عن سر من أسرار السلطان وهو هذه الابيات

فديتك لا تسأل عن السر كاتبا   فتلقاه في حال من الرشد عاطل
وتضطره إما لحالة خائن   أمانته او خائض في الاباطل
فلا فرق عندي بين قاض وكاتب   وشي ذا بسر أو قضى ذا بباطل

وورد أيضا عند ذكر العلامة ابن مرزوق ان من تآليفه العديدة (المعراج ، في استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج) في كراسة ونصف أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية

ويستدل من تاريخ نشوء هؤلاء العلماء المتعاصرين ان بني سراج الذين تكثر من التنويه بهم الكتب الافرنجية هم قوم الاستاذ المذكور لكونه من أهالي المائة التاسعة للهجرة زمن الجلاء الاخير الذي اشتهروا به عند الافرنج، على انني لم أعهد الا مانده عن محفوظي أثراً غير ما ذكرت لبني سراج الغرناطيين المتأخرين، وأنت ترى انهم هناك من حملة السيف وهنا من حملة القلم، ولا عجب فقد طالما اجتمعا في البيوتات العريقة، وتقارنا في العشائر النبيلة، وبنو سراج ممن قرنوا السيف الى القلم، وجمعوا الحكم الى الحكم، فاحرزوا اكثر من هذه العشائر الشرف بطرفيه، والتحفوا المجد بطرفيه ،

الفصل الثاني

(في ذكر مملكة غرناطة محل وقوع الرواية)

قال المقري : ومن أشهر بلاد الاندلس غرناطة ـ وقيل ان الصواب أغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانة ـ وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها (هو لسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وزير بني الاحمر أشهر من أن يعرف به) وقال الشقندي : أما غرناطة فهي دمشق بلاد الاندلس، ومسرح الابصار ومطمح الانفس ، ولم تخل من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها. وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته: وما لمصر تفخر بنيلها، والف منه في شنيلها. ولا يخفى أن الشين في جمل المغاربة عددها ألف. وفي غرناطة قال الشاعر:

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراقْ
ما هي إلا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق

وقال صاحب منهاج الفكر: إن كورة البيرة التي منها غرناطة تسمى دمشق قيل لان جند دمشق نزلوها عند الفتح وقيل لشبهها بدمشق في غزارة الانهار، وكثرة الاشجار، وقال : لما استولى الفرنج على معظم بلاد الاندلس انتقل أهلها اليها فصارت المصر المقصود ،والمعقل الذي تنضوي اليه العساكر والجنود. وقال ابن بطوطة وهو الاولى لكثرة ترحاله أن لا تزدهيه بلاد: فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن، الى أن قال عند ذكره

غرناطة مانصه ـ: قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور، وسواه من الانهار الكثيرة، والبساتين الجليلة، والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة. ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها. وقال ابن جزي مرتب رحلة ابن بطوطة : لو لا خشية أن أنسب الى العصبية لاطلت القول في وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه، ولله در شيخنا أبي بكر بن محمد بن شرين السبتي نزيل غرناطة حيث يقول :

رعى الله من غرناطة متبوّأ يسر حزيناً أو يجير طريداً
تبرأ منها صاحبي عند مارأى مسارحها بالثلج عدن جليداً
هي الثغر صان الله من أهلت به وما خير ثغر لا يكون برودا

كانت ثغراً في زمان شيخنا أبي بكر أما الآن فوسط من بلاد الاسبانيول وقال صاحب منهاج الفكر : يشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها وفي قبليها جبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء وفيه سائر النبات الهندي لكن ليس فيه خصائصه. وقال غيره: يشقها نهر حدرة ويطل عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا يزول عنه الثلج شتاء ولاصيفا ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد وفي أعلاه الازاهر الكثيرة وأجناس الافاويه الرفيعة . وفي شلير يقول الشاعر وأصله من البلاد الحارة:

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم وشرب الحميا وهو شيء محرم
فراراً الى نار الجحيم فانها أخف علينا من شلير وأرحم

وذكر بعض المتأخرين : أن قرى غرناطة مائتان وسبعون قرية(١)

ومن أعمالها قطر لوشة وهو قطر عظيم يحتوي على كثير من الحصون والقرى والمزارع وقاعدته لوشة وبينها وبين غرناطة مرحلة وهي مبنية على نهر الشنيل أيضا وتحف بها البساتين والرياض، والى لوشة ينتسب سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي يقول ابن خلدون فيه — وناهيك به من شاهد — : إنه كان الصدر المقدم في الشعر والكتابة في عصره

ومن أعمال غرناطة باغة وعامة الاندلس يقولون بيغة وهي بلدة طيبة غزيرة المياه كثيرة الثمار منها وادي آش ويقال وادى الاشات وهي مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين وجرت فيها الانهار ولاهلها مزية في الادب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار:

وادى الاشات يهيج وجدى كلما ... اذكرت ما أفضت بك النعماء

لله ظلك والهجير مسلط ... قد بردت لفحاته الانداء

والشمس ترغب أن تفوز بلحظة ... منه فتطرف طرفها الافياء

والنهر يبسم بالحباب كأنه ... سلخ نضته حية رقشاء

فلذاك تحذره الغصون فميلها ... أبداً على جنباته إيماء

ومن أعمال وادي آش حصن جليانة وهو مدينة واليه ينسب التفاح الجلياني المشهور

وحيث كان مقصدنا هنا أن نذكر من بلاد الاندلس ماتعلق بالرواية

---

(١) من جملة قرى غرناطة التي ورد ذكرها في الاحاطة للسان الدين بن الخطيب قرية اسمها حارة عمروس وفي طرابلس الغرب قرية اسمها عمروس وفي مصر بلدة اسمها عمروس وفي الشويفات بغرب لبنان مسقط رأس هذا العاجز حارة اسمها العمروسية فليتأمل القارىء الى وحدة العربية شرقا وغربا مع تباعد الديار.

أو ارتبط بالحوادث التي استوفيناها في الذيل تاريخا لجلاء المسلمين عن ذلك القطر العظيم نقول على وجه الاجمال

إن علماء الجغرافية من العرب قسموا تلك البلاد الى موسطة وشرق وغرب أما الموسطة فهي ذات القواعد المهمة التي كل منها مملكة مستقلة مثل قرطبة وطليطلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة، فمن اعمال قرطبة استجة وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور واسطبة وبيانة والبسانة والقصير وغيرها. ومن اعمال طليطلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها . ومن أعمال جيان ابذه وبياسة وقسطلة وغيرها ، ومن اعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولوشة وباغة وغيرها . ومن اعمال المرية أندرش وغيرها ومن اعمال مالقه باش والحامة وغيرهما

هذه أواسط الاندلس فأما الشرق ففيه من القواعد مرسية ودانية وبلنسية والسهلة والثغر الاعلى فمن اعمال مرسية أوريولة والقونت ولورقة وغيرها . ومن اعمال بلنسية شاطبة الذي يعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شقر . ومن اعمال الثغر الاعلى سرقسطة وكورة لاردة وكورة نطيلة وكورة وشقة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيوب وكورة برطانية وكورة باروشة. وفي كل من هذه الكور مدن وحصون وقرى لا تحصي ولدانية والسهلة اعمال واسعة أيضاً.

وأما غرب الاندلس فهو اشبيلية وماردة واشبونه وشلب. فمن اعمال اشبيلية شريش والخضراء ولبلة. ومن اعمال ماردة بطليوس و بابرة ومن اعمال اشبونة شنترين . ومن اعمال شلب شنتريه و يلحق بعمل اشبيلية جزيرة قادس .

هذا وقد انطوى تحت كل عمل من الحصون والقرى والدساكر ما نترك وصفه لمؤرخي الاندلس ونجتزىء عن تفصيله بما قرروه من أن طول الاندلس نحو ثلاثين يوما وعرضها تسعة أيام ويشقها أربعون نهراً كباراً وبها من القواعد الكبار ثمانون ومن المدن المتوسطة أزيد من ثلثمائة وفيها من الحصون والابراج والقرى ما لا يدخل تحت الحصر حتى قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنتا عشر ألف قرية

وحيث قد ذكرناهذا على وجه الاجمال نقول إن المدن التي كانت باقية في يد الاسلام حين الجلاء أهمها بعد غرناطة المرية ووادي آش ولوشة ومالقة وبلش مالقة والحامة واندرش وشلوبانية ورندة والمنكب ما عدا الحصون والقلاع التي تربو على المئين

ولما كنا قد ذكرنا وصف غرناطة كان لا بد من وصف المرية المدينة الثانية لمملكة ابن الاحمر فهي على ساحل البحر وفيها دار الصناعة للمراكب ولها القلعة العظيمة المنسوبة الى خيران مولى المنصور بن أبي عامر الذى كان قد تولاها وفي كورتها معادن الحديد والرخام، وطول واديها اربعون ميلا، وكله جنات وبساتين، ولم يكن في بلاد الاندلس أكثر مالا ولا أوسع تجارة من أهل المرية وقيل انه كان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف وقيل كان بها لنسيج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر الف نول وللثياب الجرجانية والاصفهانية وللمعاجر البديعة والستور المكللة الوف من الانوال، وكان يصنع بها انواع آلات الحديد والنحاس ويصنع بها الزجاج الانيق وبحصن شنش على مرحلة من المرية التوت الكثير وهناك الحرير والقرمز. وحصي المرية كالدر في رونقه يحمل الى

البلاد وكانوا يضمونه في كيزان الماء ولابي جعفر بن خاتمة تاريخ شامل سماه (مزية المرية) استوفى فيه اوصافها وخصائصها

ومن تلك البلاد مالقة وهي من اكبر الثغور واوسعها تجارة واحفلها عمارة وقد ورد في رسالة ابي الوليد الشقندى في وصف مالقة ما يأتي :

واما مالقة فانها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة التي لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر، والبروج التي شابهت نجوم السماء، كثرة عدد وبهجة ضياء، وتخلل الوادى الزائر لها في فصلي الشتاء والربيع فى سرر بطحائها ، وتوشيحه لخصور أرجائها، ومما اختصت به من بين سائر البلاد التين الربي المنسوب اليها لان اسمها في القديم رية ولقد أخبرت أنه يباع فى بغداد على جهة الاستطراف. وأمامايسفرمنه المسلمون والنصارى في المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه بما يحصره، ولقد اجتزت بها مدة وأخذت على طريق الساحل من سهيل (عمل بغربي مالقة كثير الضياع فيه جبل سهيل الذي لا يرى نجم سهيل بالاندلس الا منه) الى أن بلغت (بلش) قدر ثلاثة أيام متعجبافيماحوته هذه المسافة من شجر التين وان بعضها ليجتني جميعها الطفل الصغير من لزوقها بالارض وقد حوت ما يتعب الجماعة كثرة. وتين بلش هو الذي قيل فيه لبربري كيف رأيته ؟ فقال : لا تسلني عنه وصب في حلقي بالقفة

(قال) وقد خصت بطيب الشراب الحلال والحرام حتى سار المثل بالشراب المالقي وقيل لاحد الملوك وقد أشرف على الموت اسأل ربك المغفرة. فرفع يديه وقال : يا رب أسألك من جميع ما فى الجنة خمر مالقة وزبيب اشبيلية. وفيها تنسج الحلل الموشية التي تجاوز أثمانها الآلاف ذات الصور

العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم وساحلها محط تجارة لمراكب المسلمين والنصارى . (قلت) ومازال تين مالقة مضربا للامثال حتى قيل انه يجلب الى الهند والصين وحتى جعله أبو الحجاج يوسف البلوي المالقي حياته فقال :

مالقة حييتَ يا تينَها　　السفن من أجلك ياتينها

نهى طبيبي عنه في علتي　　ما لطبيبي عن حياتي نهى

وقال ابن بطوطة : مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى بلاد المشرق والمغرب. وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصي البلاد . ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهيرها وصحنه لا نظير له في الحسن وفيه أشجار النارنج البديعة اه

وأما بلش مالقة فمايها مسحة من مالقة في طيبها وهذه أمهات مدن غرناطة ودرر سلكها ولو شئنا استقصاء أعمالها وتقري جهاتها بالوصف والتنويه وحاولنا تتبع كبار الصقع وبقاعه والدخول في ثنايا حصونه وقلاعه لضاقت علينا الكتب برحبها، كيف لا والاندلس جنة العرب وفردوس نعيمهم ومرمى غايات خيالهم ، وقد جرى في وصفها من المداد ما لو توزع لوسم سائر البلاد ، ورد من دونها ارم ذات العماد، وحسبك أن هذه المدن الاخيرة كانت سؤرما في الكاس، وخصاصة ما في الكرم، ومع ذلك فلتعدد أسباب دفاعها، واستحكام حلق أقنائها وغزارة مواد أجلابها لم يزل أمل

الاسلام فيها وطيداً، والرجاء بثباتها معقوداً، قال ابن سعيد: في حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ودربة أهلها على الحرب، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب، وكثرة ما تختزن الغلة في مطاميرها فمنها ما يطول صبرها عليها نحوا من مائة سنة ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن، وان كان العدو قد نقصها من أطرافها، وشارك في أوساطها، ففي البقية منعة عظيمة، فارض بقي فيها مثل اشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة الرجاء فيها قويٌّ بحول الله وقوته انتهى .

قال المقري: قلت قد خاب ذلك الرجاء وصارت تلك الارجاء للعدو معرجاء، ونسأل الله الذى جعل للهم فرجا وللضيق مخرجا، أن يعيد اليها كلمة الاسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا ، انتهى

(قلت) هذا كان منذ نحو ثلثمائة سنة والعهد بالخروج حديث ، والدم على أسوار غرناطة طرىء، والعادة المستمرة راسخة التأثير، ولدنو زمن الخروج فى أمل الرجوع حق كبير فأما الآن ولم يكتف العدو باسترداد أرضه حتى هم بالتجاوز الى ما وراء البحر، واعترض من بلاد الاسلام ما بين السحر والنحر، فلو نشر المقري فى هذا العصر رأى ما رأى من التكالب المحيط لقنع بحفظ الموجود، ولم تماد به الاماني الى استحياء ما فى اللحود، ولله الامر من قبل وبعد (١)

---

(١) إننا عند ما حررنا هذا التاريخ لم يكن المغرب الاقصى سقط في أيدي الفرنسيس والاسبانيول، على ان الله تعالى بعث على هؤلاء جنده من بواسل ريف مراكش بقيادة بطل الاسلام الامير عبد الكريم فنكلوا بهم وثأروا لعرب الاندلس منهم ، ونسال الله حسن العاقبة لهم

*

وأما تاريخ فتح غرناطة فينتهي الى فتح سائر الاندلس على يد طارق ابن زياد فان طارقا لما هزم لذريق ومزق جموعه وحاز أمواله وتسامع الناس من بر العدوة بالفتح الذى تم على يده اقبلوا اليه من وراء البحر وتكاثفوا حوله فارتفع الاسبانيول عند ذلك الى الحصون والقلاع، ولحقوا بالجبال، فطرق طارق حصونهم فاستنزلهم منها قسرا، أرهقهم ذلا وعسرا، وأوغل فى البلاد فقذف الله الرعب فى قلوب الاسبانيول، فلم يثبتوا فى موقف، وصمد طارق الى طليطلة قاعدة ملكهم، وأرسل مغيثا مولى الوليد ابن عبد الملك الى قرطبة. وسرح جيشا الى مالقة وجيشا آخر الى غرناطة مدينة البيرة فافتتحوا مالقة ولاذ علوجها بجبالهم التي صارت فى الدهور التالية ملجأ للمسلمين وتوجهوا الى البيرة فحصروا مدينة غرناطة فافتتحوها عنوة وضموا اليهود الى قصبتها، وصار ذلك لهم سنة فى كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين استنامة اليهم من دون الاسبانيول لما بينهم من العداوة، ثم ان العرب أخذوا بالرحيل الى الاندلس والوفود على تلك البلاد من كل ناحية ولا سيما عرب الشام فلما كانت ولاية أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة ابن صفوان عامل افريقية سنة خمس وعشرين بعد المائة كثروا عنده في قرطبة فلم يحملهم المصر ففرقهم في البلاد وكان سديد الرأي وافر الحزم فأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهل حمص اشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين، وأهل الاردن رية ومالقة وسماها الاردن، وأهل فلسطين شربش وسماها فلسطين،

وأهل مصر تدمير وسماها مصر، وقيل ان بها نهرا له شأن كشأن النيل في الفيضان في فصل مخصوص .

ولما أفلت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان الاموي الملقب بالداخل سنة ثمان وثلاثين ومائة شريدا من المشرق واقتطع الاندلس عن المنصور العباسي نزل بساحل المنكب بادىء بدء، وهنالك وافاه أحزابه والقائمون بدعوة الاموية من أشبيلية ورية بالبيعة وأخلصوا المناصحة وانضم اليه اليمانيـة فنهد الى قرطبـة مقر الوالي يوسف ابن عبد الرحمن الفهري وكان غازيا في الجلالقة فأسرع الاوبة وزحف اليه عبد الرحمن فتلاقى الجمعان بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجأ الى غرناطة وتحصن بها ثم تصالحا على أن يبقى عبد الرحمن في قرطبة أميراً ثم نكث يوسف العهد واستؤنفت الحرب فانهزم الفهري واحتز رأسه وجيء به الى عبد الرحمن واستوسق له الامر ودانت لطاعته البلاد ولمن بعده من أعقابه، على تزايد في صولتهم، وتأثل من سلطانهم، وكانت غرناطة كغيرها من الامصار يخفق فوقها اللواء الاموي حينما لم يكن غيره راية، ولا دونه خلافة، الى أن اضطرب حبل المروانيين بالاندلس، وانتزى عليهم المنصور ابن أبي عامر كافل الخلافة (١) واعقابه وقاموا بالدولة العامرية وعاقدوا

---

(١) هو الملك الاعظم المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري من أجل ملوك الاسلام، وامضى سيوف محمد عليه الصلاة والسلام، لم يرو عن أحد زيادة عما روي عنه من الهمة في الجهاد والاعمال في الغزو وتردد السرايا الى العدو وقال انه غزا ستا وخمسين غزاة لم تنتكس له فيها راية، ولا فل له جيش، وما أصيب له بعث ولا هلكت له سرية. وقيل انه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته كلها فكانوا يأخذونه عنه بالمناديل حتى

صنهاجة من قبائل البربر واتخذوهم عضداً في مواقفهم من دون العرب وكان

= اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييرها في حنوطه وكان يحملها معه في أسفاره
وغزواته مع أكفانه توقعا لحلول الأجل. وقرأت مايشبه ذلك عن سيف الدولة ابن
حمدان العدوى من انه اجتمع له من هذا الغبار لبنة كبيرة عهد بوضعها تحت رأسه
في قبره، وجد المنصور هو عبد الملك المعافري الوافد على الاندلس بصحبة طارق
وأصله من قرية تركش رحل الى قرطبة وتأدب بها ثم اقتعد دكانا عند باب القصر
يكتب فيه لمن يعن له كتب من خدام القصر الى ان احتاجت السيدة صبح ام
المؤيد الاموى من يكتب لها فعرفها به من يعرفه فكتب عنها وترقى في خدمتها
الى ان رغبت الى الخليفة في توليته القضاء فولاه فظهرت منه نجابة فترقى الى ولاية
الزكاة والمواريث باشبيلية ثم كانت ممد أظهوره وناصح في خدمة المصحفي حاجب
الخليفة وصار له شأن فلما توفي الحكم وتولى ابنه هشام المؤيد وهو حدث جاشت
الافرنج فرماهم المصحفي بابن ابي عامر فانتصر عليهم وتمكن حبه من القلوب وأخذ
يزداد جاها وعلوا حتى ثاب له رأى بالاستبداد فكر بأهل الدولة وضرب بينهم وقتل
بعضهم ببعض فنكب الصقالبة الخصيان بالقصر بالمصحفي ونكب هذا بغالب
مولى الحكم صاحب مدينة سالم ونكب غالبا بجعفر بن حمدون قائد الشيعة وممدوح
ابن هاني وجعفراً بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون ثم استعان
على اولياء الدولة كلهم بالجند من زناتة والبربر واصطنعهم وحجر على هشام المؤيد
ولم يبق له من الامر الا الاسم وامر بالدعاء باسمه على المنابر عقب اسم الخليفة وصار
شأنه معه شأن ابن بويه مع المطيع او الطائع العباسي بل أعظم من ذلك واجاز
الى العدوة وضرب بين رؤساء البربر فاستوثق له ملك المغرب وملك العدوتين وقهر
جميع الاعداء وله الغزاة المشهورة في بلاد غاليسية الى شنت ياقب (سان جاك)
التي وصل بها الى مالم تطأه رجل مسلم من بلاد الافرنج وتوفى سنة ٣٩٤ بمدينة
سالم وهو منصرف من الغزو وحكي أنه مكتوب على قبره هذان البيتان

آثاره تنبيك عن اخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله كلا ولا يحمي الثغور سواه

وكان ملكه سبعا وعشرين سنة
واخباره ونوادره تحتمل مجلدات واكثرها مستفيض في التواريخ وكتب الأدب وقد
افرد ابن حيان لآثاره في الحزم والكيد والجلد تأليفا وخلفه ولده عبد الملك المظفر
ابو مروان وكان مقتفيا اثر ابيه في الجهاد وملك سبع سنين وخلفه أخوه عبد الرحمن
وكل منهم حجر على هشام لكن هذا الاخير أحب ان يستأثر بما بقى من رسوم الخلافة
وأجبر هشاما على ان يوليه عهده ولكنه قتل وانتهى به ملك العامريين كما اشرنا اليه

عميد صنهاجة لوقته زاوي من بني حبوس فكان هو وقومه من صنهاجة وزناته مادة لاولاد المنصور بن أبي عامر إلى ان همت القرشية ومن اليهم من المضرية باعادة الملك إلى نصابه وتمخضت الحال بالفتنة وثار اهل قرطبة على ابي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وبايعوا محمد ابن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من اعقاب الخلفاء ولقبوه بالمهدي بالله وكان عبد الرحمن بن المنصور بالثغر فقفل إلى الحضرة وانفض عنه جمعه وخذله حزبه حتى البربر انصار دعوتهم بما نقموا عليه من سوء تدبيره ثم وثب عليه [illegible] وحتز رأسه وحمله إلى المهدي وانقرضت دولة العامريين كأن لم تغن بالامس

وبعد أن اديل ثانية لبني امية تذكر اشياعهم من انتصار العامريين بالبربر وتسلطهم بهم ما اسخط على هؤلاء القلوب وثار بهم الدهماء فهبوا دورهم وانتقموا منهم فشكوا ما أصابهم الى المهدي وكان واجداً في نفسه مثلما وجد الناس فغض الطرف عن اساءتهم فتمشت رجالاتهم بالتحريك واسروا النجوى في تقديم هشام بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر ففشا الامر وعوجلوا عن تقدمهم وأحضر هشام وأخوه ابو بكر بين يدي المهدي فضرب اعناقهما وزعق البربر عن قرطبة ولحق بهم سليمان بن الحكم بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر فبايعوه ولقبوه بالمستعين بالله واجتمعوا حوله بظاهر قرطبة ثم نهضوا الى طليطلة واستجاشوا بابن الاذفونش ونهضت البرابرة والنصرانية إلباً واحداً الى قرطبة فبرز المهدي الى لقائهم في جمهورها فانهزم ودخل المستعين قرطبة ختام المائة لرابعة ولحق المهدي بطليطلة واستجاش بابن الاذفونش أيضا وكانت القضية

بالتناوب وكان هذا عند منهم كل من استجاش به توسما للنكاية فيما بينهم، وكر المهدي على قرطبة بكشف عنها المستعين ومن معه فتفرقوا في البلاد للعيث والفساد، فخرج المهدي في أثرهم ومعه ابن الاذفونش فاجتمعوا لهما وكروا عليهما فانهزما عن معهما من الاسلام والنصرانية، ودخل المهدي قرطبة مدحوراً ويئس من الفوز، وأخرج هشام المؤيد الخليفة كان قبل الفتنة، وأقام في حجابته ظناً بأن ذلك يجمع الكلمة ويفل من غرب اعدائه فلم يقف ذلك بعزم البربر والمستعين صاحبهم وأداموا الحصار فقام عامة قرطبة وقتلوا المهدي بحجة انه هو سبب الفتنة فلم يجدهم ذلك في التنفيس عن خناقهم وبقي المستعين بنصرهم حتى دخل قرطبة ومن معه وقتل هشام سراً، وعاث البربر في الحضرة ونهبوها، وانزلوا المعرة بذوي الصون والستر من بيوتاتها، ثم وثب البربر بعد هذا الغلب على المدن العظيمة فولوها ونزل زاوي المقدم الذكر بغرناطة من القواعد وهي محل المشاهد، اتخذها داراً ومتعماً له ولقومه ثم خشي ثورة الاحقاد ووثوب أهل الاندلس على البربر فقفل الى المغرب ولحق بقومه في القيروان واستخلف على غرناطه ابنه فحدث بينه وبين الغرناطيين ما اوجب انتقاضهم عليه فبايعوا حبوس ابن عمه فتأثل أمره وصار من اعظم ملوك الطوائف بالاندلس وبعد وفاته سنة تسع وعشرين واربعمائة ولي ابنه باديس ولقب بالمظفر، وزحف اليه العامري صاحب المرية فلقيه باديس بظاهر غرناطة فهزمه وقتله وتمت شوكته وعظم سلطانه حتى خطب نصرته جميع ملوك عصره، واستنجده محمد بن عبد الله البرزالي في دفاع ابن عباد واستمده القادر بن ذي النون في ما اصابه أيضاً وشاد باديس في غرناطة القصور ومرد الصروح . وسنة

تسع وأربعين عند انقراض بني حمود أصحاب مالقة أضافها الى عمله وتوفي سنة سبع وستين وخلفه حافده عبد الله بن بلكين بن باديس وعقد لاخيه تميم على مالقة وكانت ظهرت دولة المرابطين وأجاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى الاندلس ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين فقبض على عبد الله بن بلكين وأخيه تميم ونقلهما الى بر العدوة وانزلهما السوس الاقصى فهلكا وانقرضت بهما تلك الامارة

رجع الى أخبار قرطبة

لما استقام الامر للمستعين بوساطة البربر خرج علي بن حمود الحسني وأخوه قاسم من عقب ادريس ملك فاس من المغرب وأجازا الى الاندلس وادعيا الخلافة واعصوصب حولهما البربر ونصروهما على المستعين الاموي صاحبهم الاول فقتلوه وثلوا عرش بني امية سبع سنين ، وجرى بينهم اثناء هذه المدة حروب ووقائع ليس هنا محل شرحها وتلقبوا بالقاب الخلفاء وتغلبوا على الامصار ، لكن لم تطل مدتهم فان آخرهم كان الواثق توفي سنة خمسين وكان أهل قرطبة أعادوا الخلافة الى نصابها وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي ولقبوه بالمستظهر وبعد شهرين من خلافته ثار عليه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر واتبعه العامة ففتك بالمستظهر واقام مكانه ولقب بالمستكفي وهو والد ولادة الاديبة الشهيرة صاحبة المطارحات مع الوزير ابن زيدون رحمهما الله . وبعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الامر الى المعتلي يحيى ابن علي بن حمود وكان أهل قرطبة أكثر الناس تشغيبا

وأقلهم ثباتا على الامور نخلعوا المعتلي وبايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد ابن جهور كبير قرطبة لهشام بن محمد الاموي أخي المرتضي وكان في (لاردة) عند ابن هود ولقب بالمعتمد بالله ولم يصبروا عليه فوق ثلاثة أعوام قضى أكثرها متردداً في الثغر حتى خلعوه سنة ٤٢٢ وانطوى بساط الدولة الاموية وانتثر سلك الخلافة وصار الامر الى رؤساء وزراء وقضاة استقل كل منهم بما أمكنته يده وصار يتظاهر بعضهم على بعض بملوك الافرنج ويستجيشون بهم في الاحايين ويمكنونهم من حصون المسلمين طمعة على الاستظهار وإيثاراً لهوى الانفس على مصلحة الملة

ومن أشهر هؤلاء الملوك الذين تلقبوا بملوك الطوائف بنو عباد من سلالة المنذر بن ماء السماء اللخمي كانوا ملوكا بأشبيلية وغرب الاندلس وانتزعوا قرطبة من يد بني جهور أصحاب الوزارة. وأشهرهم المعتمد بن المعتضد الشهير بالادب والبراعة، والموصوف بالكرم والشجاعة، الذي نكبه في آخر أمره أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكان قد استفحل أمره بالاندلس وعلت يده على بقية ملوك الطوائف وخطبوا نصره وغلوا في رضاه، وما زال إقباله في ازدياد وجده في صعود، حتى أسره ابن تاشفين في خبر سيأتي ونكبه النكبة التي ضن بمثلها التاريخ بعد نكبة البرامكة وتوفي مسجونا باغمات سنة ٤٨٨ ومن ملوك الطوائف بنو ذي النون أصحاب طليطلة وقد بلغت دولتهم غاية قصية من الاستفحال والترف وجاهدوا في الثغور جهاداً كان الصبر مقامه وغلبوا المعتمد بن عباد على قرطبة وقتلوا ولده أباعمرو ونزعوا بلنسية من يد ابن أبي عامر الى أن أدرك دولتهم الضعف لعهد القادر بن ذي النون، واستلم ابن الاذفونش منهم طليطلة

مقر ملكهم وشرط المظاهرة عن أهل بلنسية فأجابوه، تغلب الاسبانيول على الارض واكتسحوا بسائطها، وقادوا أبناءها، وأذلوا عتاتها، وفي ذلك قول بعضهم يندب طليطلة :

لثكلك كيف تبتسم الثغور ... سروراً بعدما سبيت ثغور
أما وأبي مصابٌ هد منه ... ثبيرُ الدين فاتصل الثبور
لقد قصمت ظهور حين قالوا ... أمير الكافرين له ظهور
ترى في الدهر مسروراً بعيش ... مضى عنا لطيته السرور
أليس بها أبيُّ النفس شهم ... يدور على الدوائر إذ تدور
لقد خضعت رقابٌ كن غلباً ... وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل ... وسامح في الحريم فتى غيور
طليطلة أباح الكفر منها ... حماها إن ذا نبأ كبير
فليس مثالها إيوان كسرى ... ولا منها الخورنق والسدير
محصنة محسنة بعيد ... تناولها ومطلبها عسير
ألم تك معقلاً للدين صعباً ... فذلله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعاً ... فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم ... معالمها التي طمست تنير
مساجدها كنائس أي قلب ... على هذا يقر ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزناً ... يكرر ما تكررت الدهور
وينشر كل حزن ليس يطوى ... إلى يوم يكون به النشور
أديلت قاصرات الطرف كانت ... مصونات مساكنها القصور
وأدركها فتور في انتظار ... لسرب في لواحظه فتور

وكان بنا وبالقينات أولى ... لو انضمت على الكل القبور
لقد سخنت بالنين عين ... وكيف يصح مغلوب قرير
لئن غبنا عن الاخوان انا ... بأحزان وأشجان حضور
نذور كان للايام فيهم ... بهلكهم فقد وفت النذور
فان قلنا العقوبة أدركتهم ... وجاءهم من الله النكير
فانا مثلهم وأشد منهم ... نجور وكيف يسلم من يجور

ومنها

خذوا ثار الديانة وانصروها ... فقد حامت على القتلى النسور
ولا تهنوا وسلوا كل عضب ... تهاب مضاربا عنه النحور
وموتوا كلكم فالموت أولى ... بكم من أن تجاروا أو تجوروا
أصبراً بعد سبي وامتهان ... يلام عليهما القلب الصبور *
فأم الصبر مذكار ولود ... وأم الصقر مقلاة نزور

ومنها

كفى حزنا بأن الناس قالوا ... الى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها ... وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا ... نباكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخرير ماء ... فلا قر هناك ولا حرور
ويؤكل من فواكهها طري ... ويشرب من جداولها نمير
يؤدي مغرم في كل شهر ... ويؤخذ كل صائفة عشور
لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغر القوم بالله الغرور
رضينا بالرق يالله ماذا ... رآه وما أشار به مشير

مضى الاسلام فابك دما عليه | فما ينفي الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقا في فلاة | حيارى لا تحط ولا تسير
ولا تجنح الى سلم وحارب | عسى أن يجبر العظم الكسير
أنعمى عن مراشدنا جميعا | وما ان منهم الا بصير
ولو أنا ثبتنا كان خيراً | ولكن ما لنا كرم وخير
اذا ما لم يكن صبر جميل | فليس بنافع عدد كثير

ومن ملوك الطوائف بالاندلس بنو هود أصحاب سرقسطة واشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وكان المؤتمن قائما على العلوم الرياضية وله فيها تصانيف وابنه المستعين أحمد هو الذي هزمه الافرنج في واقعة (وشقة) وقتل من المسلمين يومئذ نحو عشرة آلاف واستشهد المستعين بظاهر سرقسطة سنة ٥٠٣ وولي ابنه عبد الملك عماد الدولة وهو الذي اجلاه العدو عن سرقسطة سنة ٥١٢ وولي ولده سيف الدولة وله في الجهاد الموقف الذي لا يخفى . ومنهم بنو الافسط ملوك بطليوس الذين منهم المظفر صاحب التأليف المسمى بالمظفري في خمسين مجلداً وهم المرثيون برائية ابن عبدون المشهورة التي مطلعها

الدهر يفجع بعد العين بالاثر | فما البكاء على الاشباح والصور

وذلك عند فتك البربر بالمتوكل البطليوسي . ومنهم بنو صمادح بالمرية ومنهم مجاهد العامري بدانية والجزائر ومنهم بنو حيوس بغرناطة مكان الحاجة من الاستشهاد هذا ولما تكالب الاسبانيول على بلاد المسلمين في الاندلس واهتبلوا الفرصة بما كان من افتراق الكلمة وتشعب السلطة وملكوا بلنسية وطليطلة وسرقسطة وغيرها وسار طاغيتهم حتى وقف

بفرضة المجاز من طريف وضرب على ملوك الطوائف انواع الجزى فأدوها واعطوه المقادة وكان اضخمهم ملكا المعتمد بن عباد اللخمي صاحب اشبيلية يؤديها وهو صاغر فلما تملك الاذفونش طليطلة أرسل اليه المعتمد المعتاد فلم يقبله هاتيك المرة وارسل يطلب منه النزول عن جميع الحصون المنيعة وتبقى السهول للمسلمين والافهو يزحف الى قرطبة، وكانت الرسالة مع جم وافر نحو خمسمائة فارس، فضاق المعتمد ذرعاً واعتزم القيام ففرق الجماعة على قواد عسكره وامرهم بأن يقتل كل من عنده وتولى هو بنفسه صفع عميدهم حتى خرجت عيناه وافلت منهم ثلاثة نفر فعادوا الى الاذفونش واخبروه بالخبر فرجع عن قرطبة الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويجلب بالقوة الكافية وهذه رواية ابن الاثير

وروى صاحب (الروض المعطار في ذكر المدن والاقطار) ماملخصه أن المعتمد تأخر في دفع الضريبة لاشتغاله بغزو ابن صمادح صاحب المرية فلما ارسلها استشاط الاذفونش غضبا وارسل يطلب منه بعض الحصون وامعن في التجني وسأل في دخول امرأته الحامل جامع قرطبة لتلد فيه حسب اشارة القسيسين والاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم وأن تنزل في قصر الزهراء غربي مدينة قرطبة والزهراء، هذه هي التي بناها الناصر لدين الله وامعن في بنائها وجلب اليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور الخ ذلك لتلد الاذفونشة بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة الكنيسة من الجامع المذكور، وكان صاحب هذه السفارة يهوديا هو وزير الاذفونش فأبى ابن عباد اجابة التماسه فراجعه وألح عليه حتى أيأسه بما غلظ له من القول فضربه المعتمد بمحبرة كانت بين يديه فانزل دماغه

في حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة واستفتى في جواز الفعلة الفقهاء فبادر محمد بن الطلاع الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة واحتج بأنه انما بادر بذلك خوفا من أن يكمل المتمد من فسخ نية العدو وبلغ الخبر الاذفونش فاقسم بالهه ليغزونه باشبيلية وليحصرنه في عقر داره وجرد له جيشين احدهما زحف الى كورة باجة فلبلة فاشبيلية والثاني تولى قيادته بنفسه حتى التقى الجيشان تحت لوائه قبالة قصر ابن عباد على ضفة النهر الاعظم وفي أيام مقامه هناك كتب الى ابن عباد زاريا «كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب واشتد علي الحر فاتحفني من قصرك بمروحة اروح بها على نفسي واطرد بها الذباب عن وجهي» فوقع له ابن عباد بخطه في ظهر الرقعة «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله تعالى» وشاع توقيع ابن عباد وفشا في الناس عزمه على استنفار البربر لمجاهدة العدو فلما علم بذلك اقرانه ملوك الطوائف اهتزوا وتشاوروا في الامر ومنهم من كاتبه ومنهم من شافهه قائلين ان الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة «رعي الجمال خير من رعي الخنازير» أي أن يكون أكولا ليوسف ابن تاشفين يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقا للاذفونش أسيرا عنده يرعى خنازيره في قشتالة وقال لعذاله قولا آخر يا قوم اني من امري على حالين حالة يقين وحالة شك ولا بد لي من احداهما اما حالة الشك فاني ان استندت الى الاذفونش أو الى ابن تاشفين فمن الممكن أن يفي لي ويمكن أن لا يفعل واما حالة اليقين فانني ان استندت الى ابن تاشفين ارضي الله وان استندت الى الاذفونش

اسخطت الله وهذه حالة يقين فلماذا ادع مايرضى الله الى مايسخطه

ولما عزم المعتمد على الاستجاشة امر كلا من المتوكل بن الافطس صاحب بطليوس وعبد الله بن حيوس صاحب غرناطة أن يوفدا قاضي الجماعة بحضرته واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن ادهم وكان أعقل أهل زمانه فلما اجتمع عنده القضاة باشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وأسند الى القضاة مايليق بهم من وعظ ابن تاشفين وترغيبه في الجهاد واسند الى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة من ابرام العقود السلطانية (وقد وفى يوسف بالاولى ولم يف بالثانية)

وكان ابن تاشفين منذ اعتراء الضعف دول الاندلس لم تزل تفد عليه وفود المسلمين من وراء البحر مستعطفين مجهشين بالبكاء فاوفدت رسل ابن عباد حتي اسرع الاجابة وحشد العساكر وانزلها بالجزيرة الخضراء وأجاز على أثرها وامتلأت الجزيرة بالمجاهدين والمتطوعة وعلى رواية ابن خلكان انه أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب فكان يحدق بها عسكره عند الحرب وكانت خيل الفرنج تجمح منها

ولما نزل يوسف بحشوده في الجزيرة وبلغ الاذفونش تألب امراء المسلمين لمناهدته استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والاساقفة صلبانهم واجتمع له من الافرنجة والجلالقة مالا

يحصى عدده ، وبعث الاذفونش الى ابن عباد ان صاحبكم يوسف تجشم المشقة وخاض البحار وأنا أكفيه لعناء فيما بقي والقاكم في بلادكم رفقاً بكم وكان مقصده في الدلوف الى ديار المسلمين انه ان دارت عليه الدائرة كان له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم وان كانت عليهم كان أقدر على النكاية فيهم في عقرتهم. ومما قيل انه كتب الى يوسف كتاباً انشأه له بعض غواة المسلمين يغلظ له في القول ويتوعده فأمر ابن تاشفين ولم يكن اعلم بالعربية من الاذفونش كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجاوبه وكان كاتبا بداً فكتب وأجاد فلما قرأه يوسف استطاله وأخذ كتاب الاذفنش كتب على ظهره الذي يكون ستراه. وأخذ المعتمد وامراء الاندلس ابون لجيوش المرابطين الاقوات والضيافات

ولما قرب أمير المسلمين من اشبيلية خرج ابن عباد للقائه في وجوه اصحابه وعندما تلاقيا تصافحا وتعانقا ثم شكرا انعم الله وتواصيا بالصبر والرحمة وتوسلا الى الله أن يجعل سعيهما خالصاً لوجهه. ووافت الجيوش كلها بطليوس وجاءهم الخبر بزحف الطاغية ولما تدانى الفريقان اذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفا عليهم من المكايد لجهلهم المكان وكان يوسف قد كتب الى الاذفونش يدعوه الى احدى الثلاث وهي الاسلام أو الجزية أو السيف كما هي السنة فامتلأ الاذفونش غيظا وقامت الاساقفة ورفعوا صلبانهم وتبايعوا على الموت وقام الفقهاء من الجهة المقابلة ووعظوا وحضوا على الصبر والثبات، وصدعوا بقوارع الكتاب ، واصبح يوم الخميس فبعث الاذفونش الى ابن عباد يقول له غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والاحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت فاعلم ابن عباد السلطان

يوسف بذلك وإنما خديعة ليفتك بالمسلمين الجمعة فانتبه الجيش الاسلامي طول ليلة الجمعة واستيقظ الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي فرحاً مسروراً يقول إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والشهادة فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه بالطيب وانتهى ذلك الى ابن عباد فبعث الى يوسف يخبره

وجاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الاذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش وصليل الاسنة وجاءت العيون من داخل محلتهم يقولون قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لاصحابه ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وان كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب فهم جاهلون البلاد فاقصدوا ابن عباد واصدقوه الحملة فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون فأرسل ابن عباد يعرف أمير المسلمين وقبل ورود الجواب غشيته جنود الاذفونش من كل جهة وهاجت الحرب وحمي الوطيس وتتابع الناس على الموت وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لاحد واستبطأ يوسف في النجدة وانكشف بعض اصحابه واثخن جراحات وعثرت تحته ثلاثة أفراس

وبينما هو على تلك الحال أقبل عليه من قواد المرابطين داود بن عائشة وكان من الابطال فنفس عن خناقه وأقبل يوسف بجموعه وأصوات طبوله قد ملأت الفضاء فنهد اليه الاذفونش بمعظم جيشه فصدمهم ابن تاشفين بجنده فردهم الى مراكزهم وانتظم بيوسف شمل ابن عباد وحملوا جميعاً حملة الرجل الواحد فتزلزلت الارض بحوافر خيلهم واظلم الجو من العثير وتراجع المنكشفون من أصحاب ابن عباد وتجددت الحملة

فانكشف الاذفونش وقيل بل تصادم الجمعان وتناوبا الكر والفر الى أن أمر يوسف حشمه من السودان فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان وأدرك الاذفونش اسود لصق به وقبض على عنانه وانتضى خنجرا أثبته في فخذه فهتك حلق درعه، وهبت ريح النصر وأنزل الله السكينة على المسلمين وانكشف العدو من كل جانب وقد فشا فيه القتل والاسر واعتصم الاذفونش بخمسمائة فارس من قومه بربوة عالية انسابوا منها بعد تخييم الظلام وقد أباد القتل من الاسبانيول امة وجعل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها واستشهد في ذلك اليوم ابن رميلة كما بشره النبي صلى الله عليه وسلم وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما من الاعيان

وأقامت العساكر بالموضع اربعة أيام حتى جمعت الغنائم فتعفف عنها أمير المسلمين إيثاراً لاهل الاندلس وعادوا جميعا الى اشبيليه وحضرت الكتب من بر العدوة الى ابن تاشفين تقتضي عزمه بالرجوع فعبر البحر وودعه المعتمد. وهذه وقعة الزلاقة الشهيرة من أشهر ما حملته التواريخ من الوقائع بين الاسلام والنصرانية وقد استوفينا خبرها بمكانها من صدور الحوادث ووجدنا اختلافاً في تعيين عامها فابن خلدون يقول سنة احدى وثمانين (بعد الاربعمائة) وابن علقمة يقول ان طليطلة أخذت يوم الاربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ وكانت واقعة الزلاقة التي نشأت في السنة بعدها . ولما قفل ابن تاشفين الى المغرب خلف وراءه بالاندلس الامير سيري بن أبي بكر أحد قواده الكبار ومعه جيش برسم الجهاد وابن خلدون يقول انه خلف محمد المعروف بابن الحاج فزحفت عساكر

المرابطين صوب بلاد العدو فاثخنت وسبت وتوغلت في البلاد وكتب الى يوسف قواده: ان الجيش مقيم على مراس العدو وهو في أضيق العيش وأنكده وأن ملوك الطوائف متقاعدون يجرون ذيول الترف والترفه، وقيل بل كان ابن تاشفين أنكر عليهم تراكم المغارم وتلاحق المكوس على رعيتهم فأمر برفع الكثير منها فانقبضوا عنه الا ابن عباد في الاول فأمر ابن تاشفين بنقلهم الى بر العدوة وقتال من عصى منهم فابتدأ ببني هود وأنزلهم من قلاعهم واستولى مكانهم وقتل ابن ذي النون صاحب بلنسية وملكها ونازل بني طاهر بشرق الاندلس فاجلاهم وألحقهم بالمغرب، وقصد بطليوس وفيها ابن الافطس فانتزع منه جميع أعماله واخذ غرناطة من يد عبد الله بن بلكين بن باديس ومالقة من يد أخيه تميم، ولم يبق عليه الا المعتمد بن عباد في اشبيلية وكان الفقهاء قد أفتوا أمير المسلمين بخلع الجميع لما رأوا من فرقتهم وسوء أحوالهم من تشعب أمور الملة ، لتكالب العدو ووردت الفتاوي على يوسف من اعلام الشرق مثل الامام الغزالي والطرطوشي بوجوب ذلك

وكان ابن تاشفين لما ورد على المعتمد حضرته اشبيلية بعد الزلاقة ورأى ما رأى من ترف المعتمد وسرفه في قصوره واسترساله الى حظوظ نفسه مما كانت ترغب عنه نفس ابن تاشفين الناشيء في الصحراء أنكر ذلك الامر وقال : ان هـذا الرجل مضيع لما بيده وحكم بأن توفر هذه الاموال بين يديه لا بد أن يكون نتيجة المظالم والمغارم. والظلم وزيادة الرسوم عين الخراب على الرعية، فأرسل سيري قائده يطالبه بالطاعة فلم يجبه فنازله وحصر اشبيلية واستجاش المعتمد

بالطاغية فلم ينفعه لما كان المرابطون قد فلوا من غربه فدافع المعتمد عند دخول المرابطين بلده دفاعا مشهورا وخرج حاسرا عن مفاضته والسيف في يده فرماه أحد الداخلين برمح فأخطأه فبادره بضربة أزهق بها روحه ولقي ثانيا فقسمه شطرين الى أن وجد ابنه مالكا مقتولا ويئس من الثبات فطلب الامان فأجيب اليه وحمل على السفين منفيا الى بر العدوة فأسكنه يوسف اغمات وبها مات سنة ٤٧٠ ومن قوله عند ما خلع

ان يسلب القوم العدي ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم أن لا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص على الحشى شيء دفوع
أجلي تأخر لم يكن بهواه ذلي والخضوع
ما سرت قط الى القتال وكان من أملي الرجوع
شيم الالى أنا منهم والاصل تتبعه الفروع

والمعتمد بن عباد ينتمي الى المنذر بن ماء السماء اللخمي وفي ذلك يقول أحد الشعراء

من بني منذر وذاك انتساب زاد في فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي (١) والمعالي قليلة الاولاد

ولم تعرفنا كتب الادب العربي ببيت قيل فيه من الشعر ودار على أيام انسه ثم ادوار نحسه من المحاضرات مثل هذا البيت اللخمي، ولا بدولة

---

(١) والى هذه الشجرة ايضا ينتسب محرر هذا الكتاب ومن بني لخم أقوام كثيرون في الغرب والشرق ولا سيما بصعيد مصر

راجت فيها بضاعة الادب والفصاحة، وتناهت اليها غايات الكرم والسماحة أكثر من دولة بني عباد، حتى قال ابن اللبانة أن الدولة العبادية بالاندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد سعة مكارم، وجمع فضائل ولذلك ألف فيها كتابا مستقلا سماه (الاعتماد في أخبار بني عباد) ولا يلتفت لكلب عقور نبح بقوله

مما يزهدني في ارض اندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد
اسماء مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

لان هذه مقالة متعسف كافر للنعم، ومثل ذلك في حقهم لا يقدح، وما زالت الاشراف تهجي وتمدح انتهى. وأخبار المعتمد واشعاره وامداح الشعراء فيه، وفريدات القصائد في مراثيه، ملء كتب المحاضرات، وهي غرر قصص المسامرات

غزا يوسف بن تاشفين الاندلس أربع مرات اخرهن سنة ٤٩٧ وانتظمت جميع ديار الاسلام فيها بملكه وانقرضت ملوك الطوائف

واتسع سلطانه بالعدوتين وورد له التقليد من الخليفة المستنصر العباسي وتوفي على رأس المائة الخامسة وقام بالامر بعده ابنه علي بن يوسف وسلك سنن أبيه في الغزو والجهاد وأجاز الى الاندلس سنة ثلاث ونازل طليطلة وأثخن في ديار العدو وعقد لولده تاشفين على غرب الاندلس وأجاز معه الزبير بن عمر في جيش وعقد لابي بكر بن ابراهيم المسوفي على شرق الاندلس وهو ممدوح ابن خفاجة أرق شعراء الاندلس شعرا ومخدوم الحكيم المعروف بابن الصائغ وولي ابن غانية الجزائر الشرقية ميورقة ودانية ولاربع عشرة سنة من ملكه ظهر المهدي بن تومرت القائم بدعوة

الموحدين آمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر والتفت عليه المصادمة وتوفي سنة ٢٤ وقام بالامر بعده عبد المؤمن بن علي كبير اصحابه وانتسبت الدولة اليه فقبل دولة بني عبد المؤمن فلم يزل يسعى في تقويض خيام لمتونة ومحو آثار المرابطين حتى ملك اكثر المغرب منهم وكان علي بن يوسف قد مات وخلفه ابنه تاشفين فصمد الى الموحدين بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطري فانهزمت صنهاجة وفرّ تاشفين الى وهران لاجئا بلب ابن ميمون قائد البحر ومات سنة ٤١ وبويع في حضرتهم مراكش لابنه ابراهيم وكان ضعيفا عن حمل الامر فأديل منه لعمه اسحق بن علي بن يوسف وعلى تفيئة ذلك نازل الموحدون مراكش وملكوها وقطعوا دابر المرابطين وانعطفوا نحو الاندلس سنة ٥٥١ فانتزعوها من أيدي عمالهم مدينة مدينة وحصنا حصنا بعد حروب تساجلت بها فئة المرابطين والموحدين وانتهت بالفتح لهؤلاء

وطلب الثوار الامان من عبد المؤمن وتلاحقوا به فصفح عنهم ونهض الى سلا سنة ٤٥ واستدعى أهل الاندلس فبايعوه جميعا وكان ميمون ابن بدر اللمتوني في غرناطة فنزل عنها له ولحق بمراكش ونازل السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن المرية وكانت يومئذ في يد الاسبانيول فاستنزلهم منها وتولى ابنه الآخر السيد أبو يعقوب اشبيلية بطلب اشياخها وزحف صاحب طليطلة الاسبانيولي بجميع الاكفاء لها الى قرطبة فسرح جيوش الموحدين الى مقابلته فارتحل عنها

وكان الامير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش قد ثار عليه بشرق الاندلس فكتب الى عماله بالاندلس بما تيسر له من فتح

افريقية وأنه عابر اليهم وكان ولداه أبو سعيد وأبو يعقوب في الحضرة زائرين فانتهز الفرصة ابن همشك من اشياع اللمتونيين واستولى على غرناطة وانحصر من فيها من الموحدين بالقصبة فنهض عبد المؤمن الى سلا وارسل ابنه سعيداً وضم اليه ابن أبي حفص عامل اشبيلية من قبله لاجل استنقاذ غرناطة فهزمهما ابن همشك ورجع أبو سعيد الى مالقة فأعادهما الى غرناطة وعززهما بثالث هو ابنه الآخر السيد أبو يعقوب في سواد من الموحدين فوصلوا الى غرناطة وقد وافاها ابن مردنيش مدداً لابن همشك وظاهرهما النصارى فازدلف الفريقان بعضهم الى بعض بفحص غرناطة فدارت الدائرة على ابن همشك وأحلافه ففر ابن مردنيش الى الشرق مكانه ولحق ابن همشك بجيان ودخل السيدان ولدا عبدالمؤمن قرطبة

وسنة ٥٨٥ توفي عبدالمؤمن بن علي رأس الموحدين وقام بالامر بعده ولده أبو يعقوب وبايعوه كافة وفي أيامه قصد الحاج ابن مردنيش قرطبة ومعه جموع من زغبة وغيرها فارسل السيد أبا سعيد صاحب غرناطة والسيد أبا حفص أخاه في عساكر الموحدين لمنازلته فالتقوا بفحص مرسية فانهزم ابن مردنيش وأولياؤه من الاسبانيول وأقر أبو يعقوب أخاه أبا سعيد على غرناطة وجعل أخاه السيد أبا اسحق على قرطبة وزحف الاسبانيول على مدن المسلمين فخرج أبو حفص من مراكش سنة ٦٥ ومعه جموع الموحدين وأخوه أبو سعيد فوصل الى اشبيلية وأرسل أخاه أبا سعيد الى بطليوس وكان موحدوها قد دفعوا العدو فانعقد الصلح مع الاسبانيول ونهض الموحدون الى مرسية لتأديب ابن مردنيش الثائر ورافقهم ابن همشك حليفه بالامس لوحشة وقعت بينهما حملت هذا على أن يبعث الى

أبي حفص بطاعته وتوحيده فحصر ابن مرد ... ن في مرسية وأطاع أهل
الورقة وخضع ابن عمه صاحب المرية فخص ... جناحه وتوافت عند
الخليفة بمراكش جموع العرب فنهض بها الى ... ندلس واحتل قرطبة سنة
٥٧ ثم اشبيلية وكان ابن مردنيش قد هلك ... الحصار فادعن أولاده
للخليفة وقربهم اليه وصهر لهلال بن محمد بن ... دنيش في بنته وأقر أخاه
أبا سعيد على غرناطة وخرج القومس الاحدب بجموع الاسبانيول فنهد
اليهم وأوقع بهم في قلعة رباح ... الى اشب ... فنقض المدو ثانية فكر
عليه وتوغل في بلاده وفرق جموعه وقفل الى ... ضرة عام ٧١ لخمس سنين
من اجازته الى الاندلس وتوفي السيد أبو سعيد أخوه بالطاعون فعقد
لابي زيد بن أبي حفص على غرناطة ولأخيه ... محمد عبد الله على مالقة
وسنة ٧٥ عقد لقائم بن محمد بن مردنيش ... أغزاه اشبونة فغنم
ورجع وانتقض الاسبانيول ثانية ... شنوا غارات على جهات
غرناطة ومالقة وصدمهم الموحدون من الاندلس وعليهم السيد أبو اسحق
أخو الخليفة ... أجاز الخليفة ثانية ... حشود العرب وذلك
سنة ٨٠ فغزا سنتمرين وأثناء حصارها أو ... منها توفي قيل من
سهم أصابه من جهة العدو ... في خلفه ابنه يعقوب فلم
يزل في الجهاد وأثخن في العدو وأجاز الى مر ... وبعد مدة بلغه خروج
العدو وإيقاعه بالمسلمين وتغلبه على شلب سنة ٥٨٥ ... النصير ... الى قصر
مصمودة ومنها جاز الى طريف ... حصر شلب ... ش وغيرها من الحصون
فافتتحها ودانت له البلاد فقفل الى المغرب ... وبها لما بلغه من ثورة
ابن غانية الذي كان واليا في ميورقة فلم تكد ... تستقر هناك حتى بلغه

من امر الاندلس وكر... مد... ما أقض مضجعه فاستانف الاجازة سنة ٩١ وتلاحقت به حشود الـ...دين من كل جهة فنزل بالارك من نواحي بطليوس وقصدته الاسـ...بيرل وعليهم ابن الاذفونش وملكان آخران في جيوش وافرة فكانت ...قعة الارك التي هي اخت ...اقعة الزلاقة وقيل أجل منها قدراً يروى ان ...ل فيها من الافرنج ثلاثون ألفاً وحصل في بيت المال من الدروع ستة ... الفاً ... الافرنج خمسة آلاف فاعتصموا بحصن الارك فحصرهم ... استنزلهم وفدى بهم عددهم من المسلمين

وفي السنة التالية ...ج الى الجهاد أيضاً وافتتح عدة حصون وتوغل حتى أشرف على طليطلة ... واكتسح ... وغنم وسبى وأبعد النكاية في العدو وقفل الى اشبيلية ... وهناك اعتقل القاضي أبا الوليد بن رشد طائر الصيت في الاصقاع الا...ية والمنسوب اليه مذهب الاشراق في الفلسفة والذي ألف عليه وباسمه ... رنان الفرنسي كتاباً مستقلا وذلك لمقالات رفعت الى السلـ... يعقوب المذكور يستدل بها على رقة دينه وسلاسة اعتقاده.

وعام ٩٣ عاود الـ... أثخن في ديار طليطلة واعيت بالافرنج الحيلة فهادنوه وخطبوا ... وأ... لذ... بما بلغه من ثورة ابن غانية وقراقوش مملوك بني أيوب وأجـ... الى الحضرة وتوفي وذلك عام ٥٩٥.

وهذا السلطان يعقوب المنصور هو الذي استجاش به صلاح الدين يوسف بن أيوب ليمنع ...اطيله ورود الافرنج على الشام وأرسل اليه في هذه المهمة ابن منقذ وا...حبه بهدية فقيل انه رده لتجافي سلطانه عن خطابه بلقب أمير المؤمنين وتقصيره من حقوقه وقيل انه جهز له بعد ذلك اسطولا

عظيما وقطع طريق البحر على الافرنج وهو السلطان الذي يروى انه زهد في آخر حياته وترك الملك وساح في الارض حتى وصل الى الشام ومات ودفن في البقاع والآن في الشرقي قرية اسمها السلطان يعقوب والمحققون على أن هذه الحكاية لا اصل لها وجزم ببطلانها الشريف الغرناطي وقال انها من اوضاع العامة لولوعهم بالسلطان المذكور

وتولى الامر بعد المنصور ابنه محمد ولقب بالناصر وفي أيامه خرج الاذفونش وعثا في بلاد الاسلام فجمع الناصر جموعا لا قبل بها لاجل الجهاد قيل نحو ستمائة الف مقاتل والتقى بالافرنج فيهم ابن اذفونش وصاحب برشلونة فكانت الوقعة المسماة بالعقاب التي لم يقم بعدها للمسلمين في تلك البلاد البلاد قائمة نحمد وهلك فيها اكثر المجاهدين وبالغ بعض المؤرخين فقيل لم ينج منهم غير الالف وهو بعيد عن التصديق وكان وقوعها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ وقد روى ابن خلدون هذه الواقعة فلم يبالغ في مصيبتها ما بالغه غيره وزعم أن الافرنج بعد الكائنة أغاروا على بلاد المسلمين فلقيهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من اشبيلية فهزمهم وانتعش الاسلام

وتوفي الناصر وخلفه ابنه يوسف ولقب بالمستنصر وكان حديث السن فانصرف عن تدبير الامور الى العبث واللهو وفي أيامه تولى أبو محمد العادل عم المستنصر مرسية بدل غرناطة

وتوفي المستنصر فبويع عبد الواحد اخو المنصور ولم يكن يحسن التدبير فانتزى عليه العادل المذكور وبايعه اخوته الذين كانوا على مدن الاندلس وتم له الامر ولكن زحفت اليه الافرنج وأطلقوا الغارة

في البلاد فتصافّ معهم فانهزم وأصيب المسلمون فأجاز الى المغرب وخلّف على الاندلس أخاه أبا العلاء ادريس

ثم خنق العادل بمراكش وبويع يحيي ابن الناصر وهو صغير فادعى الخلافة السيد أبو العلاء المذكور وبويع بالاندلس ثم في المغرب لكن انتقض عليه المتوكل محمد بن يوسف الجذامي ودعا لبني العباس فمال اليه أهل الاندلس وأجاز أبو العلاء الى المغرب ينازع يحيي بن الناصر وتعاظمت الفتنة بينهما واستبد ابن هود بما وراء البحر ودخل الوهن دولة الموحدين

ومات أبو العلاء وكان يلقب بالمأمون سنة ٦٣٠ وتولى بعده ابنه الرشيد وفي مدته ظهر ابن الاحمر صاحب غرناطة وأرسل اليه بالبيعة وتوفي سنة ٦٤٠ وقام بالامر أخوه السعيد فقتله بنو عبد الواد بقرب تلمسان عام ٦٤٦

وفي أيام الرشيد والسعيد خرج بنو مرين من بني واسين من زناتة واعصوصب حولهم البربر واجتمع العرب على بيعة عمر بن ابراهيم ابن يوسف بن عبد المؤمن ولقبوه بالمرتضي ولم تمض مدة من خلافته حتى انتقض عليه ابن عمه السيد أبو العلى ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لخلاف تمكن بينهما . وصحبه ابن عمه السيد أبو موسى عمران ولحقا بيعقوب ابن عبد الحق المريني الثائر على دولتهم وما زال النزاع قائماً حتى غاب أبو العلى المذكور وكان يكنى بأبي دبوس على مراكش ووقع المرتضي في يده فعفا عنه أولا ثم قتله واستقل بالامر وتلقب بالواثق ونهض اليه يعقوب بن عبد الحق بني مرين وحزبهم فخرج أبو دبوس من مراكش لدفاعه فاصطلت الحرب في وادي أعفر وانهزم الموحدون وقتل أبو دبوس ودخل بنو مرين

مراكش وانقرض ملك بني عبد المؤمن وكان ملكا كبيراً وذلك عام ٦٦٨ والبقاء لله

أما يعقوب هذا فهو ابن عبد الحق بن محيو بن محمد بن حمامة بن محمد بن ورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين من بني واسين. كان جده محيو زعيما لبني مرين وحضر وقعة الارك مع الموحدين وأصابته فيها جراحة توفي منها فقام بالرئاسة بعده ابنه عبد الحق فوافق ظهوره دخول الضعف على دولة بنى عبد المؤمن فسمت نفسه الى انتزاع ملكهم وتأذن الله بنصره في جملة مواطن الى أن هلك في احدى وقائعه معهم وأمره لما يستقم وخلفه ابنه يحيى فملك فاس في خبر ليس هنا شرحه ومهد لأعقابه القواعد وخلفه أخوه يعقوب المذكور فدخل مراكش حضرة الموحدين واستأصلهم ومن هناك استقل بالامر بنو مرين

وأما الاندلس فعند ما التاث أمر الموحدين بالمغرب تمشت فيها رجالات العرب باخراج السادات الموحدين واستبد بالامور ابن هود وابن مردنيش وخرج على ابن هود رجل يقال له محمد بن يوسف من بني نصر يعرف بابن الاحمر فجاذبه الحبل وكانت لكل منهما دولة أورثها أعقابه ولكن آل الامر أخيراً الى انحصار تراث الاسلام بالاندلس في ذرية ابن الاحمر على ما سيأتي

الفصل الثالث

في دولة بنى الاحمر اصحاب غرناطة

قال ابن سعيد: الضابط فيما يقال في شأن أهل الاندلس في السلطان أنهم اذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الاجواد تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكا من غير تدبير في عاقبة الامر الى يوم يؤول بعد أن يكون الملك في مملكة قد تووربثت وتدوولت يكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للاجناد ومراعاه قدموه ملكا في حصن من الحصون ورفضوا عيالهم وأولادهم ان كان لهم ذلك بكرسي الملك ولم يزالوا في جهاد وتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطلبه، وأهل المشرق أصوب رأيا منهم في مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع. ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الاخيرة بالاندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له (أرجونة) ويعرف الرجل بابن الاحمر كان يكثر مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة الى أن طار اسمه في الاندلس وآل ذلك الى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ثم نص فملك قرطبة العظمى وملك اشبيلية وقتل ملكها الباجي وملك جيان أحصن بلد بالاندلس وأجله قدرا في الامتناع وملك غرناطة ومالقة وسموه بأمير المسلمين فهو الآن المشار اليه بالاندلس والمعتمد عليه انتهى

(أرجونة) حصن من حصون قرطبة كان فيه قوم يعرفون ببني نصر

ينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج رضى الله عنهم وكان عميدهم الآخر دولة بني عبد المؤمن محمد بن يوسف بن نصر ويكنى بأبي دبوس ويقال له الشيخ وغلب عليه لقب ابن الاحمر وكان له أخ اسمه اسماعيل وكانت لهم وجاهة وكلمه عالية في تلك الجهة فما زال يتقدم من حالة الى حالة حتى أحس من نفسه الكفاءة للاستقلال فثار على ابن هود سنة ٦٢٩ وأطاعته جيان وشريش واستفحل امره ثم اصهر الى الرؤساء بني اشقيلولة فتعزز بهم ، ثم لما خرج ابن هود من اشبيلية الى مرسية ثار بأشبيلية ابو مروان الباجي فداخله محمد بن الاحمر على ان يزوجه ابنته وأطاعه ودخل ابن الاحمر اشبيلية فلما تمكن فتك بابن الباجي واستولى مكانه غير ان اهل اشبيلية رجعوا الى طاعة ابن هود واخرجوه منها فتغلب على غرناطة اذ كان فيها ابن ابي خالد الذي ثار بدعوته وارسل اليه بيعته فقدم عليها أولا ابن اشقيلولة وجاء على اثره فنزلا بها وابتنى لنزوله حصن الحمراء التي لم يبن مثلها في البلاد وكان غلبه على غرناطة عام ٦٣٥ وغلب بعدها على مالقة وبايعه اهل لورقة وتناول المرية من يد ابن الرميمي عامل ابن هود واخذ يضم الاطراف ويكتب الكتائب ويحصن الثغور ويؤوي المشردين واتخذ لقب الغالب بالله وضرب على سكته وكتب على رايته (لا غالب الا الله) وصار ذلك علما لدولته فيما بعد

وفي ذلك الدهر وهو القرن السابع للهجرة كان الاسلام اخذ يتقلص ظله عن الاندلس واصبح المغرب بما ادرك اموره من الاختلال وما اصاب اهله من اليأس من نصرة اندلس خصوصاً بعد وقعة العقاب عاجزا عن امدادها بالبعوث الوفيرة التي كانت تجتمع تحت رايات المرابطين

والموحدين هاتيك الدول الكبار فتقدم الاسبانيول من كل جهة وملكوا القواعد مثل طليطلة وقرطبة وبلنسية واشبيلية وجيان وغيرها وصاروا يقتطعون كل يوم كورة ويحذفون من مملكة الاسلام حصنا الى ان ألجأوا المسلمين الى سيف البحر من رندة من الغرب الى الشرق نحو عشر مراحل فقط وتكلم الناس في ذهاب هذه البقية وقال شاعرهم :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس	فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه واري	سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه	كيف الحياة مع الحيات في سفط

والذي يلاحظه القاريء من كلام ابن خلدون الذي عاش قبل الخروج الاخير بنحو القرن وكان يشير الى مآله بمشاهدة مقدماته وابن الخطيب الذي من جملة وصيته لاولاده عدم الاكثار من تملك الارض واعتقاد العقار في بلد مثل الاندلس دار ظلمة ومنزل غربة — ان عقلاء المسلمين كانوا مستشعرين هذا الخطب من قبل وقوعه بأزمان لتكالب الاسبانيول على البلاد من كل جهة وظهور الفرقة بين أمراء الاسلام وانقطاع مدد المغرب شيئاً فشيئاً كما سيتضح من مجرى الحوادث

وكان بقية السيف من المسلمين الذين قد غلب على ديارهم العدو صائرين الى احدى ثلاث خصال: اما أن يلبثوا في ديارهم خانعين لسلطانه على شروط قررها مع بعضهم في البداية وقيل لهؤلاء «المدجنون» من التدجين أي التأليف والتأنيس — واما أن يجيزوا الى بر العدوة فينزلوا بفاس أو وهران أو تونس حيث شاءوا — واما أن ينحاشوا الى مملكة غرناطة لكونها أندلسية ومجاورة لمساقط رؤوسهم ومنابت أسلهم حيث

لم تزل آمالهم بالكرة منوطة ، وعزائمهم على ادراك الاوتار مشدودة ، وحب الوطن من الايمان . وقد كان في اعياش النوزعيين لى أعمال ابن الاحمر منعة لسلطانه وشد لازره بسطة الملك ، فأمكنته الكرة المنصورة على العدو والاثخان في بلاده كما يقول صاحب نفح الطيب من انه لما أخذت القواعد الاندلسية مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية نحاز أهل الاسلام الى مالقة وغرناطة والمرية ونحوها ، وملك هذا النزر ملوك بني الاحمر فلم يزالوا في تعب وممارسة مع العدو كما ذكره ابن عاصم قريباً وربما أثخنوا في العدو كما علم من أخبارهم وانتصروا بملوك فاس في بعض الاحايين وقال : لما قصد ملوك الافرنج السبعة في المائة الثامنة غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مرين يستنجدونه وعينوا للرسالة الشيخ أبا اسحق بن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي ، ثم بعد سفرهم نازل الافرنج غرناطة بخمسة وثلاثين الف فارس ومائة الف راجل ولم يوافقهم سلطان المغرب مضى الله ببركة المشايخ الثلاثة أن كسر الافرنج في الساعة التي كسر فيها حب اطرهم سلطان المغرب وكانت بذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي انتهى

وزعم بعض المؤرخين أن سبب فشل الريح بالاندلس تقاطع المسلمين من أهلها واقبالهم على لذات واهمالهم أمور الجهاد في كثير من الاماكن حتى يقال إن الافرنج لما قصدوا بلنسية سنة ٤٥٦ خرج للقائهم أهلها بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر لقومه :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطانة ما كانا

وقالوا انه لما تغلب العدو على طليطلة كان من جملة ما غنمه الفرنج من الجيش الذي حاربهم الف غفارة نفيسة خارجا عما سواها من الحلل. ولما ذكر ابن حيان تغلب العدو على بربشتر القريبة من سرقسطة بالثغر الاعلى سنة ٤٥٦ وما جرى فيها من فظائع القتل والسبي والاستباحة التي تقطر لها القلوب دما وتذوب العيون من مطالعتها في التواريخ قال قد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة، وقال من جملة تغفل أهل الاندلس ان العدو أطال عليهم يجوس خلال الديار ويكتسح البسائط ويقطع كل يوم طرفا ويبيد أمة والباقون منهم صموت عن ذكر اخوانهم، لهاة عن بثهم، ما يسمع بمسجد من مساجدهم مذكر لهم أو داع، فضلا عن نافر اليهم أو ماش. قال حتى كأنهم ليسوا منا أو كأن بثقهم ليس بمفض الينا انتهى

بلى والله لقد أفضى بثقهم الى الجميع وهذا قول ابن حيان في القرن الخامس وما مضى على ذلك قرن حتى أفضى البثق الى قرطبة وطنه ولله الامر أجمع وأخذ الاسبانيول تطيلة وأختها طرشونة سنة ٥٢٤ ومكنهم المسلمون انفسهم بسبب اختلاف ملوك الطوائف من بلنسية المرة الاولى سنة ٤٨٨ الى ان استردها يوسف بن تاشفين بعد سبع سنين من اخذها وقدم عليها يحيى بن غانية الملثم، وفي المائة السادسة صارت الى يد ابن مردنيش ابي عبد الله ملك شرق الاندلس فقدم عليها اخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش. ولما تكالب العدو على الاندلس في اواخر دولة بني عبد المؤمن كان المدافع عن بلنسية

الامير زيان بن ابي الحملات بن ابي الحجاج بن مردنيش فاضطر الى الاستغاثة بصاحب افريقية ابي زكريا بن ابي حفص من دولة الموحدين واوفد عليه بالرسالة ابا عبد الله بن الابّار القضاعي الحافظ الكاتب الشهير فقام بين يدي السلطان بتونس وانشده قصيدته السينية الفريدة ·

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... ان الطريق الى منجاتها دَرَسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة اجحاف نائبة ... تثني الامان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... الا عقائلها المحجوبة الانسا
وفي بلنسيه منها وقرطبة ... ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الاشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الايمان مبتئسا
وصيرتها العوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
يا للمساجد عادت للعدى بيعا ... وللنداء يُرى اثناءها جرسا
لهفي عليها الى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت درسا
وأربعا نمنمت أيدي الربيع بها ... ما شئت من حلل موشية وكسا
كانت حدائق للاحداق مونقة ... فصوح النضر من ادواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستوقف الركب او يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الضد واحربا ... عيث الدُّبا في مغانيها التي كبسا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الاسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها نضراً ... وأين غصن جنيناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حينا وما نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا
خلا له الجو وامتدت يداه الى ... ادراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
واحي ما طمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدي ماطمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقا ... وبت من نور ذاك الهدي مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصراً ... كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم ... والصبح ماحية أنواره الغلسا
وتقتضي الملك الجبار مهجته ... يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
هذه رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الامير الرضى والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها ... عبابه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية ... كما طلبت باقصى شده الفرسا
تؤم يحيي بن عبد الواحد بن أبي ... حفص مقبلة من تربه القدسا
ملك تقلدت الايام طاعته ... دينا ودنيا فغشاها الرضى لبسا
من كل غاد على يمناه مستلما ... وكل صاد الى نعماه ملتمسا
مؤيداً لو رمى نجما لاثبته ... ولو دعا أفقا لبي وما احتبسا
إمارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا
يبدي النهار لها من ضوئه شنبا ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
كأنه البدر والعلياء هالته ... تحف من حوله شهب القنا حرسا

تدبيره وسع الدنيا وما وسعت	وعرف معروفه واسي الورى وأسا
قامت على العدل والاحسان دولته	وانشرت من وجود الجود مارمسا
مبارك هديه باد سكينته	ماقام إلا الى حسنى وما جلسا
يرى العصاة وراش الطائعين فقل	في الليث مفترسا والغيث مرتجسا
الى الملائك ينمي والملوك معا	في نبعة أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره	وصان صيقله أن يقرب الدنسا
له الثرى والثريا خطتان فلا	أعز من خطتيه ماسما ورسا
حسب الذي باع في الاخطار يركبها	اليه محياه أن البيع ماوكسا
بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا	آماله ومن العذب المعين حسا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه	من البحار طريقا نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضاحا اسرته	من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبل الجود طفاحا غواربه	من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها	علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الانباء إنك من	يحيي بقتل ملوك الصفر اندلسا
فاوطيء الفيلق الجرار ارضهم	حتى يطأطيء رأسا كل من رأسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت	عيونهم ادمعا تبكي زكا وخسا
هم شيعة الامر وهي الدار قد نهكت	داء متى لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئا لك التمكين ساحتها	جرداً سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه	لعل يوم الاعادي قد أتى وعسى

فهزت هذه القصيدة من الامير أبي زكريا عطف ارتياح وبادر للاصراخ بالاسطول الثقيل، والسلاح والمال الجزيل، ولكن حالت أساطيل

العدو بينه وبين بلنسية فبقي في مرسي دانية واشتد الحصار على أهل بلنسية وهلك ناس جوعا فسلموا بلدتهم صلحا سنة ٦٣٦ وتسلمها جقوم ملك أراغون على شروط وضرب لاهل بلنسية أجلا مسمى لنقل امتعتهم ثم نكث العهد معهم وتجشموا من الذل والهون مالا يوصف، وعصفت ريح الاسبانيول في أقطار الاندلس، وتوافقوا على غزو بلاد المسلمين من كل جهة واسفوا الى القواعد فكان لهم سنة ٦٣٣ سبع محلات لحصار المسلمين محلتان على بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ومحلة على جيان ومحلة بلطرية ومحلة بمرسية ومحلة بلبلة وكان أهل جنوة محاصرين سبتة وألح صاحب قشتالة على مملكة ابن هود ففتح ثلاثين حصنا وزحف الى قرطبة فلم يجد أهلها في أنفسهم الكفاءة لمدافعته فسلموه مدينتهم وهي بالاندلس قبة الاسلام، والمناظرة في الشرق دار السلام، وخرجوا لايحملون شيئا سوى ثيابهم التي على أبدانهم وجلا معهم أهل القرى والحصون المجاورة بعد أن أفسد الطاغية زروعهم، ودمر بيوتهم، فعادت بقاع الخير قاعا صفصفا، وبدلت تلك البلاد بالعمارة الخراب، وبتغريد الهزار نعاب الغراب، ومن الغرائب أنها بعد ان كانت تكفي الملايين من سكانها، وتفيض عن ميرتهم خيراتها، صار الاسبانيول يجلبون اليها الميرة والذخيرة من نفس قشتالة والى الله تصاريف الامور

وأخذ العدو لوشة سنة ٦٢٢ ثم استردها المسلمون وبقيت في يدهم الى ان استردها الاسبانيول ثانية في الكائنة الاخيرة وكان العدو أيضا استولى على المرية سنة ٥٤٢ في وقعة شديدة استشهد فيها الامام الرشاطي المحدث الكبير وكان لخميا في النسب ثم استرجعها الموحدون وبقيت في يد المسلمين

الى أن ذهبت فيما ذهب لآخر المدة

وملك العدو ماردة وبطليوس نحو سنة ٦٢٦ وملك جزيرة ميورقة سنة ٢٧ وزحف إلى شاطبة سنة ٣٥ وحصل هنالك وقائع قتل فيها شيخ المحدثين أبو الربيع الكلاعي ثم في السنة التالية كان تسليم بلنسية وخرج ابن مردنيش عنها الى جزيرة شقر فتعقبه العدو اليها فاخرجه منها فلحق بدانية وأخذ هناك البيعة للحفصي صاحب افريقية ثم داخل أهل مرسية وقتل واليها أبا بكر بن خطاب وبعث ببيعتها إلى الحفصي أيضا ولم يزل في مرسية الى أن غلبه عليها ابن هود فخرج عنها إلى لمنت الحصون سنة ٣٨ وبقي فيها عاملا لابي زكريا الحفصي أمير افريقية حتى انتزعها منه ملك برشلونة فلحق بمولاه في تونس وانقرض أمره بشرق الاندلس والله وارث الارض ومن عليها

وفي هاتيك الايام كما لا يخفى كثرت القصائد في استنهاض الهمم واستجاشة الحفائظ لتلافي أمر الاسلام بالاندلس وسارت أوابد الشعر في العدوتين بالاستنفار إلى الجهاد والاجابة لداعي الله . تسنم الجنة

فمن ذلك قول أبي جعفر الوقشي البلنسي نزيل مالقة من قصيدة

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى … فابصر شمل الكاشحين طريدا

وهل بعد يقضى فى العدو بنصرة … تغادرهم للمرهفات حصيدا

ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب … يعيد عميد الخارجين عميدا

ويلقي على افرنجهم عبء كلكل … فيتركهم فوق الصعيد هجودا

يغادرهم قتلى وجرحى مبرحا … ركوعا على وجه الفلا وسجودا

ويفتك من أيدي الطغاة نواعما … تبدلن من نظم الحجول قيودا

وأقبلن في خشن المسوح ، طالما سحبن من الوشي الرقيق برودا
وغير منهن التراب ترائبا وخدد منهن الهجير خدودا
فحق لدمعي أن يفيض لأزرق تملكها دعج المدامع سودا (١)
ويالهف نفسي من معاصم طفلة تجاور بالقد الاليم نهودا (٢)
ويا أسفي مالان يزال مرددا على شمل أعياد أعيد بديدا
وآها بعد الصوت منتحبا على خلو ديار لو يكون مفيدا

***

ومن ذلك القصيدة الطويلة التى خوطب بها أبو زكريا بن أبي حفص صاحب تونس عند أخذ بلنسية ومطلعها

« نادتك اندلس فلب ندائها »

ومنها:

صرخت بدعوتك العلية فاحبها من عاطفاتك مايقي حوباءها
هي دارك القصوى أوت لايالة ضمنت لها مع نصرها ايواءها
وبها عبيدك لابقاء لهم سوى سبل الضراعة يسلكون سواءها
دفعوا لابكار الخطوب وعونها فهم الغداة يصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت سراءها وقضتهم ضراءها
تلك الجزيرة لابقاء لها اذا لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها واعقد بأرشية النجاة رشاءها

«١» قوله لازرق أى لعلج أزرق العينين وتكنى العرب به عن العدو
«٢» الطفلة بفتح الطاء الغادة الناعمة والقد بكسر القاف السير من الجلد يربط به الاسير

أشفى على طرف الحياة ذماؤها فاستبق للدين الحنيف ذماءها
حاشاك أن تفني حشاشتها وقد قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها ترجو بيحيى المرتجى احياءها
واستشرفت امصارها لامارة عقدت لنصر المستضام لواءها
ياحسرتي لعقائل معقولة سئم الهدى نحو الضلال هداءها
ايه بلنسية وفي ذكراك ما يمري الشؤون دماءها لا ماءها
كيف السبيل الى احتلال معاهد شب الاعاجم دونها هيجاءها
والى ربى وأباطح لم تعرني حال الربيع مصيفها وشتاءها
طاب العرس والمقيل خلالها وتطلعت غرر المنى اثناءها
بأبي مدارس كالطلول دوارسا نسخت نواقيس الصليب نداءها

ومنها:

مولاي هاك معادة أنباؤها لتنيل منك معادة ابناءها
جرد ظباك لمحو آثار العدى تقتل ضراغمها وتسب ظباءها
واستدع طائفة الامام لغزوها تسبق الي أمثالها استدعاءها
لاغرو أن يعزى الظهور لملة لم يبرحوا دون الورى ظهراءها
ان الاعاجم للاعارب نهبة مهما أمرت بغزوها احياءها
تالله لو دبت لها أدبها لعلوت عليها أرضها وسماءها
ولو استقلت عوفها لقتالها لاستقبلت بالمقربات عفاءها
أرسل جوارحها تجئك صيدها صيدا وناد لطحنها أرحاءها
هبُّوا لها يامعشر التوحيد قد آن لهبوب. احرزوا علياءها
هي نكتة المحيا فحيهلا بها تجدوا سناها في غد وسناءها

حاشاكم أن تضمروا إلغاءها — في أزمة أو تضمروا إقصاءها
خوضوا اليها بحرها يصبح لكم — رهوا وجوبوا نحوها بيداءها
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة — ساوت بها أحياؤها شهداءها
هذي رسائلها تناجي بالتي — وقفت عليها ريشها ونجاءها
وفدت على لدار العزيزة تجتني — آلاءها أو تجتلي آراءها
مستسقيات من غيوث غياثها — ما وقعه يتقدم استسقاءها
وبحسبها أن الامير المرتضى — مترقب بفتوحها آناءها
بشرى لاندلس تحب لقاءه — ويحب في ذات الاله لقاءها
صدق الرواة المخبرون بأنه — يشفي ضناها أو يعيد رُواءها
ان دوّخ العرب الصعاب مقادة — وأبى عليها أن تطيع إباءها
فكأن بفيلقه العرمرم فاتقا — هام الاعاجم ناسفا أرجاءها
لا يعدم الزمن انتصار مؤيد — تتسوغ الدنيا به سراءها
ملك أمد النيرين بنوره — وافاده لالاؤها لالاءها
خضعت جبابرة الملوك لعزه — ونضت بكف صغارها خيلاءها
أبقى أبو حفص أمارته له — فسما اليها حاملا أعباءها
قبضت يداه على البسيطة قبضة — قادت له في قِدّه أمراءها
فعلى المشارق والمغارب ميسم — لهداه شرف وسمه أسماءها
تطمو بتونسها بحار جيوشه — فيزور زاخر موجها زوراءها

ومنها:

تقع الجلائل وهو راس راسخ — فيها توقع للسعود جلاءها
كالطود في عصف الرياح وقصفها — لارهوها يخشى ولا هوجاءها

نونية أبي البقاء الرندي

﴿ في نكبة الاندلس ﴾

ومن مشهور ماقيل في ذلك نونية أبي البقاء الرندي من أشهر شعراء الاندلس وهي متداولة بين الناس تمدمن حفظ العوام فضلا عن الخواص وقد آثرناها هنا لكيلا يخلو منها ذيل جررناه على الاندلس

لكل شيء اذا ما تم نقصانُ	فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد (١)	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة (٢)	اذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ماشاده شداد في إرم (٣)	وأين ماساسه في الفرس ساسان
وأين ماحازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا فكأن القوم ماكانوا
وصار ماكان من ملك ومن ملك	كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله	وأمّ كسرى فما آواه ايوان

(١) وفي رواية * وهذه الدار لاتبقى محاسنها

«٢» وفي رواية * يمزق الدهر منا كل سابغة

«٣» وفي نسخة : من إرم

كأنما الصعب لم يسهل له سبب يوما ولا ملك(١) الدنيا سليمان
فجائع الدهر انواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث (٢) سلوان يسهلها وما لما حل بالاسلام سلوان

***

دهى الجزيرة أمر لاعزاء له هوى له أحد وانهد نهلان
أصابها العين في الاسلام فارتزأت حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد فما عسى البقاء اذا لم تبق اركان
تبكي الحنيفية البيضاء من اسف كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد اضحت كنائس ما فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان

***

يا غافلا وله في الدهر موعظة ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه أبعد حمص تغر المرء اوطان
تلك المصيبة انست ما تقدمها وما لها مع طول الدهر نسيان

***

«١» وفي نسخة « ولم يملك » « ٢ » وفي نسخة . وللمصائب

ياراكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر فى دعة لهم اوطانهم عزّ وسلطان

أعندكم نبأ من اهل اندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز انسان

ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم وأنتم يا عباد الله اخوان

الا نفوسٌ أبيّات لها همم اما على الخير انصار وأعوان

•

يا من لذلة قوم بعد عزهم

احال حالهم جور وطغيان

بالامس كانوا ملوكا فى منازلهم

واليوم هم فى بلاد الضد عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

لهالك الامر واستهوتك احزان

يارُبّ أمّ وطفل حيل بينهما

كما تفرّق ارواحٌ وابدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت

كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكيــة والقلب حــيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان فى القلب اسـلام وايمـان

*

وكان استخلاص الاسبانيول شرق الاندلس قاطبة شاطبة وغيرها واجلاؤهم من يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه هنالك في شهر رمضان سنة ٦٤٥ وتملك الاسبانيول مرسية صلحا عن يد ابن هود ، وأقام صاحب قشتالة يحاصر اشبيلية حولا كاملا وخمسة أشهر حتى ملكها صلحا سنة ٦٤٥ وتوفي بين يدي منازلتها الشيخ أبو علي الشلوبين امام النحاة فكانت المصيبة بها على المسلمين واحدة وعلى النحاة اثنتين وافرغ الاسبانيول في حصار اشبيليــة من الجهد مالا يوصف وواقتهم النجدات من اوربا الى أن افتتحوها وخرج أهلها الا القليل فأجاز بعضهم الى بر العدوة وانحاز الاكثرون الى غرناطة

وكان ملك البرتغال قد ضبط بعض الحصون اثناء منازلة اشبيلية فخف فرديناند صاحب قشتالة غائلته وأحد يسلم بعض جيرانه من قواد المسلمين مثل صاحب شريش وصاحب لبلة ، رضي منهم بالاتاوة وأخذ كثيراً من جهات الاسلام تحت حمايته حتى صفا له الوقت وطمأن باله من جهة قومه فأعمل في فتح المغرب وبينما هو يستعد لذلك اذ وافاه أجله فخلف (١) ابنه الاذفنش الملقب بالفونس العاشر المعروف بالعالم أو السابيو لاشتغاله بالتنجيم

---

(١) كذا ولعل الاصل فخلفه

ولما لم يبق للاسلام فى تلك المدة بالاندلس سوى غرناطة وجوارها وانحصروا فيها كثفت هناك جموعهم وعز حماهم وكان جلهم بل كلهم قوما موتورين تتأجج الاحقاد فى صدورهم ولا يريدون الا فرصة لاخذ الثأر فطالما أعظموا النكاية فى العدو وهم تحت رايات بني الاحمر وكانوا جميعا أهل فلاحة وتجارة وصناعة فعمرت بهم تلك الجهات عمرانا حافلا تحدثت به الركبان ، وكان محمد بن يوسف بن الاحمر الذي أسس الدولة النصرية على انقاض دول الطوائف وركبها من بقايا أملاك المسلمين بالاندلس رجلا داهية منجذا خبيراً بالسياسة صالحا للرئاسة ، وكان قرما ثبتا في الحروب كما يقول ابن خلدون «فضم شمل قومه واحسن ادارة أمورهم و سدد الاحكام فيهم ، واتخذ غرناطة حاضرة ملكه وحصنها ، ومن آياتها ابتني فيها حمراءها الشهيرة — التى لم يبق للعرب في تلك الديار ولا في غير تلك الديار — أثر أجل منها »

قال ضيا باشا فى تاريخه للاندلس تحت عنوان (معمورية غرناطة) ما معناه « ان محمد بن الاحمر الذى غرس دوحة تلك الامارة التزم لاجل تمكين سلطانه قاعدة : لاملك الا بالرجال ، ولا رجال الا بالمال ، ولا مال الا بالعمارة ، ولا عمارة الا بالعدل والسياسة ، فاخذ رعيته بحسن السياسة ، وأقامهم على العدل ، واحتفل بتشييد المصانع والمعاقل ، واشتغل بتوطين المسلمين المنهزمين من جور الاسبانيول ، حاملا اياهم على الفلاحة والتجارة والصناعة ، واحياء موات الارض واستثمارها ، وتربية الحيوانات وتكثيرها ، فلم تمض سنون قلائل الا وقد اشتبكت عمارة بلاده ، وقد التفت نحو علماء الطبيعة والكيمياء فاستخرج بمعونتهم المعادن واستفتح ارصاد الكنوز الطبيعية ، ولم يهمل أمر الصحة العمومية ، فبني جملة مستشفيات ومنازل

للعجزة وشاد كذلك كثيراً من المدارس لطلب العلم ، وبنى قصر الحمراء الشهير ، الذي أنسى ذكر الخورنق والسدير ، وهو من القصور المعدودة في الدنيا رونقاً ومتانة واتساعا وإحكام بناء . وكانت غرناطة في أيامه من أشهر مواقع المعمور عمارة وسعادة وسعة تجارة وبسطة في العلم والجسم ، وكانت منسوجاتها فائقة منسوجات غيرها من جميع الاقطار »

وقال هذا الاديب الراسخ والوزير الجليل في محل آخر من كتابه مامعناه : انه بحسن ادارة محمد الخامس (من سلالة محمد الشيخ) وجنوحه الى السلم أو بالصدمات الداخلية والخارجية التي توالت يومئذ على مملكة قشتالة واراغون قد مضت لذلك التاريخ عشرون سنة متتابعة على غرناطة كانت فيها أسعد الممالك حالا ، وأنعمها بالاء ، وهي غرر أيام ابن الاحمر وحجولها ، بل أيام الاندلس كلها منذ غابت شموس الناصر والحكم ، فكانت وقتئذ الزراعة في نماء ، والصناعة في ارتقاء ، ولاهل غرناطة علاقات تجارية مع ايطاليا وفرنسا ومصر وبر الشام ، وكان يتوارد اليها التجار والسياح من جميع الانحاء ويسكنونها بكمال الطمأنينة . وفي بعض التواريخ انه كان لاهل جنوة انبار عظيمة مخصوصة بهم في غرناطة ، وقد كانت المرية ميناء غرناطة محط رجال التجارة من جميع الآفاق وفيها من الحركة ماليس في ميناء غيرها ، لذلك كان أهالي تلك المملكة في ذلك الدور من سعة العيش وصفاء الوقت وتوفر أسباب الرفاهة وايلام الولائم بالمكان المحسود والحال المغبوطة ، وانتشرت بينهم الفضائل التي يقتضيها العلم والتهذيب من الحمية وحب الوطن والامانة والصدق والرأفة واكرام الغريب . وأخذ كرام الناس وابناء البيوتات يفدون الى غرناطة أفواجا حتى انه عند الاحتفال

بنقل كريمة صاحب فاس الى الامير يوسف ابن السلطان محمد الخامس وفد لاجل النزهة وبرسم حضور الزينة الشائقة عدد لا يحصى من الامراء والنبلاء والفرسان من اسبانيا وايطاليا وفرنسا، ويقول بعضهم ان غرناطة كانت وقتئذ وطنا مشتركا لجميع الاقوام »

ولنعد الى ذكر محمد بن الاحمر فنقول: لم يزل المدجنون ينكشفون عن شرق الاندلس وغربها الى مملكة غرناطة وهي تتعززبهم وبعد استيلاء الاسبانيول على شاطبة وتمهيدهم تلك البلاد شرعوا يهتضمون المسلمين الباقين فيها فشرع هؤلاء ـ من شدة الظلم والاخذ بالخنق واستضعاف أعدائهم لهم بعد أن كانوا هم الاعلون ـ يرفعون لواء الخروج فاشتعلت الفتنة وكثر سواد الثوار الى أن قتل بعض رؤسائهم فانطفأت النائرة في تلك البقعة ولكن قام بعدها مدجنو بلنسية، استولوا على جملة حصون وذلك في نواحي سنة ٦٥٢ وكان جقوم صاحب أراغون غائبا فبادر بالرجوع الى مقره وعقد ندوة حضرها أركان مملكته للمذاكرة في قضية حسم الفتنة وذهب في رأيه الخاص الى وجوب تحصين قلاع شاطبة وطرد المدجنين كافة من مملكته. استبدالهم، زراع النصارى بهم فوافق على ذلك القسوس والخالون من الاراضي ولكن أصحاب المزارع أبدوا له تعذر وجود مزارعين مسيحيين وانه على فرض وجودهم فلا يقومون مقام المسلمين فلم يصغ لكلامهم وأمر بطرد المدجنين كافة فخرجوا تاركين جميع أملاكهم وأشيائهم وقصدوا غرناطة ألوفا مؤلفة وكان مدجنو مرسية وجوارها قد خرجوا بمكانهم على صاحب قشتالة الفونس العاشر الملقب بالصابي واستولوا على عدة حصون وقدموا عليهم قائدا وطالت

مدة انتقاضهم الى أن أحال الفونس أمرهم الى حميه جقوم ملك أراغون

ثم تزايد الجور على مدجني بلنسية الباقين كانوا منهم ببلادها وسيموا من الخسف والاهانة ما يكل عنه الوصف وفقدوا الامان على أرواحهم وعوملوا بخلاف الشروط التي بينهم وبين المستولي فاستأنفوا الثورة ومدوا يدهم الى من جاورهم من المسلمين لاجل مظاهرتهم. اصطلموا الاسبانيول وتقدموا نحو بلنسية حتى كادوا يسترجعونها فوقع الرعب في قلب جقوم ومات على أثر ذلك وتولى بعده ولده بترو أو بطره فعقد مع الثوار هدنة وأمهلهم ريثما تفرقت جموعهم فنكث معهم وصمد اليهم على غرة فانحازوا الى (مونتزه) في عيالهم وكانوا زهاء ثلاثين ألفا فأقام يحاصرهم طويلا وأخذ منهم بالمخنق حتى استأمنوا فدخل الاسبانيول الحصن وانتهبوا المال والمتاع وأخذوا المسلمين أسارى وفرقوهم في داخل البلاد بعيداً عن الثغور

وكان تخاذل المسلمين وتودد أعقاب ابن هود وابن مردنيش للملوك النصارى قد دعا محمد بن الاحمر الى مهادنتهم ونزل لهم عن بلاد (الغرنتيرة) وكانت هذه المدة بحسب قول ابن خلدون فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحروب ووضيعة ومداراة في السلم والتزم ابن الاحمر بما ضايقه من تكالب العدو على بلاد المسلمين ومظاهرة بعض أمرائهم له على الاستيلاء أن يلجأ بالمسلمين الى جوار غرناطة وسيف البحر معتصمين بالجبال وراكنين الى أوعارها وفي أثناء هذا كله لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر ووفود الاندلس تتوالى من الى حضرة بني مرين أصحاب المغرب تستنصرهم على العدو وتستجيرهم

في استباحة الحرم والولدان ، وبنو مرين وان كانوا يوءثرون الجهاد ، ويسابقون في مضمار الجد مسابقة الجياد ، فقد كا نلهم من مناصبة دولة الموحدين وشغلهم بتدويخ المغرب كله وتمهيد قاعدة ملكهم ما يعترض دون اجابة داعي الجهاد. ولكنه لما انقضت الوحشة بين أبناء ادريس بن عبد الحق وبين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني انتدب السلطان الكثير منهم لنجدة الاندلس ، ولم تزل هذه البلاد منذ اوائل الفتح ثغر الاسلام ، وموطن الجهاد، ومدرج الشهادة، وغاية من قصد من الآخرة السعادة، فخرجوا في نحو من ثلاثة آلاف مرابط عليهم عامر بن ادريس وتقبلهم بن الاحمر ودفع بهم في صدر عدوه وتوفي الشيخ ابن الاحمر لسنة ٦٧١ وقد عهد الى ولده والقائم بالامر بعده محمد الشهير بالفقيه لانتحاله العلم في أيام أبيه أن يجمل معوله على بني مرين في الاستصراخ اذا اشتد به الامر ويدرأ بهم ، وكان محمد الثاني بعد جلوسه بقليل وهو على مهادنة صاحب قشتالة سار الى اشبيلية لزيارته وتأكيد سلمه فلقي من الاعزاز والاذاذ ما لم يسبق له مثيل ، غير أن زوجة الملك خاطبته مرة أثناء اقامته بما هم في شأن بني أشقيلولة القائمين كانوا على أبيه وعليه من بعده فاستوحش محمد من هذه التوصية واستنشأ من ورائها رائحة المفسدة والميل الى القاء الفتنة ، والفرقة في مملكة الاسلام الباقية ، فعند رجوعه تأمل فيما يعمل لاجل التخلص من فتنة بني أشقيلولة ومما كان عليه من الخضوع المعنوي لصاحب قشتالة فلم يجد بدا من انفاذ وصية أبيه ومد اليد الى بني مرين خاطباً نصرهم ومستجيشاً بهم في الدفاع عن الملة

وكان بنو اشقيلولة كما لا يخفى أنصار ابن الاحمر على أمره وأبوهم

أبو الحسن هو الذي تولى كبر الثورة على ابن هود وداخل أهل اشبيلية في الفتك بابن الباجي حتى استوسق الملك لابن الاحمر، وكان هذا من قبيل المكافأة قد أصهر اليهم وأشركهم في أمره ووسمهم من مياسم التعظيم وأشعرهم من شعار التجلة بما لم يختص به أحداً من سواهم، وولى أبا محمد على مالقة وأبا اسحق ابراهيم صهره على وادي آش، وكانت فى يدهم قارش فيقال أن قد أبطرتهم النعمة فسموا الى مشاركة السلطان في ملك غرناطة واستأثر الرئيس أبو محمد بمالقة وقيل انهم اتفقوا مع الطاغية وأباحوه حمى الاسلام. وضيا باشا ينقل أنهم جاءوا بعساكره يكتسحون البسائط ويعيثون في البلاد وكانوا سببا لخروج كثير من المدن والحصون مثل شريش وابريجة وسجونة من يد المسلمين

فأوفد ابن الاحمر مشيخة بلاده على السلطان يعقوب بن عبدالحق المريني فلقوه منصرفا من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالبلاد المغربية فنبهوا عزائمهم واستنفروا جمته وكان من نفسه الى ذلك ارتياح فجهز خمسة آلاف عقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية واستدعى الاسطول فأجازوا نازلين بطريف وبعد أن أراحوا ثلاثا دخلوا الحرب فاكتسحوا بسائطها وأثخنوا فيها بالقتل والاسر والتخريب، ونزلوا بساحة شريش فخامت حاميتها عن اللقاء، وانقلبوا الى الجزيرة الخضراء، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم. ولما بلغ الخبر أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق أجاز بنفسه على أثر ولده وحيث كان يخشى عادية (يغمراسن) بن زيان أمير تلمسان بعث اليه في السلم تفرغا للجهاد وتوفراً على عدو الملة، فأوفد عليه (يغمراسن) شيخة بني عبد الواد بالاجابة وأسنى الهدية وطابت بذلك نفس يعقوب فاستنفر قبائل

المغرب من العرب والموحدين ومصمودة وصنهاجة ومكناسة وانضم اليه جمع من المطوعة والمرتزقة وأجاز بهم لصفر من سنة ٦٧٤ وكان نزل له ابن الاحمر عن رندة وطريف فاحتل ساحة طريف وملات كتائبه الجزيرة الخضراء وأقبل عليه الفقيه أبو محمد بن الاحمر والرئيس أبو محمد ابن اشقيلولة صاحب مالقة والغربية وزال مابينهما من النفرة وصارا مع أمير المسلمين يداً واحدة على الاذفنش. ثم عقد أبو يوسف يعقوب لولده أبي يعقوب على خمسة آلاف وسرحهم في بلاد العدو فجاسوا خلال دياره ونسفوا البناء وحطموا الزرع وانتهبوا المال والمتاع وبالغوا في الاثخان والسبي، واقتحم السلطان حصون المدور وابدة وتالسة وبلمة وغادرها قاعا صفصفاً وعاد بالغنائم والسبي فنزل باستجة، وكان الاسبانيول قد أعدوا عدتهم وأكملوا احتشادهم، فزحف الدون (نونو) أو (ذننه) بحسب املاء العرب وكان محافظا لاشبيلية ومقدماً عندهم فاصطدم الفريقان، واحتدم بينهما الضراب والطعان، وكانت وقعة من أعظم مايرويه تاريخ اسبانية، فأنزل الله سكينته على المسلمين وانهزمت جموع (ذننه) وقتل هو في المصاف وتأثر المسلمون قومه بالقتل والاسر فبلغ عدد قتلاهم بحسب رواية ابن خلدون ستة آلاف وخذل العدو ووهنت شوكته وبعث أمير المسلمين برأس ذننه الى ابن الاحمر فقيل انه رده الى أهله سراً مداراة لهم، وقيل انحرافا عن يعقوب لامور وجدها في نفسه، وظهرت شواهدها فيما بعد.

وقد أصاب المسلمون في هذه الغزاة من الغنائم مالا يحصيه الا الله وبيعت الشاة بدرهم واحد وأخذ سبعة آلاف وثمانمائة أسير ولم يكمل هذه الغزوة حتى رجع الى بلاد العدو فاكتسح نواحي اشبيلية وأوغل في جهاتها، ونزل

بأرض شريش فجاس خلالها، واستقصى بالدمار أعمالها، وقفل الى الجزيرة الخضراء لشهرين من غزاته وعول على اختطاط مدينة بفرضة المجاز من المدينة لنزل أجناده منتبذاً عن الرعية لما يلحقهم عادة من ضرر الجند فاتى المدينة المعروفة بالبنية، وأجاز البحر الى المغرب بعد غيبة ستة أشهر في الجهاد عزَّ بها الاسلام، وأدال له بعد طموس الاعلام، حتى لقد قال بعضهم: ما نصر المسلمون من العقاب حتي دخل يعقوب المريني

وأما ابن الاحمر فساق عساكره الى جهة جيان واثخن فيها فجمع له الدون (صانشو) بن (جقوم) ملك أراغون وكان مطرانا على طليطلة وبادر الى لقائه فانكشف الاسبانيول واسر الدون صانشو — أو شانجه على رأى العرب — وحصل بسببه خلاف إذ مال بعضهم الى ارساله الى السلطان يعقوب بن عبد الحق والآخرون الى ابقائه عند ابن الاحمر فوثب عليهِ أحد الجند فاحتز رأسه وحسم الخلاف. وثاني يوم هزيمة الدون شانجه واسره وصل الدون (لوب) بالمدد الوافر وتواقف مع المسلمين وقد امتلات أيديهم بالغنائم فتأمل أن يشتغلوا بها عن القتال واصلاهم ناراً حامية من مطلع الشمس الى أن توارت بالحجاب فلم يفزهم بطائل، فراسلهم في رأس شانجه والخاتم الذي بيده ووقع الفداء بهما على جملة من اسرى المسلمين ونقل الرأس مع الجثة ودفن في كنيسة طليطلة

وكان لما اعتزم أمير المسلمين يعقوب على الاجازة الى المغرب خاطبه ابن الاحمر بقصيدة استغاثة من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط قال فيها:

هل من معين في الهوى أو منجد ... من متهم في الارض أو من منجد

هذا الهوى داع فهل من مسعف ... باجابة وانابة او مسعد

هذي سبيل الرشد قد وضحت فهل ... بالعدوتين من امرىء مسترشد
يرجو النجاة بجنة الفردوس أو ... يخشى المصير الى الجحيم الموقد
يا آمل النصر العزيز على العدى ... أجب الهدى تسعد به وتؤيد
يامن يقول غداً أتوب ولا غدٌ ... ألديك علم أن تعيش الى غد
لاتغترر بنسيئة الاجل الذي ... ان لم يحن لك نقده فكأن قد
أو ماعلمت بأنه لابد من ... زاد لكل مسافر فتزوّد
هذا الجهاد رئيس أعمال التقى ... خذ منه زادك لارتحالك تسعد
هذا الرباط بارض أندلس فرُح ... منه لما يُرضي الملك واغتدِ
سوّدت وجهك بالمعاصي فالتمس ... وجهاً للقيا الله غير مسود
وامحُ الخطايا بالدموع فربما ... محت الدموع خطيئة المتعمد
من ذا يتوب لربه من ذنبه ... أو يقتدي بنبيه أو يهتدي
من ذا يطهر نفسه بعزيمة ... مشحوذة في نصر دين محمد

ومنها :

كم جامع فيها اعيد كنيسة ... فاهلك عليه اسى ولا تتجلد
أسفا عليها اقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسجد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء فما فدي
كم من عقيلة معشر معقولة ... فيهم تودُّ لو آنها في ملحد
كم من وليد بينهم قد ود من ... ولداه ودًّا أنه لم يولد
كم من تقي بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى ... مابين حدي ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... وبكى لهم من قلبه كالجلمد

أفلا تذوب قلوبكم اخواننا ... مما دهانا من ردى أو من ردي

أفلا تراعون الازمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد

أكذا يعيث الروم في اخوانكم ... وسيوفكم للثأر لم تتقلد

اين العزائم مالها لا تقتضي ... هل يقطع الهنديُّ غير مجرد

أبني مرين انتم جيراننا ... وأحق من في صرخة بهم ابتدي

فالجار كان به يوصي المصطفى ... جبريل حقا في الصحيح المسند

أبني مرين والقبائل كلها ... في المغرب الادنى لنا والابعد

كتب الجهاد عليكم فتبادروا ... منه الى الفرض الاحق الاوكد

وارضوا باحدى الحسنيين وأقرضوا ... حسناً تفوزوا بالحسان الخرد

هذي الجنان تفتحت أبوابها ... والحور قاعدة لكم بالمرصد

لله في نصر الخليفة موعد ... صدق فثوروا لانتجاز الموعد

هذي الثغور بكم اليكم تشتكي ... شكوى العديم الى الغني الاوجد

ما بال شمل المسلمين مبدد ... فيها وشمل الضد غير مبدد

أنتم جيوش الله ملء فضائه ... تأسون للدين الغريب المفرد

ما ذا اعتذاركم غداً لنبيكم ... وطريق هذا العذر غير ممهد

إن قال لم فرطتم في أمتي ... وتركتموهم للعدو المعتدي

تالله لو أن العقوبة لم تخف ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اخواننا صلوا عليه وسلموا ... وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد

واسعوا لنصرة دينه يسقيكم ... من حوضه في الحشر أعذب مورد

فأجابه السلطان يعقوب بن عبد الحق بقصيدة من نظم عبد العزيز شاعر الحضرة «لبيك لا تخش اعتداء المعتدي» الخ وأجاب عنها أيضا

مالك بن المرحل بقوله «وشهد الاله وأنت يا أرض اشهدي» الخ فأجابهما أبو عمرو بن المرابط بقوله «قل للبغاة وللعداة الحسد»

وبعد الجهاد الاول بنحو سنتين ثقف فيها امير المسلمين أطراف المغرب اعتزم الجهاد ثانية فأجاز الى طريف لسرار المحرم ثم نهض الى الجزيرة الخضراء فرندة حيث وافاه بنو أشقيلولة ونهضوا جميعاً الى اشبيلية وكان بها ابن الاذفنش الملقب بالصابي فخام عن اللقاء واعتصم بساحة البلد فاكتسح السلطان جوارها ودك حصونها وسبي أهلها ودخل حصن جليانة وقطيانة وحصن القليعة عنوة وعاد بالغنائم والاثقال الى الجزيرة ثم نهض ثانية فنزل بساحة شريش وأذاقها نكال الحرب والحرب وبعث ولده أبا يعقوب في جيش الى اشبيلية وحصون الواد فبالغ في الاثخان واجتاح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطير ثم اعتزم الغزو الى قرطبة فاستفز به ابن الاحمر فأجابه وتوافيا على الطريق ودخلا حصن بني بشير عنوة ودمراه وأثخنا في أهله وتقدما بالاكتساح والتدمير والاسر والقتل الى أن نزلا بساحة قرطبة قبة الاسلام في الماضي وشددا عليها الحصار وبعثا السرايا في الجوار فعاثت ودمرت ودخلت الحصون واقتحمت القلاع واشتد الامر بالطاغية فخطب السلم من أمير المسلمين فأحاله على ابن الاحمر تكرمة لمشهده فأجابه محمد الفقيه بعد استئذان أمير المسلمين إراحة لاجناد الاندلس والمرابطين فيها وانعقد الصلح وقفلوا فعرج أبو يوسف يعقوب على غرناطة نزيلا على ابن الاحمر وترك للاندلسيين الغنائم وقفل الى الجزيرة وفي تلك الاثناء توفي الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة صاحب مالقة فنزل ابنه محمد عن البلد للسلطان يعقوب

فعقد عليها الابنه أبي زيان منديل فسار اليه في بعث وكان الفقيه ابن الاحمر
لما بلغه وفاة صهره طمع في الاستيلاء على مالقة وظن ابن أخته مشايعا
له فأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني فوجد الامير أبا زيان قد احتل
البلد فقفل خائبا ثم قدم اليها السلطان نفسه من الجزيرة فبرز اليها أهلها
في احتفال شهير وعقد عليه لعمر بن يحي بن محلى من أركان دولة بني
مرين وقفل الى الجزيرة ومنها الى المغرب سنة ٩٧ وقد أعاد بهجة الايام
الاولى في الجهاد وحسن البلاء، وحاز الاسلام لعهده الغاية من العلاء

ولما بلغ السلطان يعقوب ما بلغه من الظهور ومالت اليه القلوب
واشرأبت الى ولايته الاعناق واكتسب له محمود مقامه بالاندلس
محاب الامة تذكر ابن الاحمر وكان فقيها مطالعا قصة المعتمد بن عباد مع
يوسف بن تاشفين فخاف الغيلة وبرم العاقبة فعدل على إيصال يده بيد
الطاغية خشية على سلطانه من أبي يوسف فنهض الاذفنش لاخذ الثأر
وأغزى أساطيله سواحل بني مرين بالجزيرة الخضراء وانقطع مدد المسلمين
من وراء البحر وانتبذ عمر بن يحي بن محلي عن قومه بمكانة مالقة وذلك
أنه كان بين أخيه طلحة وبين السلطان نفور بعث طلحة على ممالاة ابن
الاحمر وبمداخلته نزل له عمر عن مالقة وجهز قصده واقطعه شلوبانية
والمنكب فانتقل اليها ممالئا لابن الاحمر ومن ثمة للاذفنش ولخوفهم من
إجازة السلطان راسلوا يغمراسن بن زيان أمير تلمسان في الانتقاض عليه
وتثبيط حركته فأجابهم الى ذلك وتهادوا وتحابوا وتخاذل المسلمون واشتد
بأهل الجزيرة المخنق وبلغ الخبر السلطان بمراكش وهو يطفيء فتنة بني
جشم من العرب فلما تمكن من حسمها نهض قاصدا طنجة بقصد الاجازة

فبلغه استئناف جشم الثورة فكر اليهم وتأثرهم في الفلوات وترك ابنه
أبا زيان لتدويخ السوس الاقصى وعقد لولده ولي عهده الامير أبي يعقوب
على الاساطيل التي جمعها من طنجة وسبتة وسلا حتى بلغت اربعمائة سفينة
وأغزاها الجزيرة وكان أهلها قد بلغوا من الضيق أن قتلوا صغارهم خوفا
عليهم من السبي والنشوء على غير الاسلام فأثر ذلك في قلب ابن الاحمر
وندم على ما فرط منه من ممالاة العدو وجهز أساطيله من مالقة والمرية
بداراً لنصرة اخوانه في الدين وغلبت عليه حفيظة الملة واجتمعت أساطيل
المسلمين بمرفاء جبل طارق وتبارزوا مع العدو وصدقوه العزمة فكشفوه
وذعر الاسبانيول وغشيهم من اليم ما غشيهم وملك المسلمون مرفأ
الجزيرة وهزموهم من كل ناحية لكن الامير أبا يعقوب تلكأ عن الغزو
خوفا من ابن الاحمر وحدثته نفسه أن يصالح لاذفنش ويزحفا معا الى
غرناطة انتقاما من صاحبها فأجابه هذا الى ذلك توسلا الى موادعته ولما
كان في نفسه على ابن الاحمر من مدده أهل الجزيرة فبعث أساقفته الى
أبي يعقوب فأجازهم الى أبيه فانكر ذلك السلطان وغضب من فعلة ابنه
ولم يشأ أن يواطيء على الاسلام أحداً وأجاز أبو يعقوب الى المغرب بوفد
أهل الجزيرة وولى ابنه الآخر أبا زيان عليها فاحكم الصلح مع صاحب
قشتالة وتفرغ لمنازلة ابن الاحمر في غرناطة مع بني اشقيلولة وابن الدليل
ثم رجع ابن الاحمر الى سلم بني مرين وخطبها من أبي زيان واجتمعا ثم في
سنة ٧٨ أطل السلطان يعقوب على الاندلس لما اختل من أحوالها وكان
ابن اشقيلولة قد نازل غرناطة سنة ٧٩ وظاهره الاذفنش فلم يفوزوا
بطائل وقتل جماعة من الاسبانيول ولما أيقن ابن مرين بما وقع بين يغمراسن

وملوك اسبانية المسلمين والنصارى من الاتصال والتعاهد تعويقاً لحركاته عمد الى غزو يغمراسن وجرت بينهما حرب دارت فيها الدائرة على يغمراسن وقفل يعقوب الى مراكش . وأثناء مقامه بها وافاه صريخ الاذفنش على ولده سانشو أو شانجه وذلك أنه لما تم ماتم من العلو والظهور لكلمة الاسلام على يد أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق قام أمراء اسبانية وأركان مملكة قشتالة وخصوصاً رجال الدين ناقمين على الاذفنش عدم الكفاءة وسوء التدبير ونحس الطالع على قومهم فكادوا له وأخرجوه عن ملكه ونادوا باسم شانجه وذلك سنة ٨١ وخرج الوالد طريداً مخذولا قد غدر به أهله وخلانه ، وخانه زوجته وأولاده ، فأخذ يستغيث ملوك النصرانية من أراغون والبورتغال وفرنسا فلم يجب أحد صريخه فرفع أمره الى البابا فلم ينجده بغير النصيحة والتوصية بالصبر والتحمل فلما يئس ممن شبكته وإياهم أواصر الرحم والديانه أو الجوار حول نظره جهة المغرب فاستجار بسلطانه يعقوب بن عبد الحق بن مرين فأجاره في الحال ذهاباً مع هوى الشيمة الابية ومقتضى الفتوة ووافاه الى مراكش أساقفة الاذفنش فصرفهم واعداً بالاغذاذ وسار الى قصر المجاز وركب منها الى الجزيرة الخضراء وقد وافته الجنود وسار الى صخرة عباد حيث وافاه ملك قشتالة فأكرم نزله (١) وأمده لنفقاته بمائة ألف استرهن عليها التاج الملكي وبقي عند ملوك بني مرين فخراً للاعقاب وزحف السلطان

---

(١) قيل انه بعد أن سلم عليه الدون الفونس طلب يعقوب بلسان زناتة الماء ليغسل يده من قبلة ملك قشتالة وقيل من مصافحته فانظر الى ما كان من عز الاسلام بازاء الافرنج

الى جهة قرطبه وبها شانجه فاكتسح نواحيها واستنمت عليه فانتقل الى طليطلة فخرب جهاتها وعاد الى الجزيرة وقد ثقلت أوقار مطاياه الغنائم
ورأى ابن الاحمر ذلك فبدا له أن يوالي شانجه الخارج على أبيه وتعاهدا فلم يغنهما ذلك . ولما رجع السلطان من غزاته غزا مالقة من أملاك ابن الاحمر فلم يجد هذا بدا من طلب السلم والتجأ في ذلك الى ابنه فأسعفه وأجاز الى أبيه رغبة في الثواب وجمع كلمة المسلمين فأسعفه فيما رغب فيه اليه وأقلع عن مالقة وتأكدت السلم مع ابن الاحمر وانبسط رجاء المسلمين وأعاد السلطان الغزو فى دار الحرب واستأنف الاثخان وخرج الى نواحي طليطلة في غرة ربيع الثاني سنة ٨٢ فلم يصادف بناء الا هدمه ولا زرعاً الا حطمه ولا سرحا إلا اقتلعه ولا جمعا إلا صدعه وعاق جيشه عن زيادة الايغال كثرة الغنائم فرجع وقسم السلب بين أجناده ونقل من الخمس وأجاز الى المغرب وبلغه وفاة أذفنش ملك قشتالة واجتماع النصرانية على ولده شانجه الخارج كان عليه فتحرك للجهاد وأرسل ولده أبا يعقوب في أثر العرب الخارجين فتبع أثرهم الى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس ونهض السلطان مستنفرا للجهاد فأجاز بجنوده الى الجزيرة ومنها دخل دار الحرب فخرج وأثخن ونزل على شريش فصابقها، وأخذ بمخنقها، وأغزى ابنه الامير أبا يعقوب اشبيلية فنسف ديارها، وعاث في نواحيها، ومر فى منصرفه بقرمونة فشدد عليها وطأته، وأعظم فيها نكايته وسرح الوزير محمد بن عطوا ومحمد بن عبلة جواسيس في أرض العدو اليه فعادا بنبإ ضعف الحامية فأغزى حافده عمر بن عبد الواحد جهة وادلك وحصن اركش فأبادوا عمرانها، وغادروها كجوف العير، وسرح ابنه أبا

معروف لغزو اشبيلية ثانية فأتم ما كان باقيا دون خراب وقصد حصنا بقرب معسكره فسرح الجنود والناشبة بالآلات فاقتحموه وسبوا أهله وقتلوا حاميته وركب الى حصن آخر فأصابه ما أصاب الاول ووافاه ولي عهده أبو يعقوب بمرابطة المغرب ومطوعته ومرتزقته في واحد وعشرين ألفا كلهم قد باعوا أنفسهم من الآخرة فعقداله أبوه على جيش كثيف وأغزاه نواحي اشبيلية فاقتحموا الحصون ودكوا القلاع وسبوا الذراري ودمروا قرى الشرف والغابة الكثيرة العمران وعادوا بالغنائم فأغزاه ثانية قرمونة والوادي الكبير فبرز حامية قرمونة للدفاع فانكشفوا وأحجرهم في الحصن وكر على اشبيلية ثانية واقتحم منها برجا كان هناك عينا للعدو فأحرقه وقفل . ثم أغزاه والده جزيرة كيوثر فاقتحمها وأباد أهلها بالسيف وأغزى طلحة بن محلي اشبيلية رابعة فأثخن فيها حتى صفرت تلك البقاع من العمران ، وأصبحت بسائط افرنتيره واشبيلية ولبلة وقرمونة واستجه منعقا للبوم بعد أن كانت ملاى بالعمارة والنضارة ، وهو أثناء هذه الغارات كلها غادي شريش ويراوحها قتالا ونكالا ، ويبث السرايا في أرض العدو ليلا ونهاراً ، حتى لم يخل يوم منه من غزوة أو غارة

وقد أصابت جموع الاسلام في هذا الرباط الطويل العريض من الغنائم وأحرزت من المال الصامت والناطق ما لا يحصيه إلا خالقه ولم يرتد أمير المسلمين من الغزو إلا بقدوم فصل الشتاء وبلغه أن العدو اوعز الى اساطيله بالاعتراض في الزقاق وأوعز السلطان الى اساطيله بالاجتماع من ثغور العدوتين فأحجمت أساطيل الافرنج ورأى ابن

اذفنش شانجه أو صانشو ما نزل ببلاده من بأس المسلمين وضرع اليه كبار دولته في خطبة السلم من يعقوب بن عبد الحق لشدة ما بلغ بهم البلاء ونالهم من النكال ورأوا من شمول الخراب أوطانهم فعول على مخاطبة أمير المسلمين في السلم ضارعا صاغراً وأوفد اليه الملأ من أساقفته وأعيان مملكته فردهم يعقوب اعتزازاً عليهم فردهم شانجه وكرروا الاستعطاف فأجابهم الى السلم بشرط أن يقبلوا ما شاء من عز قومه وأن يسالموا جميع المسلمين من قومه وغيرهم وأن يرفعوا الضريبة عن تجار المسلمين في دار الحرب ويجتنبوا الفتنة بين امراء الاسلام الى غير ذلك فأجابوا الى كل مااشترط ووفدشانجه على السلطان بمكانه من شريش فالتقاه براً وترحيبا واحتفل للقائه اظهاراً لعز الملة وقدم له ملك الاسبانيول هدية سنية وخضع له . انقلب قرير العين بمسالمته وسأله يعقوب أن يبعث اليه بكتب العلم التي حازها النصارى من مدن الاسلام فارسل اليه منها ثلاثة عشر حملا فوقفها في المدرسة التي أسسها بفاس

وقفل السلطان من هذا الجهاد بعد أن وفر للاسلام من العز ما لم يعهده منذ أيام ابن تاشفين وازدحمت في حضرته الشعراء للتهنئة واعتل بعد ذلك وتوفي بالجزيرة قبل وصول ولي عهده أبي يعقوب فأخذ البيعة على الناس وزراء أبيه وأجاز اليهم من المغرب فجددوا البيعة غرة صفر سنة ٦٨٥ ففرق العطاء واجزل ومحا بعض الرسوم ورفع المكوس وقبض أيدى العمال عن الظلم واصلح السابلة وبعث الى ابن الاحمر بالحضور فوافاه فاحتفى به ونزل له عن جميع الاندلس إلا الجزيرة وطريف واتفقا على اخراج أبي الحسن بن اشقيلولة من وادي آش ففصل الى المغرب

وأقطعه ابن مرين فيه وانفرد ابن الاحمر برئاسة الاندلس

وسنة تسعين بلغ أبا يعقوب انتقاض صاحب قشتالة وتعطيله ثغور المسلمين فسرح قائد المسالح علي بن يوسف بن يرناسن فغزا شريش وأثخن في أرض العدو وأجاز السلطان بنفسه فالتقته أساطيل الاسبانيول في الزقاق حجراً دون النزول فانكشفت سفن المسلمين فكر السلطان فاحجمت أساطيل الاسبانيول وأنزل عساكره بطريف وشرع منها بالغزو فأذاق شريش واشبيلية وبال الحرب ولم يرجع عنها إلا عند قدوم الشتاء وقفل الى المغرب سنة ٦٩١ وقد تم له من الظهور ماتم لابيه وعاد الوسواس الى مخيلة ابن الاحمر وتذكر مرة ثانية قصة المعتمد بن عباد ووصل حبله بحبل القشتالي واجمعا على افتتاح طريف ام الثغور وذات المسالح فنازلها الاسبانيول واعترضت أساطيلهم ببحر الزقاق دون مدد المغرب وارسل ابن الاحمر النجدات الى حليفه وتمادى الحصار بأهل طريف أربعة أشهر والمدد منقطع عنهم فسلموا بلدتهم للاسبانيول وطالبهم ابن الاحمر بالخروج عنها له فأبوا ونكثوا فندم على اتصاله بهم وراسل ابن مرين تائبا مستعطفا داعيا الى اجتماع الكلمة وأوفد بذلك ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني فاحكموا الصلح وعقد ابن مرين على مسالحه بالاندلس لابنه ولي العهد الامير أبي عامر ولما رجعت رسل ابن الاحمر بقبول الصلح أجاز بنفسه نزيلا على ابن مرين معتذراً فاعرض عن عذله واكرم وفادته وقدم له ابن الاحمر المصحف الكبير أحد مصاحف عثمان (رضي الله عنه) الاربعة المبعوث بها الى الآفاق اتصل الى صاحب غرناطة من قرطبة حيث كان في خزانة بني

امية ونزل ابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا لابي يعقوب وأرسل هذا وزيره عمر بن السعود الجشمي لمنازلة طريف فامتنعت عليه وقفل ابن الاحمر الى حاضرة حمرائه عام ٦٩٢ وقد تأكدت المصافاة بينه وبين ابن مرين

وتوفي محمد الثاني المعروف بالفقيه ابن محمد الاول المعروف بالشيخ سنة ٧٠١ فقام بالامر بعده ابنه محمد الثالث ويقال له المخلوع والاعمش لضعف بصره وكان مع ضعف البصر ضعيف البصيرة فتغلب عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم ولم يصل الامر حتى بدله الانتقاض على ابن مرين لامور نقمها ولا جرم لها فوصل يده بيد ملك الاسبانيول فرديناند الرابع ابن شانجه وهو (هراندو) عند العرب وداخل ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل في الاستيلاء على سبتة وأجاز اليها على غفلة من أهلها واشتغال ابن مرين بحصار تلمسان الكبير بعد التضريب بين أعيان البلدة فاستولى عليها وأرسل عمالها بنو العزفي الى غرناطة وقامت بها دعوة ابن الاحمر على يد ابن عمه وأخذ أبو سعيد في التفريق بين بني مرين والدعوة لعثمان ابن أبي العلاء المريني رئيس الغزاة المجاهدين بالاندلس واستقدمه لاجل تمكين الفتنة بينه وبين أولاد عمه فخرج ودعا لنفسه وأجابه كثير من الناقين وبايعوه على الموت وفاز أبو سعيد بن الاحمر بامنيته وانتشبت الحرب بين رجال بني مرين

وتوفي السلطان أبو يعقوب في اثنائها فخلفه السلطان أبو ثابت بن أبي عامر ولي عهد أبي يعقوب لكون والده توفي قبل جده ولم يستقم له الامر الا بعد نزاع هاض جناح الدولة مع عمه أبي سالم فشرع في محاربة

عثمان بن أبي العلاء وحصره أخيراً بسبتة وتوفي قبل أن يتمكن منه وخلفه السلطان أبو الربيع فضايق عثمان الخارج عليهم حتى فرّ من سبتة الى الاندلس لاحقا بغرناطة وبعدما أرسل أبو الربيع تاشفين بن يعقوب الوطاسي بعسكر فاستولى على سبتة وقبض على قائد قصبتها وقائد البحر وقائد الحرب من قبل ابن الاحمر وعادت الى ملكه ثم توفي أبو الربيع لسنة عشر بعد السبعمائة وخلفه السلطان أبو سعيد فانشأ الاساطيل للجهاد وولى أخاه أبا البقاء ثغور الاندلس

وأما محمد الثالث سلطان غرناطة فساء أثره في الملك واستبد مع وزيره ابن الحكيم فانتزى عليه أبو الجيوش نصر أخوه وقتله ووزيره لسنة ثمان بعد السبعمائة وفي تلك المدة نازل ملك الاسبانيول الجزيرة الخضراء وجبل الفتح فاستولى على الجبل ولم يقلع عن الجزيرة إلا صلحا بعد أن أذاقها مرّ الحصار فقلق ابن الاحمر لاخذ الجبل ورغب الى أبي الربيع في اصلاح فاسده ونزل له عن الجزيرة ورندة وبعض الحصون فقبل ذلك منه ثم اصهر اليه في اخته وأمده بالاموال والخيول جنائب مع عثمان ابن عيسى من رجاله وبقي نصر في الملك الى أن انتزى عليه اسماعيل أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر فحاصره في الحمراء وآل الامر أن نزل له عن الملك سنة ٧١٤ واعتزل ومات في نواحي سنة ٧٢٢

وكان فرديناند ملك قشتالة عند نزال جبل الفتح والجزيرة قد استصرخ صاحب برشلونة فحاصر المرية براً وبحراً وذلك في مدة أبي الجيوش نصر ونصب عليها الآلات واحتفر الاسبانيول مسارب تحت الارض مقدار مايسير عشرون راكبا في الواحد منها وفطن المسلمون فحفروا قبالتهم

والتقوا تحت الارض واقتتلوا وهذا كما حصل في حصار مالقة في العهد الاخير كما سيأتي وسارع عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة بالاندلس من بني مرين لنجدة أهل المرية فالتقى بجيش صاحب قشتالة فهزمه ثم صمد الى عسكره باسطيونة فاوقع به فسرح اليه جيوشاً كثيرة فظفر بهم وقتلهم أبرح قتل وقفل بالغنائم وتوفى فرديناند على أثر ذلك عام ٧١٢ وولي بعده ابنه المعروف عند العرب بالمنشة طفلا رضيعا فجعلوه لنظر عمه الدون بترو أو بطره والدون جوان

وفي أيام كفالتهما شغل أبو سعيد المريني سلطان المغرب بفتنة ابنه فانتهز الاسبانيول الفرصة واعتزموا استئصال المسلمين من الاندلس وتداعوا للحرب واستنفروا الاقطار وأناخ الدون بطره على غرناطة بجموع لا كفاء لها وقيل كان معه خمسة وعشرون ملكا وذلك لسنة ٧١٩ فخرج اليهم شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء يوم الخميس ٢٠ ربيع الاول فاقتطع منهم سرية واستأصلها ويوم الاحد ركب ابو سعيد عثمان بن أبي العلاء في خمسة آلاف من أبطال المسلمين فقيض الله لهم نصرا غريبا وعند ما شاهدهم الافرنج وقد ألهاهم تكاثرهم أخذ منهم العجب لقلتهم وهجومهم فلم يشعروا الا وقد أزاحوهم عن مراكزهم فانهزموا مذعورين وأهب الله ريح النصر للغرناطيين فتبعوهم يأسرون ويقتلون ثلاثة أيام وغنموا من الذهب ثلاثة وأربعين قنطارا ومن الفضة مائة وأربعين قنطارا وسبي سبعة آلاف نفس وكانت خسائر المسلمين من القلة بحيث لو ذكرت لدفع ذلك العقل. وسلخ الدون بطره وحشي جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقي معلقا سنوات وقال ابن خلدون

ان رأسه نصب بسور البلدة وأنه كان باقيا لعهده. وهذه الوقعة من أشهر وقائع الاندلس وفيها استنصر الغرناطيون السلطان أبا سعيد المريني فاعتذر لهم بمكان ابن أبي العلاء شيخ الغزاة وعدوه من دولتهم واشترط عليهم دفعه اليه ووعدهم باعادته فلم يمكنهم ذلك لمكان عثمان ومنعته من عصابته وأغناهم الله عن نصرة أبي سعيد بنصرته تعالى

وفي سنة ٧٣١ توفي أبو سعيد المريني وقام بالامر بعده ولي عهده الامير أبو الحسن وكان من أجلّ سلاطين الاسلام فاشتغل مدة باطفاء فتن مملكته ولما خلص له المغرب وجه عنايته الى الجهاد وسمت نفسه الى حال جده أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وكان الاسبانيول بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال وشجر بين المسلمين دون التوافي لنصرة بعضهم بعضا قد تغلبوا على كثير من حصونهم ونازلوهم في عقر دارهم غرناطة وضربوا الجزية على أبي الوليد فأداها عن يد الذل فاعتزم أبو الحسن الجهاد وجهز الاساطيل وسرح بالجيش ابنه الامير أبا مالك فغزا أرض العدو وأثخن وغنم وجمع له العدو فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصاما فأبى اباؤه وأقام بأرضه فأدركوه وعسكره وهم في مضاجعهم وقتل أبو مالك قبل أن يستوي على جواده واستلم الاسبانيول أكثر قومه وغنموا مامعهم ووصل النعي أبا الحسن والده ففت في عضده وتفجع واعمل في النفير للجهاد والاخذ بالثأر واستدعى الاساطيل من مراسي العدوة، وانجده الموحدون من تونس باسطول بجاية عليه زيد بن فرحون قائد البحر، ووافاه أسطول طرابلس وقابس وجربة واجتمعت كلها بسبتة معقوداً عليها لمحمد بن العزفي، وزحفت الى أساطيل الافرنج فتحاجزت

وتناجزت وأهب الله ريح النصر من جهة بني مرين فخالطوا سفن الافرنج واستلحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم (المند) وعادوا بالسفائن مجنوبة الى مرفإ سبتة وطيف بالرؤس وجلس السلطان للتهنئة وكان يوما مشهوداً

ثم أخذ يجيز العساكر الى الاندلس، وأجاز على أثرها اختتام سنة ٧٤٠ وخيم بساحة طريف ووافاه سلطان غرناطة بغزاة زناتة وجنود الاندلس وشددوا الحصار على طريف وجاء الاسبانيول بأسطول عظيم حالوا به بين العدوتين وامتنعت البلد ففنيت الاقوات واختلت أحوال المعسكر وتكاثرت جموع الاسبانيول وأصرخهم صاحب أشبونة البرتغال فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلا على حين غفلة وكمنوا في مكان وفي غد تزاحف الجمعان فبرز الجيش الكمين من البلد وخالفوا الى معسكر السلطان وعمدوا الى فسطاطه فدافعهم الحراس فقتلوهم وفتكوا بحظايا السلطان عائشة بنت عمه وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب افريقية وغيرهما وسلبوا الفسطاط واحرقوا المعسكر، فلما رأى المسلمون ما حل وراءهم بالمعسكر اختل مصافهم واخذ ابن السلطان أسيراً لمخالطته العدو في تقدمه وانحاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله فدافعهم ونجا ووصل الطاغية الى محلة السلطان فانكر على قومه قتل النساء والاولاد وانهزم ابن الاحمر الى حمرائه وخلص أبو الحسن الى الجزيرة فجبل طارق ومنها الى سبتة وكانت وقعة مشئومة على المسلمين عظم فيها البلاء وفدحت الرزيئة وجل الخطب، وقد بالغ بعض مؤرخي الافرنج في تقدير خسائر المسلمين فزعم بعضهم أنه قتل منهم مائتا ألف وان خسائر الاسبانيول كانت نحو ٢٠ قتيلا فقط وهذا أشبه بقول بعض مؤرخي الاسلام ان خسائر الافرنج في وقعة الدون بطره بلغت خمسين ألفاً ولم يستشهد من

المسلمين **إلا** ثلاثة عشر فارساً وقيل عشرة فقط مما يدل على تأخر فن النقد في تلك الاعصار وقبول الاخبار على علاتها بدون عرضها على العقل ولا سبرها بعيار الحكمة والنظر . على أن هاتين الوقعتين تتشابهان في قضية أسر نساء الملوك ففي الاولى أسرت امرأة الطاغية بحسب قول العرب وفي الثانية أسرت بعض نساء السلطان أبي الحسن عدا من قتل منهن

وبعد هذه الوقعة اشتدت وطأة الاسبانيول على المسلمين وطمعوا في التهام بقيه الاندلس ونازلوا قلعة بني سعيد وأخذوها بعد حصار شديد. وأعاد أبو الحسن بن مرين الكرة وجهز الاساطيل وسرب البعوث الى الجزيرة الخضراء وتلاقت الاساطيل الاسلامية والنصرانية فقضى بهزيمة المسلمين وملك أسطول الطاغيـة بحر الزقاق وسما له شوق الى استخلاص الاندلس فبعث بالنفير ووافته النجدات وحضرت الاوامر من البابا بوجوب القيام يداً واحدة لطرد مسلمي الاندلس ، وانضم الى الفونس ملك قشتالة كثير من الملوك ووافاه من أنسباء ملك انكلترة الكونت دربي والكونت سالسبري ، غاستون ، كونت دوفوا وكونت دوبيارن ، غيرهم وزحف الجميع فنازلوا الجزيرة الخضراء ليلحقوها بطريف ويستولوا على فرضة مجاز المسلمين وحشروا اليها الفعلة والصناع للنقب والحفر وأطالوا حصارها واتخذوا للمعسكر بيوتا من الخشب بقصد المطاولة كما اتخذوا لمعسكرهم في القرن التالي بيوتا من الحجر وهم على غرناطة وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة فنزل بظاهر جبل طارق وطال الحصر وأصاب أهل الجزيرة الجهد فسألوا الامان فبذلوه لهم وخرجوا الى المغرب وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن خير نزل

والى هذه الوقعة يشير كتاب شهير بعث به السلطان أبو الحسن بن مرين الى الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر يقول فيه عند ذكر الصلح : « إلا أن المطاولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف أدى الى فناء الافوات في البلد حتى لم يبق لاهله قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد ، فكتب الينا سلطان الاندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح » الخ

وورد الجواب من السلطان ابن قلاوون وفيه عند ذكر الوقعة قوله : « ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا اليكم عقبان الجياد المسومة ، وسالت على عدوكم أباطحهم قسينا المعوجة وسهامنا المقومة ، وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح ، وجعلنا ليل العجاج ممزقا ببروق الصفاح ، واتخذنا رؤسهم لصوالج القوائم كرات ، وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات ، وعطفنا عليهم الاعنة ، وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الاسنة ، وفلقنا الصخرات بالصرخات ، وأسلنا العبرات بالرعبات ، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول ، وأين الثريا من يد المتناول » الخ

ليت شعري ما كان أغناه عن حرب الكلام ، والاعتياض عن السيوف بالاقلام ، إن كانت الغاية بعيدة عليه الى هذا الحد ، والظاهر أن كاتبه صلاح الدين الصفدي المشهور بحب التجنيس عز عليه أن لا يفلق الصخرات بالصرخات حرمة لهذا الجناس ولو كان في فضلة القول عن العمل ما فيها من الهجنة

ولنعد الى الكلام على بني الاحمر أصحاب هذا المقام فنقول : لما توفي أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على مملكة غرناطة من يد ابن عمه أبي الجيوش بويع ولده محمد الرابع طفلا صغيراً لكفالة الوزير محمد بن المحروق فاستبد هذا بالامر وأمعن في الظلم فلما بلغ محمد الرابع سن الحلم اغتاله وشمر لتأييد الملك وجهاد العدو ووفد على أبي الحسن ابن مرين في فاس فأعظم قدومه وتفاوضا في شأن المسلمين وراء البحر واعتزما الجهاد ويومئذ أرسل أبو الحسن ابنه الشهيد فيما بعد الامير أبا مالك في خمسة آلاف مقاتل من آل مرين وانضموا الى محمد بن اسماعيل ابن الاحمر المذكور ونازلوا جبل الفتح. زحف اليهم الاسبانيول فوقعت بين الفئتين حروب ومناجزات لم يظفر فيها الاسبانيول بطائل ودخل المسلمون الجبل عنوة وبقي مع الجزيرة الخضراء لنظر أبي مالك الى أن قتل كما سبق به الخبر وتوالت الهزائم على المسلمين وكان صاحب قشتالة قد حاول استرداد الجبل ونزل عليه قبل المرة الاخيرة فأسرع محمد الرابع الى انقاذه فرحل ملك النصارى وعاد محمد الى غرناطة ظافراً ونقم على جند افريقية فيما قيل قعودهم وهزيء بهم فعتبوه ، وربا ذلك في قلوبهم فقتلوه. وقيل ان ذرية عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة من زناتة والبربر وابن سلطان المغرب كانوا قد خلفوا شيخهم في الجهاد ببر الاندلس وكانوا يرجعون في رئاستهم الى الامير أبي ثابت عامر وقويت عصابتهم وعلت كلمتهم حتى استبدوا على السلطان وكان ذلك قبل اجازته نحو أبي الحسن بن مرين فلما أجاز اليه ظنوا فيه الظنون وأضمروا السوء لما بينهم وبين أولاد عمهم من المنافسة والمداوة فعند أوبته التقوه بقرب حصن

أصطبونة وأغلظوا له القول وقتلوا عاصما صاحب ديوان العطاء من مواليه فلما أنكرها السلطان تناولوه قعصا بالرماح الى أن قتلوه وانقلبوا فجاؤا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد فأجلسوه مكانه واستبدوا عليه وخشي غائلتهم وأسرلهم فلما اتفق مع ابن مرين قبض عليهم واعتقلهم جميعا وأجازهم الى تونس وكان أبو الحجاج يوسف من أفاضل الملوك في عدله ونزاهته وحبه للعلم والعلماء عقد مع النصارى المهادنات لإراحة لرعيته وتفرغا للاعداد والاهبة، ولم يهمل وقته ولا ضيع الفرصة، وأنشأ المساجد والمدارس، وجر المياه ومهد السوابل، الى أن توفي عام ٧٥٥ وسبب وفاته أن بعض الزعانف وقيل ان رجلا به مس قد طعنه يوم الفطر وهو ساجد في الصلاة فقضى عليه لحينه فقام بالامر بعده محمد الخامس وكان بعضهم رشح ابنه الاصغر اسماعيل فلما عدلوا عنه حجروه ببعض القصور وكان له صهر من ابن عمه محمد بن اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فكان يغريه سرا بالوثوب الى أن أمكنته الفرصة وذلك ان محمداً خرج مرة الى التنزه فدخل محمد بن اسماعيل في زمرة من الاوشاب لفهم حواليه واقتحم دار الحاجب رضوان فقتله بين حرمه وبناته وقربوا الى اسماعيل فرسه فركب ودخل القصر وقرعت الطبول بسور الحمراء وفر محمد الى وادي آش فبايعه أهلها على الموت واتصل خبر هذه الواقعة بالسلطان أبي سالم المريني خلف أبي الحسن فأرسل لحينه أبا القاسم الشريف لاجازة محمد المغصوب ملكه الى المغرب لما بينهما من العهد وعقد مع السلطان المنصوب تسريح الوزير الكاتب أبي عبد الله بن الخطيب المشهور بلسان الدين لمكانه من دولة محمد فأجيزوا جميعا واحتفل أبو سالم لقدومهم بفاس دار ملكه وغص المجلس

بالمشيخة والاعيان وقام ابن الخطيب فأنشد بين يدي السلطان قصيدته الرائية يستعطفه لسلطانه ويستنجده لاعادته حتى أبكى الحاضرين ومطلعها

سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الزهر

ومنها

بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى باكنافها والعيش فينان مخضر
وجوي الذي ربى جناحي وكره فها أنا ذا مالي جناح ولا وكر
نفت بيَ لاعن جفوةٍ وملالة ولا نسخ الوصل المنيّ لها هجرُ
ولكنها الدنيا قليل متاعها ولذاتها دأبا تزور وتزورُ
فمن لي بنيل القرب منها دوننا مدى طال حتى يومه عندنا شهر
ولله عينا من رآنا وللاسى ضرام له في كل جانحة جمر
بكينا على النهر السرور عشية فعاد اجاجاً بعدنا ذلك النهر

ومنها

زجرنا بابراهيم ملء همومنا فلما رأينا وجهه صدق الزجرُ
بمنتخب من آل يعرب كلما دجا الخطب لم يكذب امرته فجر
أطاعته حتى العصم في قنن الربى وهشت الى تأميله الانجم الزهر

ومنها

قصدناك يا مولى الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
وأنت الذي تدعى اذا دهم الردى وأنت الذي ترجي اذا اخلف القطر
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه كسير ومن علياك يلتمس النصر
غريب يرجي منك ما أنت أهله فان كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر
فمد يا أمير المؤمنين لبيعة موثقة قد حلّ عقدتها الغدر

أعده الى أوطانه عنك ثانيا وقلده نعماك التي ما لها حصر
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها فقد صدهم منك التغلب والقهر
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة تحاولها هناك مابعدها خسر

وبقي ابن الاحمر محمد ووزيره ابن الخطيب على الرحب والسعة والاجلال والكرامة في حاضرة ابن مرين الى أن كان ارتجاع محمد ملكه لسنة ٧٦٣

ولنذكر هنا قول الوزير ابن الخطيب عن هذه الحادثة في تأليفه المسمى (باللمحة البدرية بالدول النصرية) وهو إنه كان السلطان أبو عبد الله عند تصير الامر اليه قد ألزم أخاه اسماعيل قصراً من قصور أبيه بجوار داره مرفها عليه متممة وظائفه وأسكن معه امه وأخواته منها وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال جم فوجدت به السبيل الى السعي لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي الوليد بن الرئيس أبي عبد الله المبايع له باندرش ابن الرئيس أبي سعيد جدهم الذي تجمعهم جرثومته وشمر الصهر المذكور عن ساعد عزمه وهو على ماهو عليه من الاقدام ومداخلة ذؤبان الرجا واستمال بعن أسفته الدولة وهفت به الاطماع فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنمين شفاً صعب المرتقي واتخذوا آلة تدرك ذروته لقعود بنية كانت به عن التمام وكبسوا حرسيا باعلاه بما اقتضى صمانه ونزلوا الى القلعة سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائة فاستظهروا بالمشاعل والصراخ وعالجوا دار الحاجب رضوان ففضوا اغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده وانتهبوا مااشتملت عليه

واسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الامير المعتقل اسماعيل وقرعت الطبول ونودي بدعوته

وقد كان أخوه السلطان متحولا الى سكنى الجنة المنسوبة للعريف لصق داره فما راعه الا النداء والعجيج وقرع الطبول وهب الى الدخول الى القلعة فألفاها قد أخذت دونه شعابها ورشقته السهام فرجع وسدده الله في محل الحيرة ودس له عرق الفحول من قومه فامتطى صهوة فرس كان مرتبطا عنده وصبح مدينه وادي آش وقد أعيا متبعه فلم يشعر حافظ قصبتها الا وهو فيها فأعطاه أهلها صفقتهم وتجهزت الحشود لمنازلته وجدد أخوه المتغلب عقد السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه الى سلم المسلمين لجراء فتنة بينه وبين البرجلونيين

واغتبط به أهل المدينة فذبوا عنه ورضوا بهلاك نعمتهم دونه واستمرت الحال الى يوم عيد النحر من عام التاريخ ووصله رسول صاحب المغرب مستنزلا عنها ومستدعيا الى حضرته لما عجز عن امساكها وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من معول ، فانصرف ثاني النحر وتبعه جمع وافر الى مربلة من ساحل اجازته وكان وصوله الى مدينة فاس مصحوبا من البر والكرامة بما لا مزيد عليه في السادس من المحرم فاتح عام ٧٦١ وركب السلطان للقائه ونزل اليه عندما سلم عليه وكنت قد لحقت به مفلتا من شرك النكبة التي استأصلت المال ، وأوهمت سوء الحال بشفاعة السلطان أبي سالم فقمت بين يديه منشدا في المحفل المذكور (وذكر القصيدة الرائية حتى أتى على آخرها ثم قال) : وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان انصرافه الى

الاندلس وقد ألح صاحب قشتالة في طلبه ، فعقد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة وبرز الناس ، واستحضرت البنود والطبول والآلة وألبس خلعة الملك وقيدت له مراكبه فاستقل وقد التف عليه كل من جلا عن الاندلس من لدن الكائنة ورأى من رقة الناس واجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد اذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله الله برواق الرحمة وعطف عليه وشائج المحبة الى كونه مظلوم العقد منتزع الحق فتبعته الخواطر وحميت عليه الانفس ، وانصرف لوجهته ، وهو الآن برندة مستقل بها وبجهاتها ، ومقتنع برسم سلطنتها ، وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد علي بن يوسف بن كماشة الحضرمي وبكتابة الفقيه أبو عبد الله بن زمرك (تلميذ ابن الخطيب صاحب هذا القول) وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر انتهى ببعض تصرف

ثم استرجع السلطان المذكور حاضرة ملكه حمراء غرناطة وقتل له ملك قشتالة المنتزي على ملكه من أبناء عمه ، وقد استوفى القصة كتاب من انشاء الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سلطانه الغني بالله محمد المذكور الى الملك المنصور بن أحمد ابن الناصر بن قلاوون نقتطف منه بعض ما يناسب المقام لصدوره عن شاهد للحوادث بجملتها ، وواقف على دخيلتها ، وشريك في أسبابها ، وبحر في معرفة أنسابها وهو قوله « ان بعضا ممن ينسب الينا بوشائج الاعراق ، لا بمكارم الاخلاق ، ويمت الينا بالقرابة البعيدة ، لا بالنصبة السعيدة ، ممن كفلناه يتيما ، وصناه ذميما شتيما ، وبوأناه مبوأ كريما ، بعد أن نشأ حرفوشا دميما ، يلعو نا لئيما ، ونوهناه من خموله بالولاية ، ونسخنا

حكم نسجه بآية العناية ، داخل أخا لنا كنا الزمناه الاقتصار على قصره : ولم نجعل أداة تدل على حصره ، وسامحناه في كثير من أمره ، ولم نرتب نزيده ولا عمره ، واغتررنا برماد علا على جمره ، فاستدعى له من الصعاليك شيعة من كل درب بفك الاغلاق ، وتسرب انفاق النفاق ، وخارق للاجماع والآصفاق ، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفساق ، وتسور بهم القلعة من ثلم شرع في سده ، بعد هده ، ولم تكمله الاقدار المميزة في ليلة آثرنا بيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا ، واستنبنا من يضلع بامورنا ، فاستتم الحيلة التي شرعها . واقتحم القلعة وافترعها ، وجدل حرس النوبة وصرعها ، وكبس محل النائب عنا وجدّله ، ولم ينشب أن جدله ، واستخرج الاخ البائس فنصبه ، وشد به تاج الولاية وعصبه ، وابتزامرنا وغصبه وتوهم الناس أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ، والدائرة بناقد ألمت ، ولقد همت ، نخذل الناصر ، وانقطعت الاواصر ، واقدم المتقاصر ، واقتحمت الابهاء والمقاصر ، وتفرقت الاجزاء وتحللت المناصر ، وفقد من عين الاعيان النور الباصر ، فاعطوه طاعة معروفة ، واصبحت الوجوه اليه مصروفة ، وركضنا وسرعان الخيل تقلفوا أثر منجاتنا والظلام يخفيها ، وتكفي علينا السماء والله يكفيها ، الى أن خلصنا الى مدينة وادي آش خلوص القمر من السرار ، لا نملك الا نفسا مسلمة لحكم الاقدار

(الى أن يقول) ولم ينشب الشقي الخزي ان قتل البائس الذي موه نزيفه ، وطوقه بسيفه ، ودل ركب المخافة على خيفه اذ أمن المضعوف من كيده وجعل ضرغامه بازيا لصيده واستقل على اريكته استقلال الظليم

على تريكته ، حاسر الهامة ، متنفقا بالشجاعة والشهامة

(الى أن يقول) وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة . وركبنا البحر تكاد جهتاه تتقارب تيسيرا ، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيرا ، وأخذت لخ ئن الصيحة فاختبل ، ظهر تهوره الذي عليه جبل ، فجمع أوباشه السفلة وأوشا ه ، وبهرجه الذي غش به المحض وشابه ، وعمد الى الذخيرة التي صانتها الاغلاق الحريزة ، والمعاقل العزيزة ، فملأ بها المناطق ، واستوعب الصامت والناطق ، والوشح القراطق ، واحتمل عدد الحرب الزينه ، وخرج ليلا عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة ، ودولة بغيه الزائلة ، ان يقصد طاغية الروم من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا أمر عرف حقيقته ، الاما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الامة المسلمة فلم يكن الاان تحصل في قبضته ، ودنا من مضجع ربضته ، واستشار نصحاءه في امره ، وحكم الحيلة في جناية غدره ، وشهره ببلده ، وتولى قتله بيده ، ، ألحق به جميع من أ حده في غيه ، وظاهره على سوء سعيه ، وبعث الينا برؤوسهم فنصبت بسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشدرها . الى آخر ما قال

وفي هذه الواقعة نظم لسان الدين قصيدته اللامية المشهورة ووجه بها الى سلطانه المذكور فيقال أنه لشدة اعجابه بها أمر بكتابتها على جدران الحمراء ومطلعها

الحق يعلو والاباطل تسفل	والحق عن أحكامه لا يسئل
واذا استحالت حالة وتبدلت	فالله عزّ وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعودٌ به	والصبر بالفرج القريب موكل

أحمدْه والحمد منك سجية ... بحليها دون الورى تتجمل
أما سعودك فهي دون منازع ... عقد باحكام القضاء مسجل

ومنها

عوذ كمالك مااستطعت فانه ... قد تنقص الاشياء مما تكمل
تاب الزمان اليك مما قد جنى ... والله يأمر بالمتاب ويقبلُ
ان كان ماض من زمانك قد مضى ... باساءة قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الجاني الذي ... أرضاك فيما قد جناه الاول
والله قد ولاك أمر عباده ... لما ارتضاك ولاية لاتعزل
واذا تعمدك الاله بنصره ... وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل
وظعنت عن أوطان ملكك راكبا ... متن العباب فأي صبر يحمل
والبحر قد حنيت عليك ضلوعه ... والريح تقطع للزفير وترسل
ولك الجواري المنشآت وقد غدت ... تختال في برد الشباب وترفل
جوفاء يحملها ومن حملت به ... من يعلم الانى وماذا تحمل

ومنها

صبحتهم غرر الجياد كأنما ... سد الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغرَّ محجل ... يرمي الجلاد به أغرُّ محجل
زجل الجناح اذا أجد لغاية ... واذا تغنى للصهيل فبلبل

ومنها

وبكل أزرق ان شكت الحاظة ... مَرَهَ العيون فبالعجاجة يكحل
متأود أعطافه في نشوة ... مما يعل من الدماء وينهل
عجبا له ان النجيم بطرفه ... رمدٌ ولا يخفى عليه مقتل

ومنها

لله موقفك الذي وثباته وثباته مثل به يتمثل
والخيل خط والمجال صحيفة والسمر تنقط والاسنة تشكل
والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الاسل المثقف تعمل
لله قومك عند مشتجر القنا اذ ثوب الداعي المهيب وأقبلوا
قوم اذا لفح الهجير وجوههم حجبوا برايات الجهاد وظللوا

وقد كافأ محمد الخامس ملك قشتالة على غدره بخصمه ابن عمه بمضافرته إياه على أخيه المنتزي عليه أيضا ولكن دارت الدائرة أخيراً على الملك وتمكن أخوه من قتله وفي خلال هذه الفتنة بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة وتشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بانتقاض ابن أخيه وعامر بن محمد فراسل صاحب الاندلس على أن يزحف بعساكره على أن عليه الامداد بالمال والاساطيل فزحف ابن الاحمر بعساكره المسلمين واقلعت أساطيل صاحب المغرب من مرسى سبتة واحيط بالجزيرة وضيق على حاميتها ويئسوا من المدد فنزلوا عنها بالامان ودخلها المسلمون وذلك سنة ٧٧٠ وبعد ذلك رأى المسلمون هدمها خشية ارتجاع الاسبانيول لها كما هدم صلاح الدين الايوبي عسقلان لمثل هذه الغاية فهدمت في سنة ٧٨٠ واصبحت خاوية على عروشها

واستمرت أحوال غرناطة في مدة الغني بالله محمد الخامس على ما كانت عليه من الغبطة والسعادة وأمضت تلك الدولة إغماض الخمود إذ لم تقم لها بعد هـذا السلطان قائمة تشكر الى أن قبض في عام ٧٩٨ وقام

بالامر بعده ابنه أبو عبد الله يوسف والسلطان محمد هذا هو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب أشهر وزراء الاندلس على الاطلاق، بل من أشهر رجال الادب والسياسة في الآفاق، الذي بنى المقري أكثر نفح الطيب على سيرته وأخباره ونثره ونظمه وأشياخه وتلامذته بما لا أظنه جمع عن أحد مثله وحيث كان المقام تاريخ غرناطة في هذا الذيل وكان الوزير المذكور مفخر ذلك البلد وواسطة عقد ذلك الصقع فلا بأس في إيراد زبدة خبره بما أمكن من الايجاز فنقول :

*

زبدة ترجمة لسان الدين الخطيب

ترجمه سليل السلطان الامير العلامة أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بامر الله محمد بن الاحمر نزيل فاس في كتابه المسمى (فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان) فقال ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة لوشة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب

وقال في منشأه : نشأ على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تكتيبا ثم حفظا ثم تجويدا ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي وقرأ عليه العربية وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزي ولازم قراءة العربية والفقه على الشيخ الامام ابن الفخار البيري وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب الى آخر من

ذكر من أشياخ الرجل الاعلام ثم ذكر أخذه الطب وصناعة التعديل عن الامام يحي بن هذيل حكيم وقته

وقال ابن خلدون بنسقه المعروف في شأن لسان الدين وكان معاصره وصاحبه : (١)

ترجمة ابن خلدون

(١) كما ترجم ابن خلدون لسان الدين ترجمه لسان الدين في (الاحاطة بأخبار غرناطة . بما نصه (عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نبهاء ثوار الاندلس وينسب سلفهم الى وائل بن حجر وحاله في القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة انتقل سلفه من مدينة اشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين محمد بن الحسن وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة، وتصرف جد المترجم به في القيادة، وأما المترجم به فهو رجل فاضل حسن الخلق جم الفضائل باهر الخصال رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاصي الزي عالي الهمة عزوف عن الضيم صعب المقادة قوي الجأش طامح لقنن الرئاسة خاطب للحظ بارع الخط مغرى بالتجلة جواد حسن العشرة مبذول المشاركة مقيم لرسم التعين عاكف على رعى خلال الاصالة مفخر من مفاخر التخوم المغربية. قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال والعربية على المقري الزواوي وغيره وتأدب بأبيه وأخذ عن المحدث أبي عبد الله بن جابر الوادي آشي وحضر مجلس القاضي ابي عبدالله ابن عبد السلام وروي عن الحافظ ابي عبد الله السطي والرئيس ابي محمد عبد المهيمن الحضرمي ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الابلي وانتفع به

انصرف من افريقية منشأه بعد ان تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة واقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة وعرف فضله وخطبه السلطان منفق سوق العلم والادب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان واستحضره بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده =

«أصل هذا الرجل من اوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال

= عن حسن النأي وشفوقه بتقوب الفهم وجود الادراك وأغروا به السلطان اغراء عضده ما جبل عليه عهدئذ من اغفال التحفظ مما يريب لديه فأصابته شدة

(الى ان يقول) ودالت الدولة الى السلطان أبي سالم وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته فقلده ديوان الانشاء مطلق الجرايات محرر السهام نبيه الرتبة الى آخر أيامه ولما ألقت الدولة مقادها بعده الى الوزير عمر ابن عبدالله مدبر الامر وله اليه وسيلة وفي حليه شركة وعنده حق رابه تقصيره عما ارتمى اليه أمله فساء مابينهما بما آل الى انفصاله عن الباب المريني وورد على الاندلس في أول ربيع الاول عام أربعة وستين وسبعمائة واهتز له السلطان وأركب خاصته لتلقيه واكرم وفادته وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ولم يدخر عنه براً ومواكلة ومراكبة ومطايبة وفكاهة (قال) وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة قد استعمل في السفارة الى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه ، مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة

ووصفه في الكتابة فقال) واما نثره وسلطانياته فسجعية تخالج بلاغة ورياض فنون ومعادن ابداع يفرع منها يراعه الجري شبيهة النداءآت بالخواتم في نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع. واما نظمه فنهض لهذا العهد قدما في ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه فانثال عليه جوه وهان عليه صعبه الخ

وانما قال لهذا العهد لان ابن خلدون في البداية كان يستصعب النظم وينسب ذلك لكثرة ماحفظ من المتون وكتب الاصول وقد ذكر في مقدمته انه ذاكر في ذلك صاحبه الوزير ابن الخطيب وشكا اليه ضعف ملكته في النظم عاظن من السبب فأجابه ونله انت وهل يقول هذا الا مثلك

هذا وقد ذكر ابن خلدون في تعريفه بنفسه آخر التاريخ انه في آخر مقامه بغرناطه اشتم من الوزير ابن الخطيب رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة فاستأذن السلطان ابن الاحمر في الارتحال وعمى عليه ذلك الشأن إبقاء للمودة وارتحل مكرما ولقد صح بذلك ماقاله ابن الخطيب في حقه من انه صعب المقادة عزوف عن الضيم الخ رحم الله الاثنين فقد كان كل خبير بصاحبه

من البسيط الذي فيه ساحتها المسمى بالمرج على وادي سنجيل ويقال شنيل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب الى الشمال، كان له بها سلف معروفون بوزارتها وانتقل أبو عبد الله الى غرناطة واستخدم لملوك بني الاحمر واستعمل على مخازن الطعام ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحي بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الادب وأخذ عن أشياخه وامتلا حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يجاري فيهما وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الاحمر وملا الدولة بمدائحه وانتشرت في الآفاق فرقاه السلطان الى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية الى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رئاسة الكتاب ببابه وثناه بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشارطات فجمع بها أموالا وبلغ به المخالصة الى حيث لم يبلغ بأحد من قبله (الى أن قال)

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة وطعنه فأثواه لوقته وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي (١) هذا القاتل فمزقوه أشلاء وبويع

(١) يجمع علج على علوج واعلاج ومعلوجي والظاهر ان الاخير مختار اهل المغرب لتداوله في كتاباتهم

ابنه محمد بالامر لوقته وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم ،وكفالة الاصاغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لابيه واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب رديفا له في أمره ، وتشاركا في الاستبداد معا ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير بن الخطيب سفيراً الى السلطان أبي عنان مستمدين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الاندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنه كف قدرته ما ليس يسطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن به مذ وصلت حبلهم ماجحدوا نعمة ولا كفروا
وقد اهمتهم نفوسهم فوجهوني اليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الابيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع اليهم الا بجميع عطاتهم، ثم أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع ما طلبوه ، ومكثت دولتهم هذه بالاندلس خمس سنين ثم نازلهم محمد الرئيس ابن عم السلطان (وذكر القصة السالفة من اجازة ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب الى المغرب) الى أن قال : واستأذن أي ابن الخطيب في التحول الى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها فأذن له

وكتب الى العمال باتحافه فتبادروا في ذلك وحصل منه على حظ وعند مامر بسلا عند قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بسالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على رويّ الراء الموصولة يرثيه ويستثير به الى استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها :

ان بان منزله وشطت داره   قامت مقامه عيانه أخباره

قسم زمانك عبرة أو عبرة   هذا تراه وهذه آثاره

الى آخر ما ذكر من ترجمته

ولا بأس في نقل شيء مما ترجم به ابن الخطيب نفسه نرويه ببعض تصرف حبا بالاختصار قال محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد السلماني قرطبي الاصل ثم طليطلة ثم لوشية ثم غرناطية يكنى أبا عبد الله ويلقب من الالقاب المشرقية لسان الدين انتقل سلفه من قرطبة لحادثة الربض كيحيى بن يحيى الليثي في وقعة الربض (١) الشهيرة الى طليطلة ثم تسربوا محومين الى وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه فاستقر منهم بالمرستنة الاندلسية جملة من النبهاء كعبد الرحمن قاضي كورة باغة وسعيد المستوطن بلوشه وكان سعيد هذا من أهل العلم والدين وخلفه ولده عبد الله سالكا مسلك أبيه في التزيي بالانقباض والتحلي بالنزاهة وخلفه ولده سعيد جدنا الاقرب وكان صدراً خيراً مستوليا

---

(١) ملخص هذه الواقعة ان أهل ربض قرطبة ثاروا على الحكم الاموي وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي وغيرهم فهزمهم الحكم وقتل من قتله منهم وأجلى الباقين الى الاسكندرية فلم يطل الامر ان حصلت فتنة أجلتهم الى اقريطش ـ أو كريد ـ في الايام فعمروها واختطوا بها مدينة قنديا التي يقال أن اسمها بالعربي الخندق لكونهم أداروا عليها خندقا وكانت لهم بها امارة استمرت نحو سبعين سنة ثم رجعت الجزيرة للروم في ذلك الوقت

على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب تحول الى غرناطة عند ثورة جيرته بني الطنجالي لها تميين وصاهر بها الاعيان من بني اضحى بن عبد اللطيف الهمداني أشراف جند حمص الداخلين الى الجزيرة في طائفة بلج بن بشر القشيري توفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة وتخلف والدي نابتاً في الترف نبت العليق يكنفه رعي أم تجر ذيل نعمة وتحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم اذا سرى، ففاته لترفه حظ كبير من الاجتهاد وعلى ذلك فقرأ على بعض الجلة وانتقل الى لوشة بلد سلفه بخمس صابلقب الوزارة الى أن قصدها أبو الوليد متخطيا الى الحضرة فمضد أمره وأدخله بلده لدواع يطول استقصاؤها. ولما تم له الامر صحب ركابه الى دار ملكه مستأثراً بشقص عريض من دنياه، وكان من رجال الكمال طلق الوجه، وتضمن كتاب الحلي والاحاطة رائقاً من شعره، وفقد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادى الاولى سنة واحد وأربعين وسبعمائة ثابت الجأش غير جزوع ولا هيابة.

حدثني الخطيب أبو عبد الله بن اللوشي قال: كبا بأخيك الطرف وقد غشي العدو وجنحت الى أردافه فانحدر اليه والدك وصرفني وقال: أنا أولى به فكان آخر العهد بهما. قال: وخلفني أي عبد الله عالي الدرجة، شهير الخطة، مشمولا بالقبول، فقلدني السلطان سره ولما يستكمل الشباب، معززة بالقيادة رسوم الوزارة، واستعملني في السفارة الى الملوك، واستنابني بدار ملكه، ورمى الى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمني على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه. ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي، وقصر المشورة على نصحي، الى أن

كانت عليه الكائنة فقتدى فيّ أخوه المتغلب على الامر به فسجل الاختصاص وعقد القلادة

ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض علي فتقبض علي، ونكث ما أبرم من اماني، واعتقلت بحال ترفيه . وبعد أن كبست المنازل والدور واستكثر من الحرس وختم على الاغلاق واستؤصلت نعمة لم تكن بالاندلس من ذوات النظائر في تبحر الغلة وفراهة الحيوان وغبطة العقار واستجادة العدة ووفور الكتب الخ فأخذ ذلك البيع، وتناهبتها الاسواق، وصاحبها النحس وشمل الخاصة والاقارب الطلب، واستخلصت القرى، وانصرف اللسان الى ذكر الله تعالى، وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت

تخلصت منها نكبة مصحفية   لفقداني المنصور من آل عامر

(يشير الى نكبة مصحفي أيام المنصور بن أبي عامر) ووصلت الشفاعة فيّ مكتتبة بخط ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطا في حل العقدة، ومسالمة الدولة، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق الى المغرب وبالغ ملكه في بري، منزلا رحيبا، وعيشا خفضا، واقطاعا جما، وجراية ما وراءها مرمى، ثم اسعف قصدي في تهيؤ الخلوة بمدينة سلا : منوه الصكوك، مهنأ القرار، متفقدا باللهى، موفور الحاشية، مخلي بيني وبين اصلاح معادي، الى أن رده الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله (محمد الخامس) ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه، فطالبني بوعد ضربته، ولم يوسعني عذرا، ولا فسح في الترك مجالا. فقدمت عليه بولده على حال من التقشف والزهد فيما بيده، فرمى الي بمقاليد رأيه، وغطى من جفاء لي بحلمه، وحثا في

وجوه شهواته تراب زجري، وصرف هواي في التحول ثانيا، فاستعنت الله تعالى وعاملت وجهه فيه من غير تلبس بجراية، ولا تشبث بولاية، مقتصراً على الكفاية، خامل المركب، هاجر الزخرف، صادعا بالحق في أسواق الباطل، كافا عن السخال براثن السباع الخ انتهى.

وبقي ابن الخطيب في وزارة أبي عبد الله محمد الى أن غصت بامره حاشية السلطان فدبت في حقه عقارب السعاية، وتوهم ابن الخطيب ميل سلطانه الى قبولها فأجمع التحول عن الاندلس الى المغرب، واستأذن مولاه في تفقد الثغور الغربية وسار اليها في لمة من فرسانه ومعه ابنه علي، فلما حاذى جبل طارق مال اليه ومنه أجاز الى سبتة ومنها قصد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني وكان مكينا لديه لسابق عهد فأنزله خير نزل، وبعث كاتبه أبا يحي بن أبي مدين سفيراً الى الاندلس في طلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات. فلما خلا الجو لاعدائه أخذوا تتبع سقطاته وإغراء سلطانه محمد به، ورموه بالزندقة ونسبوا اليه في ذلك كلما . رفعت الى قاضي غرناطة أبي الحسن بن الحسن فسجلها عليه وبعثه ابن الاحمر الى سلطان المغرب يطلب الانتقام منه بتلك الكلمات. فأبى ذلك عبد العزيز أنفة لذمته أن تخفر ونزله أن يهان وقال: هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه

ولبث في جوار عبد العزيز الى أن توفي سنة ٧٧٤ ورحع بنو مرين من تلمسان الى فاس فصحب لسان الدين الوزير أبا بكر بن غازي القائم بالدولة يومئذ فأرسل ابن الاحمر يطلب من ابن غازي إسلام ابن الخطيب فأبى واستنكف وكان ابن الاحمر قد أعان احمد بن سالم المريني على سلطنة المغرب

وأمده .وبويع هذا وجرت بينه وبين ابن غازي حروب انتهت بانهزام ابن غازي وخضوعه واستلم ابن الاحمر طعمة على ذلك جبل الفتح والى ذلك يشير الامير الفاضل الرئيس أبو الوليد بن الاحمر بقوله « حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتح وكان إذ ذاك راجعا الى إيالة المغرب فأناخ عليه كلكل الجيش ، وأهمهم ثقل الوطأة ،ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آباء لليل وأطراف النهار من شآبيب الانفاط، ولم يبق بغرناطة من له خلوص ولا من تترامى به همة إلا وأعمل السير الحثيث، ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب . الخ

وقال ابن خلدون : ان ابن الاحمر يومئذ محا دولة بني مرين من وراء البحر وكان من جملة شروط ابن الاحمر على السلطان أبي العباس احمد بن أبي سالم عدا جبل الفتح تسليم لسان الدين ابن الخطيب لما كان موغراً صدره منه ولا سيما بعد أن بلغه انه كان يغري عبد العزيز بافتتاح الاندلس . فلما استولى السلطان ابو العباس احمد قبض على ابن الخطيب وكان سليمان بن داود شديد العداوة للسان الدين لمنعه ابن الاحمر ايام وزارته من تقليده مشيخة الغزاة بالاندلس . فلما قبض عليه طار الخبر الى سلطان غرناطة فأرسل وزيره بعد ابن الخطيب اباعبدالله ابن زمرك وهو تلميذ لسان الدين وخريجه فأحضر ابن الخطيب فى مجلس الخاصة. ونص عليه بعض كلمات وقعت له فى كتابه فى المحبة ، فعظم فيها النكير ووبخ وعزر بمشهد الملإ ثم نقل الى محبسه حيث دس عليه سليمان ابن داود من قتله واخرج شلوه من الغد فدفن بمقبرة باب المحروق ، ثم أخرج من قبره وأحرق ثم أعيد الى الحفرة. وعزي ذلك الى سليمان ولهذا

سمي لسان الدين بذي القبرين، كما كان يلقب بذي الوزارتين، وكما جاء في كثير من الامور على اثنين .

وكان صدر زمانه في الكتابة والشعر بحيث أن المغرب ليفتخر بخانيّ ابن الخطيب وابن خلدون، كما يفتخر الشرق بصادي الصابي والصاحب

ولابن الخطيب تآليف جمة أشهرها . كتاب التعريف ، بالحب الشريف ،والاحاطة بتاريخ غرناطة . في مجلدات ستة ،والاشارة الى آداب الوزارة ، والتاج المحكي ، والكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة ، والاكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر ، ورقم الحلل في نظم الدول ، وطرف العصر في دولة بني نصر ، وبستان الدول ، قسمه الى شجرات أشبه بالنظارات في هذه الايام،فقال مثلا :شجرة السلطان، وشجرة الوزارة ، وشجرة الكتابة ، وشجرة الجهاد ، وقسم هذه فرعين خيول وأسطول ، كل ذلك على وضع غريب لم يسبق اليه . وكتاب تخليص الذهب ، وجيش التوشيح ، وعائد الصلة ، ونفاضة الجراب ، والزبدة الممخوضة ، وكناسة الدكان ، بعد انتقال السكان ، والدرر الفاخرة ، وسد الذريعة ، وأعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام ، وبضعة تآليف في الطب ، وعدة رسائل منها : خلع الرسن، في أمر القاضي أبي الحسن، ترجم بها القاضي أبا الحسن بن الحسن عدوه، وديوان كبير ، وقد استوفى صاحب النفح في شأنه ما لم يبق في القوس منزعا ،

ولنعد الى ذكر بني الاحمر أصحاب غرناطة فنقول : بعد وفاة أبي عبد الله محمد الخامس الذي كان واسطة عقد هذا البيت تولى الامر ابنه

أبو الحجاج يوسف فجدد عقد السلم مع ملوك قشتالة وهادن الاسبانيول طمعا في راحة رعيته واعتنى باصلاح شؤون قومه إلا أن ابنه الثاني محمدا قام عليه وحدثته نفسه بالامارة وقضى مدته في مدافعة ابنه الى أن توفاه الله في سنة ٧٩٩ وكانت القاعدة أن يخلفه ولده البكر يوسف لكن حيث كان أخوه محمد (١) هو المتنزي على الملك وقد التف حوله جماعة من رجال الدولة، فقد أجلسوه على كرسي الامارة وهو السادس باسم محمد من سلاطين غرناطة وفي مدته لم تفتر المناوشات مع الاسبانيول على حدود المملكة وفي عام ٨١١ أتم أنفاسه وجيء بأخيه البكر يوسف الثالث من اعتقاله فبويع بالملك وهادن العدو ما استطاع الا انه اضطر أخيراً الى ركوب الاسنة ولم ينعقد الصلح الا في نحو سنة ٨١٣

اضطهاد اسبانية لمسلمي الاندلس ويهودها

وفي تلك المدة كلها كانت دولتا قشتالة وأراغون تتسابقان في تعذيب المدجنين الذين ذكرنا أنهم المسلمون الخاضعون لحكومة الاسبانيول وملوك الدولتين يتبارون في الانتقام منهم والنكال بهم استزادة للمثوبة واستعلاءً في درجات الآخرة، حسبما كانت عليه حالة ذلك العصر من التحمس الديني والتأخر المدني

---

(١) أما مايفهم من قول الامير الفاضل المؤلف اسماعيل بن يوسف ابن محمد الغني بالله بن الاحمر في ترجمة الوزير الكاتب ابى عبدالله بن زمرك خلف ابن الخطيب في وزارة دولتهم فهو ان وفاة يوسف وقعت قبل هذا التاريخ لقوله « الى ان من الله بسراحه واعاده الى الحضرة في اول شهر رمضان المعظم من عام اربعة وتسعين وسبعمائة فكان ماكان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى وقيام اخينا محمد مقامه بالامر »

في قشتالة كان هنري أخو بطره قد جعل للمدجنين والاسرائيليين علامة فارقة اسمها (المشيرة) وأمر بمنع اختلاطهم وأخذهم وعطائهم مع الاسبانيول وان لا يقبل أحد منهم في خدمة الدولة

وفي أيام جان الاول ملك قشتالة صدرت الاوامر بأن كل مسيحي يربي في بيته مدجناً او اسرائيلياً فله الحق كل الحق أن يؤدبه بالسياط وانه لا يجوز لمدجن ولا ليهودي ان يستخدم عنده مسيحياً، وان من خالف ذلك يضرب وتضبط أملاكه، كما انه لا يجوز دخول مسلم ولا يهودي بيت أحد من الاسبانيول الا اذا كان طبيبا وثبت لزومه ومن خالف ذلك يغرم بدفع ستة آلاف مراويد (نوع من السكة)

وسنة ٨١١ هجرية جدد جان الثاني أمر سلفه في رفض المدجنين واليهود في خدمة الدولة وضم اليه أن جزاء المخالفة دفع ثلاثة آلاف مراويد، وان كل من يسافر من المسلمين أو اليهود مع أحد الاسبانيول او يؤاكله او يستخدمه في عمل له يجلد مائة، واذا تكرر الفعل يؤخذ منه ألف مراويد ويكون ثلثاها للمخبر، واذا وجد احد من هؤلاء في وليمة اسبانيولي يغرم بدفع ثلاثة آلاف وان عاد صاحباً له من الاسبانيول اثناء مرض يدفع ثلثمائة وان عاملهم بأخذ أو عطاء فيدفع الثلاثمائة ويضرب ويعزر

وكانت في بادىء الامر محاكم مخصوصة بالمدجنين فألغيت في التالي وأحيلت دعاويهم الى محاكم الاسبانيول وصدرت الاوامر ايضاً بأن كل يخرج مدجنا من مزارعه ويستخدم لحرثه مدجنا بدلا عنه يغرم بخمسة الاف مراويد وان تكرر فعله فبمائة الف وان تكرر ايضا فتضع الدولة يدها على جميع عقاراته واذا فر مدجن الى غرناطة ووقع أثناء فراره في يد

الاسبانيول عدّ اسير حرب وضبطت جميع أمواله وصار ملكا لمن يمسكه

وسنة ٨٢٦ اضيف الى هذا الشرط أن من منع من المدجنين ابنه من التنصر عذب شديدا ومن اسر من مسلمي غرناطة احداً كان له ملكا خالصاً

وسنة ٨٣٠ صدرت الاوامر بعدم اعتبار امضاء الاسبانيول فيما عليهم للمدجنين واليهود وباعتبار امضاء هؤلاء فيما عليهم للاسبانيول

وسنة ٨٣٣ صدرت الاوامر ان المسلم او الاسرائيلي المدّعى عليه بدين لاحد الاسبانيول اذا انكره لا يقبل منه اليمين ولكن حيث كان بعض المدجنين واليهود يضمنون الاراضي الاميرية ففي هذه الحالة يقبل منهم اليمين عند الانكار لعدم إلحاق الضرر بخزينة الدولة

وسنة ٨٨٠ صدقت الملكة ايزابلا جميع عهود جان الصغير وأضافت عليها حظر لباس الحرير وحلية الذهب والفضة على المسلمين واليهود (عاملت المسلمين في ذلك بحكم شريعتهم لكن في الرجال فقط) ووضعت لهم علامات فارقة في الملبس من جملتها رقعة زرقاء عرضها أربع أصابع لتمييز المسلمات والاسرائيليات

وما كفى كل هذا حتى نشرت حكومة قشتالة امراً لجميع عمال النواحي بأنه بلغ المملكة وقوع إهمال في انفاذ بعض الشروط بتمامها في حق المدجنين واليهود وانه ان حصل فيما بعد اقل تقاعس من احد في تنفيذها بحرفها يعزل من منصبه ويحرم معاشه

واما في مملكة اراغون فكان بطره الثالث قد اعلن في نحو سنة ٦٨٠ هجرية أن كل شخص مسيحيا كان اومسلما اواسرائيليا يمكنه استيطان مملكته والاقامة بها حيث شاء لكن ينفى المسلمون واليهود من الخدمة

العسكرية والمالية في الحكومة ، يحظر عليهم ان يدينوا الاسبانيول مالا بأكثر من فائدة عشرين في المائة و ن دعاويهم تنظر عند الحكام ويقبل فيها اليمين على انه ان كان لمسلم أو يهودي دين عند احد الاسبانيول بدون سند او بينة خطية فيقبل قوله من تاريخ الدين الى خمسة عشر يوما ومن ثمة لا يعود مقبولا والسند الذي للمسلم والاسرائيلي على الاسبانيولي ان لم يسجل عند حكام الاسبانيول فبعد مضي ست سنوات يسقط اعتباره ويلغى كل حكم له

وسنة ٧٧٠ أصدر الدون جان امراً بأن من تنصر من ابناء المدجنين ومات أبوه فله نصيبه من الارث كما لو بقي مسلما

وسنة ٧٨٠ صدرت الاوامر بان كل مدجن يفر الى ارض غرناطة ويقع في اليد يعتبر اسير حرب وتضبط املاكه وتقسم الى ثلاثة اقسام الاول للملك والثاني لمن يكون قد قبض عليه والثالث مناصفة بين صاحب الارض التي أبق منها وصاحب الارض التي تهيأ وقوعه فيها

ثم منع المدجنون من الجهر بالشهادتين واستعمال النفير لما فيه من تحريك الجامعة وجوزي من يجاهر بشيء من ذلك بالقتل

وسنة ٨٩٠ أصدر الملك فرديناند صاحب اراغون امراً بمنع المدجنين من الخروج من مملكته وانه اذا استصحب أحد الاسبانيول احداً منهم في خدمته لضرورة قضت فيؤذن بشرط ان لا يكون مع المدجن ولد دون الاربع عشرة من عمره ذلك خوفاً من الفرار الى بلاد الاسلام — الى غير ذلك من آيات العدل (١) التي تواترت في كتب الافرنج فلخصنا منها ما قرأت ولا عجب فلولا هذه الغرائب ولولا الامعان في الظلم الى

هذه الدرجة لما تأخرت اسبانية الى الحد الذى وصلت اليه بعد ان كان لها من مركزها فى أوروبا وافتتاح اميركا على يدها وانبساط أيديها في مستعمرات الخافقين ما يضمن لها المقام الاول بين الدول

***

﴿ عودة الى ابن الاحمر ﴾

ومن اخبار يوسف الثالث انه لما كان في محبسه من شلوبانية واشتدت علة أخيه محمد السادس وقطع حبال الرجاء من هذه الحياة طمع في تحويل الملك الى ابنه فكتب الى قائد القلعة التي كان أخوه معتقلا فيها بأمره بضرب عنقه عند وصول كتابه لكيلا ينازع ابنه في الملك واتفق عند وصول الكتاب ان يوسف كان يلعب بالشطرنج مع القائد فلما دفع الرسول اليه مرسوم السلطان استأذن الامير يوسف في قراءته وما عتم ان امتقع لونه فاستشف يوسف الامر وسأل القائد هل فيه أمر بضرب عنقي ؟ فتحير في الجواب وأخذ يوسف الكتاب وقرأه بدون أن يعلو وجهه اقل تغير ولما أتى على آخره تبسم قائلا للقائد : لنكمل لعبنا ، فلم يدر القائد كيف يلعب بعد ماشاهد من ربط جأش الامير وسكينته ، ويقال انهما كانا لم يزالا في اللعب حينما اقبل فارس ينعي محمدا السادس ويبشره بانتظار الناس حضوره لتبوء تخت الملك وكانت أيام يوسف هذا موسومة بالخير لاهل غرناطة وكان ممـا بلا من حلو الدنيا ومرها ، وحلب من شطري عرفها ونكرها ، قد أصبح على جانب من الحنان في قومه والرأفة برعيته فساس أمورهم سياسة الاب الشفيق الى ان وافاه اجله لخمس عشرة سنة من ملكه

فقام بالامر بعده ابنه محمد اليساري أو الايسر فأكد عهود المصافاة مع من جاوره من الملوك لكنه لم يحسن الاضطلاع بالاعباء فثار عليه اهل غرناطة وبايعوا محمد الصغير من ابناء عمه وانسلّ محمد الايسر أو الاعسر خفية من غرناطة في هيئة ذلك فلحق بساحل البحر ومنه تزياً بثياب بحري وأجاز في فلك صغير الى تونس نزيلاً عند محمد الناصر ملكها مستغيثا به فأكرم نزله ووعده خيراً

وأما محمد الصغير فأخذ ينتقم ممن شايعوا ابن عمه وقد ورد في تواريخ الافرنج انه حاول لاجل ذلك نكبة يوسف بن سراج من رؤساء غرناطة ففر ابن سراج بأربعين فارسا من أهله وصحبه الى ملك قشتالة وداخله في أمر إعادة محمد الاعسر فكتب صاحب قشتالة الى صاحب تونس يسأله ارسال نزيله الاعسر وهو يظاهره على أمره فانفذه بألف وخمسمائة من رجاله ولما وطئ أرض الاندلس انحاز اليه الاكثرون وأخرج محمد الصغير عسكراً للقائه فانضم أكثرهم اليه ودخل غرناطة فاعتصم محمد الصغير بالحمراء وبقي محصوراً الى ان أسلمته حاميته بعد ان نال منهم جهد الحصار فقتل وكانت مدة امارته سنتين وبضعة أشهر واستقر الاعسر في ملكه وعضده في ذلك ملك قشتالة املا بوهن عزيمته وسوء تدبيره لكنه رمى بآماله ابعدما يمكن للاعسر قبوله وطمح الى ادخال سلطنة غرناطة تحت جناح حمايته فنشأ عن ذلك خلاف انتهى بالحرب وماجت الثغور بالبعوث وفي أثناء ذلك فر يوسف بن الاحمر الذي يقال انه حفيد أبي سعيد المنتزي على الغني بالله الى صاحب قشتالة ووعده ان اعانه على ملك غرناطة بقبول الطاعة له واداء الجزية فسرح معه جيشا وانضم اليه أحزاب يوسف

فأجلسوه مكان الاعسر وفر هذا واستقر بمالقة لكن لم يمض على ذلك ستة أشهر حتى توفي يوسف هذا وأعيد محمد الاعسر الى مكانه ثانية وذلك في سنة ٨٣٥

وكانت بين ملوك الاسبانيول لذلك العهد محاربات شغلتهم عن غرناطة زمناً الا ان الايسر لم يعرف الاستفادة من هذه الفرصة واختلت أمور الدولة في أيامه فأسف لذلك الخواص ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقواد المصر واتسع الشر وانحاز محمد بن اسماعيل من انسباء السلطان وقيل ابن أخيه بلمة من فرسانه الى ملك قشتالة وانتزى محمد بن عثمان الاحنف من ذوي القرابة أيضا وكان قائداً بالمرية وجاء بجماعة من خاصته فدخل الحمراء وتبوأ الملك عنوة وقصر الايسر في قلعة وذلك في أوائل جمادى الاولى سنة ٨٤٩

ولما كان ملك قشتالة ذا هوى مع نزيله محمد بن اسماعيل زحف ابن الاحنف الى بلاده واكتسح البسائط والمخر وغنم وهزم الاسبانيول مراراً الا ان سرية له انهزمت في ١٨ المحرم سنة ٨٥٦ وفي الشهر التالي انهزمت له سرية ثانية يقودها ابن عبد البار وكان هذا منفصلا عن أبيه حليف محمد الاعسر للاتصال بخدمة الاحنف وله امامه مواقف محمودة فهم هذا قتله جزاء هزيمته وكان مولعا بسفك الدم فانتقض عليه الاعيان لكثرة موبقاته وانسل الرؤساء من غرناطة طالبين رجوع الاعسر لكنهم خافوا أن تكون الوسيلة الى قتله فولوا وجوههم شطر إمارة محمد بن اسماعيل نزيل صاحب قشتالة وأمده هذا بجيوشه فانهزم الاحنف ودخل غرناطة ليجمع فل قومه فوجد الاغلب منتقضين عليه فمندها وقد أيقن بظفر

ابن اسماعيل قصد قبل انقضاء أمره الانتقام من أعيان البلد الذين داخلوا خصمه وشايعوه فاستدعاهم الى الحمراء ووضع فيهم السيف. ويقول (لافاله) صاحب تاريخ اسبانية وأحد أعضاء جمعية الآثار في مدريد إنه ربما كانت هذه الحادثة سببا لوجود هذه الرواية ـ المعني بها حادثة قتل بني سراج في الحمراء ـ اذ لابد لهذه الروايات المتناقلة من عصر الى عصر أن تكون ذات أصل ولو كان ضعيفا ثم فر الاحنف من الحمراء قبل وصول ابن اسماعيل ولحق ببعض الجبال مع بعض خواصه من شركاء رأيه الفائل وعمله الموبق ودخل خصمه قصور الحمراء سنة ٨٥٩

ولما كان استيلاء ابن اسماعيل قد تم بمظاهرة ملك قشتالة لم يأل جهداً في التنوع بشروط اذلاله وادخاله في طاعته حتى عاد كأنه قائد من قواده. وفي تلك الاثناء وصل الى الاندلس خبر الفتح الاكبر الذى تضاءلت من دونه الفتوح، وتفتحت أبواب السماء فأطلت منها الملائكة والروح، ألا وهو استيلاء السلطان محمد الفاتح قدس الله روحه على القسطنطينية العظمى، فاشتد بهذه البشرى ازر الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ونال سكان الاطراف منها أضعاف مانال سكان الاوساط ومنهم أهل الاندلس المنقطعين وراء البحر، ووجودهم من العدو بين الناب والظفر، فقد استبشرت بذلك نفوسهم، تجددت عزائمهم، وافق هذا الفتح العظيم بالشرق وفاة الطاغية جان الثاني عندهم، فلما قام بعده ابنه هنريت نزع محمد ابن اسماعيل الى طلب الاستقلال فتجدد القتال وشنت الغارات، زحف صاحب قشتالة بجيوش جرارة فطلب المسلمون الصلح فأجابهم اليه على شرط جزية يؤدونها واطلاق ثمانمئة أسير اسبانيولي وانعقدت المهادنة

وفي خلال هذه المدنة عادت العلائق التجارية بين غرناطة وجيرتها الى ما كانت عليه وكانت هذه البلدة ملجأ لكثير من فرسان الاسبانيول الذين قضت عليهم الفتن الداخلية بالفرار من أوطانهم حتى يروي أن من هؤلاء رئيساً يقال له دياغو دخل في ذمة ملك غرناطة وخدمه وعظمت ثقة هذا فيه حتى رمى أهل مالقة به في عسكر عند ما انتقضوا مرة عليه على أنه قيل إن من جملة غرائب تلك المدنة أن تضع الحرب أوزارها عن جميع البلاد إلا ثغر جيان بين الفريقين فانه يبقى ميدانا للغارات، ولم تنشب الموادعة ان بطلت من الجهتين وأغار مولاي أبو الحسن على بكر أولاد السلطان بحسب أقوال مؤرخي الافرنجة على أطراف شاطبة فانتقم الاسبانيول بالاستيلاء على جبل الفتح، وأعجب الدون هنريك جداً بهذا الفتح، حتى أضاف الى ألقاب ملكه لقب ملك جبل طارق، وجمع جيوشه ونهد الى ناحية غرناطة فاستكفي المسلمون شره بالهدايا وضروب التحف ورجع عنهم بعقد الصلح، واستمرت دعة البلاد الى أن ودع محمد بن إسماعيل هذه الدنيا الفانية في ١٠ شعبان سنة ٨٦٩ وذلك في مدينة المرية وخلفه مولاي علي أبو الحسن كما سيأتي

الفصل الرابع

في دول اسبانية المعاصرة لدولة بني الاحمر

قد تكلمنا عن غرناطة لكونها آخر مدن الاسلام بالاندلس وعن دولة بني نصر فيها لكونها ذماء المسلمين وآخر أنفاس حياتهم بتلك الديار ونتكلم الآن مجملا عن تاريخ الدول الاسبانية المعاصرة لدولة بني الاحمر لما بين التاريخين من المداخلات والمناسبات بحيث يستعين القارىء بفهم هذا على فهم ذاك وتكون الفائدة أعم وأوفى

فاسبانية كانت لعهد القرن الثالث عشر للمسيح منقسمة الى خمس ممالك نافار وأراغون وقشتالة وغرناطة والبرتغال أما في الشمال فمملكة نافار الصغيرة على منحدري جبال البيرانه وكان ملوكها من آل أزنر فلما انقرضت سلالتهم عام ١٢٣٤م ورثهم بسبب زواج بيت كونت شمبانيه وذلك أن اخت الدون شانجه آخر ملوكهم كانت مزوجة بالكونت تيبولت دوشمبانيه فلما توفى الدون بلا عقب كان الحق في ارثه لابن اخته من كونت شمبانيه

إلا أنه لما كان ابن اخته هذا قد لج في طلب الملك قبل وفاة خاله وأثار عليه لاجل تنزيله مما حفظه واحقده عهد بملكه بعد الوفاة لصاحب أراغون فلما توفى كاد يقع الخلاف بين جقوم وبين تيبولت لكن أهل نافار طلبوا من جقوم النزول لتيبولت عن الملك حبا بالسلام فآل الامر اليه وبعد أن استوى على كرسي الامارة بمدة انتظم في سلك الصليبية

وانزعج الى المشرق يحارب مسلمي الشام والمسلمون منه بالاندلس بالمكان الادبي ويقال انه كان محبا للعلوم والفنون وانه كان يقول الشعر ويلحنه على القيثار ويعرض اشعاره في قصره مستهدفا لانتقادها وقد تزوج ثلاث مرات الاولى بابنة كونت لوران فلم يولد له منها أحد والثانية بابنة كونت فلاندره فولد له منها ابنته بلانش والثالثة بابنة كونت فواكس فولد له منها ولدان تيبولت وهنري وابنة اسمها ليونوره ومات في ٨ تموز سنة ١٢٥٣ م تاركا ارثه لولده تيبوات الثاني وهو الذي تزوج بايزابلا ابنة مارلويس أو لويس التاسع وكان من جملة هدايا الزفاف التي أهداه اياها الملك المذكور شوكة يقال انها من اكليل الشوك الذي كلل به السيد المسيح وقد صحب حماه الى الاراضي المقدسة حتى اذا مات مارلويس في غزاة تونس في ٢٥ اغستوس سنة ١٢٧٠ انقلب تيبولت الى صقلية وبها توفي في ٥ كانون الاول من السنة المذكورة . واذ لم يكن له ولد قام بالامر بعده أخوه هنري وتزوج هنري بلانش ابنة روبرت كونت ارتوا وتوفي في ٢٧ اغستوس سنة ١١٧٤ عن بنت واحدة اسمها السونة جويانه . هي التي ورثت ملك نافار وحيث كانت عند وفاة والدها في الثالثة من عمرها تولت المملكة والدتها بالكفالة الى أن ترشد الصغيرة وفي تلك الاثناء أخذ الملوك من الجوار يتسابقون في مرضاة كافلة الملك طامحا كل منهم الى التزوج بالفتاة أو تزويج أحد أولاده بها وانقسم أهالي نافار الى شطرين منهم من يميل الى ملك قشتالي ومنهم الى ملك أراغوني ولم تلبث الفتنة أن اتقدت بين الفئتين فعمت البلاد واضطرت بلانش أن تلتجيء الى ملك فرنسا فيليب الملقب بالجريء فانحازت الى

قصره بابنتها وأرسل الملك من خواصه (أوستاش دوبومارشه) والياً على بلاد (نافار) فلم تمض مدة حتى قامت الفئة القشتالية هناك على العامل الفرنسي فحصروه في القلعة من (بمبلونة) حاضرة الملك ووصل الصريخ الى الملك فيليب فسرح جيشاً الى بمبلونة اقتص من رؤساء الثورة بعد أن أفرج عن العامل . هذا ولما بلغت الملكة (جويانة) النافارية سن البلوغ تزوجت (بفيليب لوبل) ملك فرنسا وولد لجويانة (لويس هوتن) ملك فرنسا وعند وفاة هذا الملك بويعت ابنته ملكة على نافار كما بويع أخوه فيليب الطويل ملكاً على فرنسا وتزوجت ابنته هذه وكان اسمها جويانة أيضا بفيليب كونت افرو من آل كابت وتناسلوا في ملك نافار وكان منهم شارل الرديء الذي احترق في فراشه من شمعة أوقدت بجانبه واتصل لهيبها بالفراش وابنه شارل النبيل الذي مات عن ابنة واحدة اتصل الملك منها الى آل اراغون فوقع النزاع عليه بين أب وابنه وذلك نحو السنة ١٤٥١

ثم مملكة أراغون حذاء جبال البيرانة اعتمدت في أوائل أمرها على لصوصية البحر واشتهر بين أمرائها (جقوم) هو الذي استولى على جزائر الباليار : ميورقة ومينورقة ويابسة ، وقيل ان السبب في الاستيلاء عليها تعرض اهل ميورقة لمراكب الاسبانيول ويفهم من قول المخزومي في تاريخ ميورقة ان سبب اخذها من المسلمين ان أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى احتاج الى الخشب فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية الى يابسة باخذه فعلم بذلك والي طرطوشة فجهز اليها من أخذها فترصد محمد بعض مراكبهم وأخذها فأجمع الروم على قتاله في عشرين ألفا وجهزوا ستة عشر ألفا في البحر وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالي صاحب

شرطته ان يأتيه باربعة من كبراء المصر فضرب أعناقهم فاجتمعت الرعية الى أبي حفص بن سيري واخبروه بما نزل وعزوه فيمن قتل، وقالوا له هذا امر لا يطاق. وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر صاحب شرطته باحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم واذا بفارس على هيئة النذير دخل الى الوالي وأخبره بان الروم قد أقبلت وانه عد فوق الاربعين من القلوع وما فرغ من اعلامه حتى ورد آخر وقال إن اسطول العدو قد تظاهر وانه عدّ سبعين شراعا فصح الامر عند الوالي وأطلقهم واستنفرهم ثم ورد الخبر بان العدو قرب من البلد فانهم عدوا مائة وخمسين قلعا فاخرج الوالي جماعة تمنعهم من النزول . وفي الثامن عشر من شوال وقع المصاف وانهزم المسلمون وارتحل النصارى الى المدينة ونزلوا منها على الحربية الحزنيّة من جهة باب الكحل ولما رأى ابن سيري ان العدو قد استولى على البلد خرج الى البادية ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديداً ولما كان يوم الاحد أُخذ البلد وقتل فيه أربعة وعشرون ألفا وأُخذ الوالي وعذّب وعاش خمسة واربعين يوماً تحت العذاب ومات وأما ابن سيري فتحصن بالجبال وجمع حوله ستة عشر الفا ومازال يقاتل حتى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة وجده من آل جبلة ابن الايهم الغساني واما الحصون فأُخذت في آخر رجب من تلك السنة وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين ببلاد الاسلام انتهى ماذكره ابن عميرة المخزومي ملخصا

وبعد استيلاء القوم على ميورقة ثار بمنورقة الجواد العادل العالم

الذي أُلفت باسمه التآليف الشهيرة ابو عثمان سعيد بن حكم القرشي ثم تصالح مع النصارى على ضريبة معلومة وضبط الجزيرة احسن ضبط وبقيت مينورقة مدة في يد المغاربة بعد أختها ميورقة

وفي مدة جقوم هذا أُخذت بلنسية من المسلمين وقد سبق ذكرها وبعد ذلك بمدة اجتمع مسلمو مملكة اراغون وثاروا واثخنوا في عدوهم الا ان جقوم طردهم أخيراً فانحاز اكثرهم الى مملكة ابن الاحمر وأجاز بعضهم الى افريقية وقد اشتهر جقوم هذا بحب الطلاق والزواج واتخاذ الحظايا والتهتك في المنكر . بينما كان مطران جيرونه يوبخه على استهتاره مرة استشاط منه غضباً وأمر بقطع لسانه واغتصب مرة امرأة احد رعيته وكانت وفاته في ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦ وخلفه الدون بطره في مدته انضمت مملكة صقلية الى مملكة أراغون وطرد بطره منها شارل دانجو أخا مارلويس ملك فرنسا بالرغم من ارادة البابا وقصدوا استعادتها فانهزموا فأصدر البابا حرماً على بطره وأخيراً قام البابا بمملكته شارل دوفالوا ابن فيليب الجريء ملك فرنسا فزحف فيليب بعساكره على مملكة أراغون وكان له من جقوم اخي بطره نفسه عضد لإحنة كانت مستحكمة بين الاخوين فانهزم جند بطره واستولى الفرنسيس على جيرونه الا ان العلة تفشت فيهم من رائحة جثث القتلى فهلك منهم خلق كثير وأُصيب فيليب الملك نفسه وحمل ومات في الطريق بعد انصراف الفرنسيس استعاد بطره جيرونه وحول نظره صوب أخيه جقوم الذي ضافر عليه الغريب فارسل ولده الفونس الى ميورقة باسطول ليأخذها من يده وتوفي بطره وابنه في حصارها لم تقم حتى دخلت في حوزته وقام بأمر اراغون بعد ابيه

ومات هذا وخلفه اخوه جقوم ملك صقلية فترك أمورها لوالدته وجاء الى اراغون مستلما زمامها وأعادميورقة علي عمه جقوم ثم تولى صقلية اخوه فريدريك وتزوج بابنة شارل دو نابل وولد له منها خمسة ذكور جقوم والفونس وجويان وبطره وراءون وخطب لابنه البكر جقوم الدونة ليونوره القشتالية وبينما كانوا يعقدون له عليها اذعدل عن الزواج زعما أن أباه أجبره عليه وانه يريد الترهب والتبتل واسقط حقه من وراثة الملك ودخل في سلك الرهبان وقضي الناس من ذلك العجب لما كان عليه من الانغماس في اللذات والاسترسال الى الشهوات فولي العهد أخوه الفونس وصار جويان أخوهما مطرانا على طليطلة وأخذ كل من الاخوين الباقيين اقطاعا باسمه

ثم مات جقوم الثاني في برشلونة في ٢ نوفمبر سنة ١٣٢٧ وخلفه ولي عهده الفونس الرابع وتزوج هذا مرتين وولده من احدى امرأتيه الدون بطره ولي عهده فلما مات الفونس سنة ١٣٣٦ وقع النزاع بين بطره وبين خالته اخت ملك قشتالة وادعت أنه يريد انتزاع أملاك اخوته أولادها فكاد الخلاف يتسع بين قشتالة وأراغون لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدسة ضد السلطان أبي الحسن ابن مرين صاحب المغرب وبعد وقعة طريف وانتفاض بطره من عوارض تلك الحرب أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره جقوم قيل ان السبب في ذلك أن الدون بطره كان متوجها الى افينيون لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكبا بجانبه فلما صارا على مقربة من البلدة وقد حفت بهما حاشيتهما رأى سائس حصان الدون جقوم أن سائس حصان الدون بطره يحث مسير حصان مولاه فاطمه ليتئد ويمكنه اللحاق به فأبصر ذلك الملك واغتاظ من ابن عمه لسكوته واغضائه على حركة

سائه فوقرت في صدره وانتهز الفرصة لتجريده من مملكته ميورقة وذلك انه وقع خلف بين صاحب جزر الباليار وبين ملك فرنسا من أجل مونبليه وزحفت عساكر فرنسا لاخذها فبعث جقوم الى ابن عمه بالصريخ فلم يجبه ثم نقم عليه اموراً منها إنه يحاول الاستقلال وانه ضرب السكة باسمهِ وأعلن خلعه من ولاية الجزر فاستغاث هذا بالبابا فارسله البابا الى برشلونة نزيلا عند بطره ومستميحا عفوه فعند ماحصل عنده ضبط عليه امرأته التي هي اخته وسرحه فلحق جقوم بميورقة وقد نادى بحرب بطره والانفصال عنه فاسترجم بطره اسطوله من الجزيرة حيث كان في رباط المسلمين ونزل به على ميورقة ففر جقوم الى فرنسا وبقي في نزاع مع ابن عمه حتى باع أخيراً بعض أملاكه من ملك فرنسا وجهز بثمنها ثلاثة آلاف ماش وثلثمائة فارس وركب بها البحر طامعا في الاستيلاء على جزيرته ميورقة فقابله واليها بجيوش أوفر مراراً من قوته وغلبه فهلك في القتال ولم تنته مسألة بطره مع جقوم ابن عمه حتي ثارت مسألة اخرى مع أخيه جقوم بسبب انتقال الملك لان بطره كان يريد العهد لابنته لانه لم يولد له ذكور ولان أخاه كان يطالب بهذا الحق فانشقت المملكة بهذا السبب الى قسمين وانتشبت الحرب بينهما وقام جمهور من الرؤساء على الملك وفي اثنائها توفى أخوه فاتهم بكونه سمه فازدادت الثورة وزحف الملك الى الرعية الثائرة فجرت عدة مواقع وسالت الدماء الغزيرة وغدر بطره بالرؤساء الذين استسلموا اليه وارهق مدن مملكته حصراً وعسراً الى أن تمت له الغلبة ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده رغم ارادة بطره ملك قشتالة انتشبت الحرب بينهما فانضم الى أراغون جميع الامراء

والرؤساء الذين كان بطره القشتالي قد آسفهم وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتى اصطلمت الثانية ثم الثالثة

وهلك بطره الاراغوني سنة ١٣٨٧ وملك نيفا وخمسين سنة وكان سفاكا للدماء غدر بأهله واخوته وأهرق سيولا من الدم حتى لقب بالخنجري وتزوج باربع نساء الاولى ابنة ملك نافار دونه ماريه ماتت سنة ١٣٤٦ والثانية دونة ليونيورة ابنة ملك البرتغال وماتت هذه سنة ١٣٤٨ بالطاعون الذي عم جنوبي اوربا وهو الذي يشير اليه ابن خلدون ويسمونه بالطاعون الجارف خرب كثيراً من ديار الشرق والغرب ثم اقترن الدون بطره بليونوره اخت ملك صقلية وماتت سنة ١٣٧٤ وقد ولدت منه ثلاثة ذكور وابنة واحدة فاقترن بامرأته الرابعة سيبيلا فورسيا أرملة شهيرة بالجمال وكان أوانئذ قد بلغ الحادية والستين فملكت قلبه واعطاها قياده واقطعها من املاك التاج الملكي فاعترض ولي عهده جويان من امرأته الثالثة ووقع النزاع وانتهى بتحكيم أحد القضاة

وفي أواخر مدة هذا الملك وقع النزاع الشهير بين البابا اوربان السادس والبابا كليمان السابع وأخذ كل منهما يحرم الآخر او انقسمت ممالك اوربا في شأنهما الى شطرين فان فرنسا وقشتالة ونافار ونابولي قامت بدعوة كليمان وانكلتره والبرتغال وأراغون قامت بدعوة اوربان إلا أن أراغون مالت فيما بعد الى كليمان

وبعد وفاة بطره قام ابنه جويان الاول وفي الحال تقبض على امرأة أبيه سيبيليا وعلى أخيها وأعوانها وابتزها الاملاك التي كان أبوه وهبها اياها وسلمها الى امرأته دونه فيولانته واعتنى بتزويج ابن أخيه دون مارتين

بابنة عمه فريدريك ملك صقلية التي كان آل اليها ارث تلك الامارة بعد وفاة والدها وكان جويان مولعا بالشعر والموسيقي والصيد مهملا الجد من الامور حتى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ومجتمع مغنين لايسمع فيه الا ايقاع أو انشاد فقام اعيان البلاد وطلبوا منه اقصاء حظيته دونة كاروزه لانهامهم اياها بترغيبه فيما هو فيه من العبث فانقاد الى ارادتهم خوف الانتقاض

وتوفى في الصيد بكبوة جواد تردى به في غابة وهو يطلب ذئبا نخلفه أخوه الدون مرتين اد لم يعش له غلام من صلبه فنازعه في الملك آل فواكس فغلبهم عليه واستوثق له الامر وتزوج هذا بالدونة ماريه كما تقدم فولد له منها أربعة أولاد توفى منهم ثلاثة دون البلوغ وبقي الواحد وهو الدون مارتين متوج صقلية فمات هذا في غزاة بسردانية عام ١٤٠٩ ولم يعش له ولد على كونه تزوج مرتين بل كان له أولاد من حظاياه فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور من صلب البيت المالك وتنازع حقوق الوراثة خمسة امراء: الدون فادويك ولد مارتين من احدى حظاياه وكونت اورجل ابن عم مارتين في الدرجة الخامسة أيضا ودوق كالابره ابن الدونة فيولانته بنت جويان الاول ثم فردينا ند القشتالي الملقب عندهم بالرشيد كان ابن جويان الاول القشتالي والدونة ليونرة اخت الدون مارتين ملك صقلية الذي انقطعت به السلالة وبذلك فهو ابن اخته وكان أقرب المتنازعين الى بلوغ الغاية فردينا ند المذكور وكونت اورجل وربما كان لهذا في مملكة أراغون الشيعة الكبرى الا انه لم يحسن طلب حقه وجمع العساكر يعيثون في البلاد مما امال عنه القلوب الى

فانتخبوه ملكا في ٣ ايلول سنة ١٤١٢ وتقبض على كونت أورجل وسجنه واستتب له الامر الا انه مات في سنة ١٤١٦ وخلفه بكر اولاده الفونس الخامس الذي افتتح نابولي ثم مات هذا (١٤٥٨) عن غير ولد فانتقل الملك الى اخيه جويان الذي كان تزوج بابنة شارل النبيل وبواسطتها ملك بلاد نافار وولد لهذا فرديناند الملقب بالكاثوليكي فملك اراغون ونافار وتزوج بايزابلا ملكة قشتالة فصارت الممالك الثلاث واحدة عادت في حالة من اجتماع الكلمة ووفرة العديد والمادة بحيث قضت على الملك الاخير الباقي كان بالاندلس للمسلمين

أما مملكة قشتالة أجل النصرانية في الاندلس فان رافع منارها فرديناند الاول الملقب بالكبير الذي انتزع كثيراً من أملاك المسلمين وكان معاصراً لابن عباد وقسم ممالكه بين أولاده الثلاثة فاعطى شانجه البحر مملكة قشتالة والفونس اواذفنش مملكة ليوق وغارسيا الصغير مملكة غاليسيا اوجيليقية الا أن الفونس تمكن في الآخر من ضم الجميع الى ملكه وصار خلفاً لابيه وهو الذي استولى على طليطلة قلب اسبانية وجعلها مقر سلطانه وفي أيامه ظهر السيد بطل الاسبانيول الذي تنسب الى ذريته عروس رواية شاتوبريان التي ذيلنا عليها هذا التاريخ المختصر ولما كان التناسب الذي هو شرط الحسن يقتضي الافادة عن آل بيفار أجداد ادماء بمثل ما أفدنا عن آل سراج أجداد ابن حامد رأينا أن نلمع الى شيء من أخبار السيد حسبما ذكر المحققون

فنقول: هو السيد لذريق دياز بن دياغو بن لاين نوناز بن لاين كالفو من كبار قضاة قشتالة تزوج السيد بشيمانة وولد دياغو لذريق الذي مات

في حياة والده وابنتين احداهما تزوجت بابن ملك نافار والاخرى بابن ملك أراغون

وشيمانة هذه هي ابنة الكونت لوزانو دوغورماز من فحول قواد الملك فردبناند وسبب اقتران السيد بها أن والدها كان قد صفع دياغو والد السيد وهو بالغ من الكبر عتيا فلم يمكنه أخذ ثاره بيده لكن ولده لذريق أخذ السيف ودعا غورماز الى البراز فقتله ولما لم يكن في قتل البراز جناح جاءت ابنته شيمانة تشكو الى الملك فردیناند كون لذريق يأتي كل يوم بازه على يده فيطلقه في بيت حمامها فيفتك بالحمام، ويذيق فراخها كؤوس الحمام، وقد بعثت تقول له في ذلك فجاوبها بالوعيد فالملك الذي يسمح بقهر اليتيم ولا يقتص ممن اعتدى عليه لا يليق أن يسمى ملكا. فتحير فردیناند في أمره لان لذريق كان أقوى عضد له في مواقفه مع المسلمين، والاسبانيول يزعمون أن السيد أسر خمسة من ملوك الاسلام وبعد أن قادهم بخزائم الاستكانة من عليهم باطلاق سبيلهم ودعوه سيدهم فلم يجد فردیناند مخرجا من الامر الا بتزويج السيد بشيمانة

وأما نسبة السيد الى بيفار فلولادته في ذلك القصر، وهي كما لا يخفى عادة الافرنج في ألقاب الشرف. ومن شهير أفعال السيد انه لما اصطلت الحرب بين قشتالة وأراغون لعهد فردیناند وقع الاتفاق بين هذا الملك وبين أخيه على تحكيم السيف وابراز قرنين بالنيابة عنهما من ابطالهما واعطاء الحق لمن منهما حقت له الغلبة فكان السيد نائباً عن ملك قشتالة وكان مارتين غوماز نائبا عن صاحب أراغون أخيه فعند اللقاء فتك السيد بخصمه وبرد الحق لفردیناند دون أخيه وفي هاتيك الايام كان هنري

الثاني امبراطوراً لالمانيا فسمت نفسه الى ادخال اسبانية في طاعته لكونها من ولايات سلطنة المغرب ويقال أن البابا فيكتور الثاني مالاه على مقصده فلما أبلغ ذلك الامبراطور والبابا الى فرديناند مال الى الخضوع خوفا منهما لكن السيد عارض في الامر وجمع عسكراً وزحف به الى طلوزة قاصداً لقاء العدو فلما علم البابا به خاف العواقب وصرف امبراطور المانيا عن دعواه

ولما مات فرديناند لم يكن لشانجه ولده ساعد أشد من السيد وهو الذي نصره في وقعة غولبيجاره وكان بجانبه عند ما قتل في زامورة وفي مدة الفونس أخيه انصرف السيد الى مرابطة المغاربة ووالى عليهم الهزائم حتى لقب بالكمبيادور ومعناه بلغتهم قائد المعسكر الا أن ماحازه من الشهرة أثار عليه حسد الاقران وضغائن الانظار فانقبض بنفسه عن الحضرة وسكن البادية وبلغه اثناء ذلك أن مسلمي سرقسطة والثغر الاعلى اجتاحوا أراضي قشتالة واثخنوا في الاسبانيول فنهد اليهم وساق منهم سبعة آلاف أسير واكتسح بسائط طليطلة وكانت في يد المأمون صاحبها فشكا الى الاذفونش خرق الصلح بدون موجب فاستشار الملك خاصته واجمعوا على نفي السيد وضربوا له أمداً تسعة أيام لاجل الخروج فأطاع ولكنه لم يكن يملك من المال مايكفي لميرة الثلاثمائة فارس التي هي في صحبته فاعمل في الحيلة وارسل صندوقين مفعمين رملا الى بعض اليهود مؤكداً لهما أنهما مملوآن حليا وأخذ عليهما مبلغامن الذهب ثم وفى دينه بعد ذلك بما حازه من الغنائم اثناء غزواته في بلاد الاسلام وبقي مدة بعيداً عن الحضرة الى أن رضي عنه الملك وأعاده وأذن له في الغزو وحده فابتنى لنفسه قصراً بقرب أراغوز لم يزل معروفا باسم (صخرة

السيد) الى الآن وجعلها لنفسه وكراً يأوي اليه وينطلق منه للغزو . وكان أكثر مايغزو مملكة ابن عباد لكونه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين الى الاندلس على أنه لما أراد ابن تاشفين استخلاص ملك اشبيلية من يد ابن عباد واستنجد الطاغية أرسل اليه عشرين الفاً قيل أنه عقد عليهم للسيد لكن لم ينالوا له وطراً اذ كان في المرابطين سادات بدل السيد ثم زحف السيد بعساكره نحو بلنسية وضيق عليها الحصار وكان فيها القاضي أحمد ابن جعفر المعافرى بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنج ومنهم لافاله والذي في كتب العرب أن الذي كان فيها هو القاضي أبو احمد بن حجاف واتفقت روايات العرب والافرنج أن لذريق دخلها صلحا وعاهد القاضي لكنه لم ينشب أن احرقه بالنار بعد الاستيلاء قيل لكون السيد طلب منه ان يدله على ذخيرة كانت للقادر بن ذى النون فاقسم انها ليست عنده فاحرقه وعاث في بلنسية . وفي ذلك يقول : ابن خفاجة الشاعر المشهور:

عاثت بساحتكِ الظبا يا دارُ ومحا محاسنك البلا والنار
فاذا تردد في جنابكِ ناظرٌ طال اعتبارٌ فيكِ واستعبارُ
ارض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار

وورد في نفح الطيب ما نصه بالحرف «« وكان استيلاء القنبطور (تحريف القمبدور او الكمبدور لقب السيد) سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل في التي قبلها وبه جزم ابن الابار قائلا فتم حصار القنبطور اياها عشرين شهراً وذكر انه دخلها صلحا وقال غيره انه دخلها وحرقها وعاث فيها وممن أحرق فيها الاديب أبو جعفر بن البناء الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعفا

عنه فوجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الامير أبامحمد مرزلي ففتحها الله على يديه سنة خمس وتسعين واربعمائة وتوالى عليها امراء الملثمين ،، انتهى

وفي حرق قاضي بلنسية قد أتى لافاله بجميع أصناف المعاذير تغطية لعمل القنبطور واتهم القاضي بالخيانة وأنكر ان يكون السيد فعل ذلك بسبب الذخيرة بل لمكيدة لابد ان يكون اطلع له عليها ورمى مؤرخي العرب بتشنيع سيرة السيد تعصبا منهم وكراهية لاسمه لما كان عليه من الغيرة على النصرانية

وذهب غير واحد من المؤرخين الاوربيين الى غير ذلك ومنهم ستانلي لانبول الانكليزي وزعموا ان مسألة فضائل السيد من وضع قصّاصي الاسبانيول وهاك بعض ما يقوله المؤرخ المذكور مما يرتبط بهذا المقام وهو

،، ان من الغلط البين والخطأ المتعين ان يظن ان مقاتلة قشتالة وليون كانوا على مايرام تخييله من الشهامة والشرف وآداب الفروسية وان يتصور كونهم على شيء من دماثة الاخلاق والتهذيب والصحيح ان مسيحيي الجهة الشمالية كانوا على نقيض ماكان عليه اقرانهم المغاربة فان العرب الاجلاف لاول نزولهم باسبانية قد تهذبوا وتمدنوا بالاندلس فيما بعد وباستعدادهم الفطري مالوا الى التأنق والرفاهية والتحقق بالحضارة العالية ،، وعكفوا على طلب العلم وقرض الشعر وحفظ الادب ، فكانت أذواقهم في أسمى مكانات السلامة ، وإحساساتهم في أقصي مظان الرقة كما هو شأن من تحقق بالمدنية وذاق حسن المعيشة وغلب عليهم التأمل والشعر ، فكانوا يؤدون من الجوائز على منظومة واحدة ما يكفي لميرة كتيبة

كاملة ولم يكن الامير الظالم منهم والملك الغاشم السفاح يأنف من الآداب والمعارف، فالفصاحة والموسيقى وسائر فروع العلم والادب من الامور الطبيعية عند هذه الامة، وأوتوا ملكة الانتقاد والتمييز ولطف الذوق في نقد اجزاء الكلام وتفاصيل القول مما نعرفه في زماننا لأمة الفرنسيس

وأما نصارى الشمال فعلى خلاف ذلك كله فانهم وان كانوا اسلاف أمة قديمة فحالتهم حالة أمة حادثة ، اجلاف جفاة أجانب عن العلم منقطعو السبب في العرفان، نعم كان عند بعض أمرائهم مسكة من التربية لكنهم في هذا الامر مساكين في جانب أمراء العرب، وانما كان المسيحيون هنالك أنجاد حرب واحلاس نزال يحبون الهيجاء مثل أقرانهم المسلمين لكنهم أقوم منهم عليها وأصبر على تحمل مشاقها، ولم يكن عندهم ما تصوره لنا هذه الخيالات الشعرية من اخلاق الفروسية بل انما كانوا اضرابي سيف وانتهى الحديث، وقد يحملهم فقرهم على المحاربة بالاجرة، وتقديم من يزيدلهم على غيره في الخدمة، وقد رأينا كيف ان الوزير المنصور استخدم جمًّا منهم في حرب ليون وفتح صانيتاغو . وتاريخ شمالي اسبانية مملوء بشواهد ذلك من استخدام أمراء المسلمين لفرسان النصارى في الجيش

ومما يؤيد قول هذا المؤرخ الانكليزي ما ورد في تاريخ المنصور ابن أبي عامر من انه في انكفائه عن باب شنت ياقب بتلك الغزوة التي لم يبلغ مثلها أحد وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بيليقية من افتتاحه فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على اقدارهم انتهى ويظهر انهم لم يقتصروا في الخدمة على ملوك الاندلس بل ربما أجازوا الى المغرب أجناداً عند

ملوكه وابن خلدون يروي انه كان يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان قدأ استخدم طائفة منهم مستكثراً بهم معتداً بمكانهم مباهياً بهم في المواقف والمشاهد

ولنعد الى كلام ستانلي لانبول قال ,, لكن لم يوجد من هؤلاء من بلغ شهرة السيد بطل اسبانية، وإسمه لذريق دياز البيفاري ولقب بالسيد لكون ذلك هو اللقب الذي كان يدعوه به المغاربة وهو مخفف عن سيد بالتشديد ،،(١) الى أن قال ,, وهو محارب شهير كان يتقدم الصفوف مثل جليات أمام جيوش بني اسرائيل ولم يعرف أحد طار له من الشهرة في الغزو أكثر من ,, سيدي القمبدور ،، كما كانوا يدعونه كما أنه ليس من السهل أن يقرر الانسان الحقيقة ويمحص الواقع مما يحاط به اسم السيد من الوقائع لان مؤرخي النصارى يقولون أنه يستحيل الاحاطة بوصفه وان الاناشيد الاسبانيولية تتوج السيد بالفضائل والكمالات وتنسى أن تلك الفضائل كانت مجهولة أو غير معتبرة عند نفس السيد ومعاصريه وكتاب العرب الذين هم غالبا أحسن انصافا للحقوق تجدهم شددوا الحكم على ذلك النصراني الذي أذاق مسلمي بلنسية ما أذاقهم من الوبال ؛؛ قلت وأي تشديد فانك ترى كيف جاء اسم القنبطور مردوفا باللعنة في نفح الطيب وبأي شعر نظم ابن خفاجة نثر عمران تلك البلدة

قال ستانلي لان بول : ,, ونحن في عصر انتقاد مضطرون الى طرح المفرح من أقاصيص مؤرخينا التي تليق بالاحداث والسيد لم يستثن من الانتقاد بل أن أحد المستشرقين الراسخين ألف عنه كتابا مستقلا قرر

(١) بل هو على أصله فالسيد بكسر السين وسكون الياء الذئب والتشبيه به عند العرب ذم لانه مفترس غادر حقير بخلاف التشبيه بالاسد فانه مدح

فيه أن السيد لم يكن ذلك البطل الذي قدر أنه كان بل رجلا غدارا آسفا كا
نهابا فتاكا ناكث العهد ناقض الزمام . كذلك الاستاذ دوزي (مؤرخ
اسبانية الجليل) ذهب الى أن قصة السيد هذه اختراعيـة وكتب عن
السيد الحقيقي نقيض ما ورد في تلك الاقاصيص ، الى أن قال : ,,وغير
صحيح أنه كان حامي الدين فانه قاتل في مصاف المسلمين كما قاتل في مصاف
النصارى ،، وذكر أنه استولى على بلنسية بسبب التحريك والفرقة باعانة
ملك سرقسطة ودخلها صلحا . وهذا طبق ما ذكر مؤرخو العرب من أن
الذي أنهضه هو يوسف بن احمد بن هود صاحب سرقسطة

وأما لافاله فيقول في شأنه : أنه هو بطل الاسبانيول المقدم حبيب الشعب
الذي يحلونه بجميع فضائل الابطال ، يتغنون بوقائعه في الاشعار والازجال فاذا
شاء المؤرخ معرفة الحقيقة من الوهم أشكل عليه الامر بما يعرض له من
الاختلاط فقد يقع أن المؤرخ لاجل الخروج من حيرته ينتهي الى انكار
وجود المؤرخ عنه أصلا كما أنكر ماسدو وجود السيد قمبدور ولم يبلغ
الشك من غيره درجة انكار وجوده بل أنكروا عليه المأثور من الفضائل
وتخيلوه زعيم أشقياء ورئيس عصابة شر بعـد أن جعلته القصص مثالا
تاما للفضل والشهامة والنبل .

فأنت تجد أن السيد كـكثير من الرجال الذين ولعت بذكرهم العامة
منهم من جعله سيداً غطريفاً بالتشديد ، ومنهم من جعله سيداً عملساً
بالتخفيف ، ومات السيد سنة ١٠٩٩ وهي التي فتح الصليبيـة فيها بيت
المقدس وبعد موته عادت بلنسية الى الاسلام وبقيت زمانا حتى استولى
عليها جقوم كما ذكرنا سابقا وحملت جثة السيد محنطة على جواده المشهور

وبيده أحد سيفيه المسمى تيزونة وقدم نعشه في الجمع كما كان هو مقدما في الحروب ودفن في كنيسة مار بتارس دوكردنه وماتت شيمانة امرأته بعده بسنتين وبقيت رايته وسيوفه في ذلك الدير يحملها ملوك قشتالة في حروبهم تيمنا بالنصر ورواية كورنيل المسماه بالسيد أشهر من قفا نبك

هذا ما آثرنا استيفاءه من خبر السيد قاداءه محبوبة ابن حامد السراجي في قصة شاتوبريان الخيالية وذلك بعد تمحيص الاقوال وانتخال الآراء

ولنعد الى ذكر مملكة قشتالة فنقول : ان الاذفنش أو الفونس السادس استفحل أمره الى أن لقب بامبراطور اسبانية لكن المرابطين هزموه مرارا وفي المرة الاخيرة انهزمت جيوشه في وقعة اقليش وقتل ولده فمات من الغم وترك الملك لابنته أوراك فتزوجت بالفونس الاول ملك أراغون ونافار وكادت تتحد الممالك الثلاث الا أن أوراك أرادت الاستقلال بملك قشتالة فأساءت معاملة زوجها ووقع الشقاق بينهما فحبسها في قصر قسطلار فأفلتت وجمعت عساكرها ووقعت الحرب بين اراغون وقشتالة ودخل البابا في الصلح فلم ينته الخلاف الا بفسخ الزواج بين الفونس وامرأته بعد أن أهرج خصامهما البلاد ولكن لم يستوثق الامر لاوراك في مملكتها بما كانت العامة نقمت عليها من مجاهرتها بالخلاعة ، وتجريرها أذيال العهر ، وقد اشتهر بين عشاقها الدون غونسالث دولاره والدون غوميز دوكاندسبيناوحكي أن لها من هذا الاخيرولدا اسمه فرناندو ولقبه هرتادو ويقال أن آل هرتادو الاعيان ينتسبون اليه وكانت قد تزوجت في الاول بالكونت ريموند الجيليقي فولد له منها الفونس السابع فلما بلغ أشده وشاهد أحوال أمه ثار عليها وشاطرها

الملك وانحازت اليه كثير من البلاد ولما ماتت في سنة ١١٢٦ استقل بملك قشتالة واستفحل أمره وأخذ قلعة رباح من المسلمين وهو الذي تناول منهم المرية وبقيت في حوزة الاسبانيول مدة ثم استرجعها المسلمون الى أن انطوت مع ما انطوى من بساط الاندلس وتلقب هذا الملك أيضا بأمبراطور اسبانية الا أن دولة بني عبد المؤمن ظهرت في أيامه فأصابه من الموحدين ما أصاب جده من المرابطين ومات غما وقسم مملكته بين ولديه الواحد على ليون والثاني على قشتالة فبقيت هذه القسمة ثلاثا وستين سنة فتولى شانجه البكر قشتالة وفرديناند الثاني ليون وجليقية وخلف شانجه ابنه الفونس الثامن وهو في الرابعة من عمره فكفله الدون دوغاسترو الى أن بلغ سن الرشد وخلف فرديناند ابنه الفونس التاسع وفي تلك المدة زحف الموحدون الى اسبانية وهزموا الفونس الثامن وجيوش الاسبانيول في وقعة الارك الشهيرة التي روى مؤرخو الافرنج أنه هلك فيها ثلاثون ألفا من المسيحيين أكثرهم من فرسان نظام قلعة رباح وماريعقوب ومار يليان وبعد النصرة جيء بألوف من الاسارى الى يعقوب المنصور فمنّ باطلاقهم وترتب على هذه الوقعة استرجاع المسلمين كثيراً من المواقع والمدن ثم انعقدت الموادعة لعشر سنين في أثنائها تقاتل الفونس الثامن مع ابن عمه ملك ليون فأجمع رأي الاساقفة على تزويج ملك ليون بابنة ملك قشتالة تأييداً للصلح على ما بينهما من درجة القرابة الحائلة دون ذلك ومع كون ملك ليون تزوج بابنة ملك برتغال ففسخت الكنيسه الزواج لمثل تلك العلة إلا ان الزواج الثاني امضى في سبيله بالرغم من حرم الدين، وجاء عنه الملك فرديناند المعدود في القديسين، ومن

غريب الاتفاق ان البنت الثانية لالفونس الثامن ولدت قديسا ايضا هو مار لويس فيكون الاذفونش المذكور جدا لقديسين من جهة الدم

وفي ايام الفونس ايضا حصلت هزيمة العقاب على المسلمين وقتل منهم مائتا الف وفر الناصر محمد امير الموحدين شريداً وقد بالغ بعض مؤرخي العرب في عدد قتلى تلك المعركة فقالوا : انه لم ينج من الستمائة الف التي جمعها الناصر إلا الف فقط ونسبوا ذلك الى سوء تدبير الناصر وقتله الرجال العارفين بقتال الافرنج وجعل بعض محققي الافرنج السبب في هذه الهزيمة البعيدة عن التصديق التفاوت العظيم في السلاح بين الفريقين لان اكثر المسلمين كانوا كأنهم بدون سلاح والجلالقة كان معظمهم تحت المغافر والدروع وقيل في كتاب الفونس الى البابا ان عدد المسيحيين الذين جراحاتهم تنذر بالخطر على اثر الواقعة هم مائتان وخمسة وعشرون فقط وقد انتقد كثير من المدققين هذا القول ونسبوه الى ضعف ملكة النقد في ذلك العصر ووافق يوم العقاب الرابع عشر من صفر سنة ٦٠٩ وفق ١٦ تموز سنة ١٢١٢ واشترك فيه جميع ملوك الاسبانيول ، لذلك تقاسموا اسلاب المسلمين ووسع كل منهم بسطة امارته في املاكهم

ولما مات ملك ليون قام بالامر بعده ابنه فرديناند القديس ولما كانت امه ابنة ملك قشتالة وكان أخوها الدون انريك قد مات يافعا انحصر ارث التاجين في فرديناند على أنه في حياة أبيه كان قد وقع النزاع بينهما فلم يخل له الجو إلا بعد موته . وفي أيامه أخذت قرطبة من يد الاسلام وانتثر سلك الجزيرة من الوسط وتلا أخذ قرطبة ذهاب اشبيلية بعد

حصار سنتين وجلاء ثلثمائة الف من أهلها الى غرناطة وفي أيامه استفحل أمر محمد بن الاحمر وحالفه وأدى له الجزية وعصفت ريح قشتالة في اسبانية وعلت كلمة الصليب في تلك الارض لذلك جعل فرديناند في صف القديسين وعدّ من أعاظم الملوك إلا أنه مع تسميته قديسا روى عنه بعض مؤرخي الافرنجة أنه في سنة ١٢٣٦ بينما كان يحرق أحد الخوارج في الدين أخذ يؤرث النار بيده ويضع الحطب لعل ذلك من زيادة الحماسة والله أعلم

وخلف فرديناند ابنه الفونس الفلكي الملقب بالصابي وكان فريد وقته في الملوك في طلب العلم وألف في الفلك التآليف وكانت له فيها آراء نازعة الى مذاهب الاعصر التي بعده فقيل انهم بينما كانوا يتذاكرون امامه في الهيئة على المذهب الذي كان لعهده قال لهم ان كان ماتقولون حقا فياليت الله استشارني قبل ترتيب الافلاك فانكروها عليه وعدوها كفراً وانما كان يريد بها التهكم بآراء العلماء في ذلك العصر على أن مكانه في السياسة لم يكن في درجة مكانته في العلم فان مؤرخي الافرنج ينسبون اليه الاشتغال بالافلاك عن الاملاك ومعرفة مافي السماء مع جهل ما تحت قدميه

وفي أيامه استصرخ المسلمون يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب من بني مرين فأجاز الى الاندلس ونصر الاسلام نصراً عزيزاً وأثخن في بلاد العدو بما أعاد ذكر الايام الاول، وخيل رجوع الاموية والملثمين وتلك الدول، وهذا الملك الفونس هو الذي عقه ولده شانجه وطرده بمساعدة الرؤساء والاعيان فاستغاث بالمسلمين ونصروه وعززوه . عند وفاته كتب وصية حرمه فيها من ولاية عهده وعهد لالفونس حفيده ابن فرديناند بكره المتوفى وذلك لكونه عقه ونشز عليه وأثار الرؤساء والدون فيليب أخاه

الذي ذهب مع جماعة من الامراء الى غرناطة وأقاموا عند سلطانها لكن وصية الصابي لم تغن عن الملك شيئا فانه ما غمض عينيه حتى قام شانجه بالامر ونازعه أخوه جويان قليلا لكنه اضطر الى الاذعان وفي مدة شانجه أخذت طريف من يد ابن مرين فاعمل في الجهاد وسرّب البعوث لاسترجاعها وأجاز اليه الدون جويان أخو شانجه بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنجة وحضر حصار طريف مع المسلمين ومما يحكى في هذا الحصار والعهدة فيه على الراوي أن جويان جاء بأحد أولاد دوغوزمان قائد طريف من قبل شانجه ووقف به على شفير الخندق ونادى القائد قائلا له أن سلم البلد أولا قذفن بالولد فلم يجاوبه دوغوزمان ببنت شفة بل شهر سيفه ورمى به نحوه فرمى المحاصرون الولد في الحفرة. وهذه من حكايات الاسبانيول التي يطاولون بها الجميع في المفاخرة وعلى بقائها مثلا نادراً في الامانة والوفاء لو صحت فهي دون رواية السموآل الذي لم يسلم الدروع ولم يخفر ذمته ولو بهلاك ولده، فان كان عند الاسبانيول شيء من هذه الاخلاق العظيمة فهي من رشح التربية العربية في تلك البلاد كما يقرر ذلك أرباب التحقيق من مؤرخي اوربا انفسهم

ومات شانجه في ٢٥ نيسان سنة ١٢٥٩ تاركا الملك لولده فرديناند وهو شاب غض الاهاب فاستلم الزمام والملك جمرة تضطرم، والفتنة من كل ناحية تحتدم وفي أيامه ألغي نظام الفرسان الهيكليين وسببه أن هؤلاء الفرسان كانوا قد بلغوا درجة من القوة والثروة اعيت على سواهم، ووقفت بالاماني من دون مبلغهم فنفسوا عليهم امرهم، وأغروا بهم الملك وزينوا له ماشاؤا من خبرهم، حملا له على الايقاع بهم، وتذرعوا الى ذلك بمقالات لفقوها

عنهم ورموهم بالالحاد والتعطيل ، والناس فى امرهم بين مصدق ومكذب فصدرت الاوامر باستئصالهم فأحرق منهم جماعة ومات فرديناند هذا لسبع عشرة سنة من ولايته وقيل فى كيفية موته ان اميرين من جهة مارتوس اتهما ظلما بقتل جويان الونزو دو بونافيدز وهو منصرف من قصر الملك فقبض عليهما وامر بقتلهما بدون ان يسمع لهما دفاع فقيل انهما لما كانا يساقان الى الموت انظرا الملك ثلاثين يوما لكي يحضر فى محكمة الديان تعالى فلم يمض ثلاثون يوما إلا ووجد فرديناند ميتا فى فراشه بدون سابق علة ولا سبب سوى الاجل

وخلف فرديناند ابنه الفونس الحادي عشر وكان طفلا فقامت بكفالته امه ثم عماه دون بطره وجويان الى ان قتلا فى مرج غرناطة لعهد اسماعيل بن الاحمر وفى مدته اجاز ابو الحسن المريني ابنه ابا مالك برسم الجهاد فى الاندلس فقتل فى احدى الوقعات واستلحم من معه من المسلمين واستنفر ابوه السلطان ابو الحسن قبائل المغرب للاجازة وكانت المعركة البحرية بين اساطيل المسلمين والنصارى فى بحر الزقاق فتكسرت اساطيل الاسبانيول وقتل امير البحر جوفر تنوريو واستلحم اكثر مقاتلته وذلك فى ٣ اغستوس سنة ١٣١٠ فالتزم الفونس ان يهادن جميع ملوك اسبانيسة ويؤكد معهم السلم جمعا لكلمة النصرانية وحصن مواقعه وشحنها بالمقاتلة واجاز ابن مرين بجيوشه وغنم كثيراً من اسطول الاسبانيول الى ان كانت الوقعة المشئومة على المسلمين فى حصار طريف وقد بالغ الافرنج فى تقدير قتلاهم ذلك اليوم فقالوا مائتا الف وليس هذا من الغرابة بمكان تقدير قتلى الاسبانيول فيه بعشرين رجلا ووقعت قلعة ابن زيد وروطة وغيرها من

المواقع في ايدي الاسبانيول وانتصروا في بعض المواقع البحرية فجمع الفونس حشوده ونازل الجزيرة وسرب اليها ابن مرين المدد ويقال ان العرب استعملوا في الدفاع عنها الآلات النارية لاول مرة عرفها الاوربيون وقد مضي بعض وصف هذا الحصار الطويل في الشق المتعلق باخبار المغاربة من هذا الذيل وأفاضت كتب الافرنج في ذكر المعارك التي وقعت على أسوار الجزيرة والدفاع والهجوم مما استمر نحو عامين حتى بنى الفونس لجيشه معسكراً ثابتا جعل فيه الاسواق والدكاكين وقفل كثير من الملوك والامراء الذين معه الى بلادهم مثل كونت بيارن وقسطيلبون وكونت دربي وساليسبري من أمراء الانكليز ومات ملك نافار وآل الامر الى الصلح عن يد ابن الاحمر بتسليم الجزيرة وخروج أهلها بالامان وتسلمها الافرنج في ٢٧ آذار سنة ١٣٤٤ وانعقدت الهدنة لمدة عشر سنين غير انه لما رأى الفونس اشتغال أبي الحسن بن مرين ببعض الفتن في المغرب اهتبل هذه الفرة ونازل جبل الفتح لكنه مات في هذا الحصار لستة وعشرين من آذار سنة ١٣٥٠ وفق ١٦ المحرم سنة ٧٥١

وقام بالامر بعده الدون بطره الملقب بالعاتي ومن غريب الاتفاق ان اسبانية كان يليها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أربعة ملوك جائرين لكل منهم سيرة فريدة في بابها فكان الدون بطره الملقب بالخنجري في أراغون وشارل الملقب بالرديء في نافار والدون بطره الملقب بالقاسط في البرتغال والدون بطره هذا المعروف بالعاتي أو الجاسي بقشتالة وكان عند ارتقائه كرسي الملك لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره فعهد بتهذيبه الى دون جوان الونزو دو البوكرك الذي يقال انه كان تزلفا الى مرضاته

يزين له شهواته ويسوغ له أفعاله وكانت فاتحة أعماله قتله الدونة لبونورة دوغوزمان امرأة ابيه ثم قتل غارسيلازو من أمراء بورغوس لتهمته اياه بالانحياز الى بني لاره اعدائه وأمر بطرح جثته في الاسواق وعقب ذلك ضرب مالا معلوما على أهل بورغوس فمارض في دفعه بعض أعيانها فشنق منهم ثلاثة ثم غضب على الدون الونزو فرناندز كورونل لكونه زوج ابنته جويان دو لاسردا من اعداء الملك ولما نسب اليه أثناء مرض الفونس من القيام بدعوة جويان نونز دولاره فزحف اليه في مدنه اغيلار وبورغيليوس ومونتلفان وعاث فيها وقبض على الدون الونزو وقتله ثم اتخذ الملك الدونة ماريه دوباديليه حظيّة له وكان ذلك بتشويق كافله البوكرك الذي كان يرجو أن تكون عضداً له ويستولي بها على قلب الملك فخاب ظنه وناصبته العداوة وأراد ان يجعل لها ضرة وصار يسعى في تزويج الملك فخطب له بلانشة ابنة دوق دوبوربون من فرنسا وزفت اليه وكانت بارعة الجمال متوقدة الذهن في السادسة عشرة من السن فبعد يومين من دخوله بها تركها ورجع الى حظيته فخاف البوكرك ان يبطش به وفر الى البرتغال واجتهدت والدة الملك ان تحول ميله فلم تفلح في سعيها وأمر أخيراً باعتقال امرأته بلانشه في قصر اريفالو بدون ان يأذن لاحد أن يراها ثم اقترن بالدونة جويانة دوكاسترو وكانت على جانب من الحسن والذكاء واستفتى في فسخ نكاحه الاول الاساقفة وأفتوه على الرغم منهم لكنه لم تطل مدته أيضاً مع هذه العروس الجديدة وهجرها فارتحلت الى دويناس وولدت ابنها جويان وانضم أهلها بنو كاسترو الى الفئة الناقمة وعمت حركة الانتقاض مملكة قشتالة وثارت طليطلة وفي أثناء ذلك أغرى الملك طبيباً ايطاليا

فسمّ البوكرك مهذبه فازدادت الحركة وتقوت العصبة وحاول القبض على امرأته الاولى بلانشة فنصرها الشعب وانضمت والدته الى الثوار فقبضوا عليه أخيراً وحجروه وأبدوا عن دارهمن كانوا مائليه على مقاصده لكن لم تطل المدة ان نقسم رؤساء الثورة وفر الملك من معتقله واستنفر أشياعه وقاتل بهم أعداءه فظفر بهم واستمال جماعة منهم وأمر بضرب أعناق رؤساء طليطلة فقيل انه كان منهم رجل صائغ قد ذرّف على الثمانين وكان له ولد في سن الثمانية عشرة جاشت به الحمية على أبيه فالتمس ان يقتل مكان أبيه فلم تأخذ الملك رأفة بشبابه ولا بشيخوخة أبيه فقبل البدل وقتل الولد محل الوالد

وبعد ان استراح بطره من ثوار الداخل وشردهم الى فرنسا وغيرها نشب في حرب مع أراغون سببها ان فرنسيس بيرلوس قائد البحر عند بطره ملك أراغون كان ذاهباً ببعض اسطوله يساعد فرنسا على انكلترة في حرب ببحر المانش فلما وصل الى ثغر سان لوكاردو براميدا في فم الوادي الكبير صادف مراكب جنوية فضبطها لوقوع الحرب يومئذ بين أراغون وجنوى بسبب سردانية فسأله بطره الجاني الافراج عن تلك المراكب وكان هناك يتنزه فأبى فامتعض منه وأرسل الى رسيفه في الرتبة والخصال بطره الملقب بالخنجري يسأله تسليم فرنسيس المذكور فأجابه ان فرنسيس لم يزل غائبا وعند رجوعه تجري محاكمته بما يرضي ملك قشتالة لكن لا يمكن تسليمه فشهر بطره الحرب على جاره وسميه وانضم الى ملك أراغون جميع الباقين من إخوة ملك قشتالة وأعيان مملكته وخف الدون انريك من فرنسا الى أراغون وكما كان في جانب بطره الاراغوني كثير

من أمراء قشتالة كان في جانب بطره القشتالي كثيرمن أمراء أراغون مثل الدون جويان والدون فرناند ولكن شراسة أخلاق مولاهم وسوء عشرته آلى بكثير منهم الى الانحياز عنه فابتدأ بذلك الدون فرناندو وفارقهوقيل ان منهم الدون الفار بيريز دو غوزمان كانت له امرأةحسناء اسمها الدونة الدونزة أعجبت الملك فحدثته نفسه باغتصابها من زوجها ففر الى أراغون وانحاز ابن عمه الدون جويان دولا سردا الى الاندلس فجمع عسكراً من مقاطعته واجتاح البلاد لكنه لم يساعده القدر إذ وقع أسيراً في أيدي جند الملك وسيق الى اشبيلية فأرسل بطره في الحال من بطانته لذريق دو كاسترو لقتله وبلغ امرأته الدونة ماريه ما حل بزوجها فجاءت الى الملك تبكي وتلطم خدها وضرعت اليه جاثية على رجلها أن يعفو عن بعلها فأعطاها أمراً بالعفو على يقينه بأن الامر قد قضي فلما وصلت الى اشبيلية وجدت أن قد سبق السيف العذل

ثم وفدت عليه الدونة الدونزه كورونل بعد انعقاد الهدنة بينهوبين أراغون واستماحت منه العفو عن لدون الفار بيريز دو غوزمان وكان الملك قد حاول سابقا اغتصابها فامتنعت منه فسبحان مقلب القلوب إذ مالت اليه هذه المرة وحظيت عنده فأسكنها في برج الذهب على ضفة الوادي الكبير وتمتعت زمنا بالامر الى أن ملها وعاد الى حظيتهالاولى ماريه دو باديليه كأنه لا حب الا للحبيب الاول ثم لسبب ضعيف أولغير سبب قتل بطره أخاه الدون فادريك رئيس نظام مار يعقوب وارتكبها فيه شنعاء إذ أجرى ذلك بحضوره واسترحم فيه الحرس مراراً حتى تناولوه ضربا بالدبابيس فأتوه ولوقته وذهب الملك يسأل عن رفاق أخيه

في القصر فلم يعثر إلا على رجل يقال له سانشو فقتله بيده وهو ماسك بأذيال ابنة الملك طالبا للنجاة . عاد فتناول الغداء في القاعة التي كانت مطروحة فيها جثة اخيه وبعد أن فتك بفادريك دعا أخاه الثاني جويان ووعده بولاية بيسكاي . استصحبه اليها لقتل متوليها أخيه الدون تلو وقطاعه اياها ففر تلوا الى فرنسا واستنجز الدون جويان وعد أخيه فبعث اليه بالحضور فقدم ومعه ثلاثة بقوا خارجا ودخل جويان ليس معه سوى خنجر صغير فجاء بعض حاشية الملك وألهوه وعلى غفلة منه سلبوه الخنجر وما حصل في قبضتهم حتى صرعوه وانثالوا عليه بالدبابيس على أم رأسه فمات لحينه وقذف به الملك من غرفته الى الساحة وبعد ذلك تقبض على خالته الملكة ليونوره وايزابلا دو لاره امرأة الدون جويان ولما طالت الحرب بينه وبين أراغون وأبى ملك اراغون قبول مطالب بطره نسب هذا رفضه الى دسائس الدون اريك دو تراستامار والدون تلو والدون فرناند مركيز طرطوشة فانتقم منهم بقتل أمهم خالته ثم اعتقل امرأة الدون تلو الباقية كانت في البلاد ثم قتلها ثم قتل أخويه الصغيرين الدون جويان الذي كان في التاسعة عشرة من العمر والدون بطره الذي كان في الرابعة عشرة بدون ذنب اقترفاه وكانت الحرب لا تزال قائمة على ساق بين أراغون وقشتالة فحضر لدى الملك مرة كاهن من سان دومينيك دو لاشوسه وطلب أن يقابل الملك فمكنوه من ذلك فقال له مولاي . رأيت في النوم مار دومينيك الكبير فأمرني أن أجيء اليك وأنذرك لكي تأخذ حذرك لانك ستموت مقتولا بيد الكونت أنريك أخيك فراجعه الملك ان كان بعثه أحد ليقول له هذا القول فأصر

على أن هذه هي رسالة سان دومينيك فاستعاد حديثه بملاء من الناس فاعاده فأمر بحرقه حياولم يبال بعرسله ثم قتل أمين صندوقه صموئيل لاوي اليهودي الذي كان ملا خزائنه ذهبا واستصفى جميع أمواله ثم بعد عقد الصلح مع أراغون قتل امرأته الملكة بلانشه التي كانت قد قضت معظم حياتها باسبانية رهن الاعتقال وكانت كاسمها نقية البياض بديعة الحسن جذابة الملامح فسقيت كأس حتفها في الخامسة والعشرين من سنها ومضت طاهرة الازار حتى قيل على لسانها في أغاني العامة مامعناه: ,, أموت بدون أن يعرفني الملك وأذهب بين العذارى ،، مع هذا لم تنج هذه الملكة من أوهام القصاصين الذين رموها بعاشقة الدون فادريك أخي الملك ودافع عنها كثير من المؤرخين بكون زواجها وقع أثناء غياب فادريك وانها بعد ذلك لم تجتمع به فأين تمكن من رؤيتها ؟ وهذا الملك هو الذي التجأ اليه أبو سعيد بن الاحمر المنتزي على محمد الخامس فقتله قيل مع سبعة وثلاثين فارسا من بطانته وتولى قتله بيده قائلا له : ,, هذا من أجل المعاهدة المذمومة التي اضطرتني أن أعقدها مع أراغون ،، فمنفه ابن الاحمر وسبه ولكنه بادله كلما بكلم ولما قتل مع جماعته أرسل برؤوسهم الى سلطان الاندلس وتصافيا ولما أمن من جهة المسلمين خاف أن يناقشه ملك فرنسا الحساب على قتل الملكة بلانشة فأكد العهد مع صاحب انكلترة ومد يده الى ملك البرتغال وملك نافار وزحف معه نحو ملك اراغون فانهزمت جيوشه وآل الامر الى الصلح على شرطان يتزوج دون بطره ملك قشتالة ابنة دون بطره ملك أراغون وان ولي عهد اراغون يقترن بابنة ملك قشتالة من حظيته ماريه دو باديليه وان ملك

اراغون يسلم اليه الدون اريك دوتراستامار والدون فرناند مركيز طرطوشة فقبل بذلك رصيفه وقتل فرناند وحاول اغتيال الثاني ففر واعصوصب حوله القشتاليون ، وذهب اريك الى فرنسا واستجاشها على أخيه وكان لهم ثأر في قتل بلانشه فأرسلوا ثلاثين الف مقاتل معقوداً عليهم لبرتران دو غو كلين فدخل مع أريك مملكة قشتالة ونودي بهذا ملكا في كثير من مدائنها التي كان اهلها ينتظرون الفرصة لخلع طاعة الظالم ففر بطره الى البرتغال فأبى ملكها قبوله فعاد وافلت الى جليقية حيث لقي فرناند دو كاسترو ومطران سان جاك فوعداه بالنصرة وجهزله المطران كتيبة مؤلفة من ١٢٠٠ مقاتل لكنه جوزي جزاء سنمار وغدر به بطره واستصفى امواله وذهب بها بحراً الى بيون وكانت في يد الانكليز واستتب الامر لاخيه الدون أريك في قشتالة الا ان الانكليز اجازوا بطره واصحبوه بجحفل جرار لافتتاح مملكته وكان اريك قد اعاد اكثر الفرنسيس الذين معه الى بلادهم فضعفت قوته وانهزم امام البرنس دو غال في واقعه نافاريت فلحق بفرنسا ودخل بطره الجاني مع البرنس دو غال الي البلاد وحاول قتل الاسارى الذين أخذوا في الوقعة فوبخه البرنس ومنعه ثم طالبه بنفقات الحرب فأخذ يطوف في البلاد ويقتل اعيانها ليأخذاموالهم واهلك في تلك الجولة خلقا كثيراً حتى فر كثير منهم الى أخيه المنهزم وشدوا ازره ، واقلع البرنس دو غال غير راض عن أعماله ، وعاد الدون اريك الى البلاد ومعه جماعة من الفرنسيس فقامت أكثر المدن بدعوته ، وحصر طليطلة فدافعه عنها الدون فرناند الفارز أو الفارس من قواد الملك بطره وجاء هذا مع حليفه ابن

الاحمر يحاصر قرطبة التي كانت تقبلت دعوة أخيه فضيقا عليها وهجم المسلمون على الاسوار فاحتلوا امنها برجالكن القرطبيين كروا على المحاصرين فكشفوهم فازمعا العودة واهتبل محمد سلطان غرناطة هذه الفرة فعاث في بلادهم واسترجع بعض الحصون واكتسح جيان وابذة وغيرهما من المدن المحالفة للدون انريك

وفي ١٤ آذار سنة ١٣٦٩ انتشبت بين الاخوين معركة بقرب مونتيل وانكشف الدون بطره واعتصم بقصر مونتيل فبني أخوه انريك جدراً بحجارة يابسة أعجل بناءه حول القصر ليقطع رجاء بطره في الخروج فلما شاهد ذلك أخوه واعوانه وفد منهم معرفة لبرتران دوغوكلين فداخله في غض الطرف عن فرار الدون بطره لقاء جائزة سنية فرفض برتران واخبر بذلك الدون انريك فأشار اليه بأن يقبل هذه المداخلة ويسمح للدون بطره بالحضور عنده وفي ليلة ٢٣ آذار المذكور انسل الملك قاصداً خيمة القائد دوغوكلين فلما استقر بها دخل عليه أخوه الدون انريك بالشكة الكاملة ولاول وهلة لم يعرف أخاه لطول عهده به فقال له أحد فرسان الفرنسيس هاهوذا خصمك — وأشار الى الدون بطره — فأجابه نعم ها أناذا فوثب عليه انريك ونفحه بشفرة قصيرة في وجهه فتلقاه بطره بذراعيه وتصارعا فسقط الاثنان على الارض فوجأه انريك بخنجره جملة طعنات حتى أتواه وقيل بل عندما سقط الملكان على الارض جاء بطره فوق انريك لكن القائد دوغوكلين قلب الثاني فوق الاول حتى مكنه من قتله وكان عمره يومئذ أربعاً وثلاثين سنه وسبعة أشهر وخلفه الدون انريك قاتله

وقد أطلنا قليلا في قصة هذا الملك الجاسي لغرابة أحواله وشذوذ

مبادئه وهاك مالخصه ابن خلدون من خبره قال :

قد تقدم ذكر تغلب الطاغية ابن المنشة على الجزيرة سنة ثلاث واربعين وانه نازل بعدها جبل الفتح سنة احدى وخمسين ومات بالطاعون وهو محاصر له عند مااستفحل امره واشتدت شوكته وكفي الله شأنه وولي أمر الخلافة بعده ابنه بطره وعدا على سائر اخوته وفر أخوه القمط ابن حظية أبيه المسماة بلغتهم ألريق بهزة الى قط برشلونة فأجاره وانزله خير نزل ولحق به من الزعماء المريكس ابن خالته وغيره من اقماطهم وبعث اليه بطره ملك قشتالة في إسلام أخيه(١) فأبى من اخفار جواره وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتتح فيها بطره كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي ارضه وحاصر بلنسية قاعدة شرق الاندلس مراراً وأوجف عليها بعساكره وملأ البحر اليها بأساطيله الى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيها ملكته فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف الى قرطبة وثار على بطره أهل اشبيلية وتيقن صاغية النصارى اليه ففر عن ممالكه ولحق بملك الافرنج وراء جليقية في الجوف عنها وهو صاحب انكلترة واسمه الفاس غالس ووفد عليه صريخاً سنة سبع وستين فجمع قومه وخرج في صريخه الى ان استولى على ممالكه ورجع ملك الافرنج فعاد النصارى الى شأنهم مع بطره وغلب القمط على سائر الممالك فتحيز بطره الى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين ونادى صريخا بابن الاحمر فانتهز الفرصة ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في أرض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم مثل ابذة وجيان وغيرهما من امهات أمصارهم ثم رجع الى غرناطة

---

(١) أي إسلامه اليه

ولم تزل الفتنة قائمة بين بطره وأخيه القمط الى أن غلب عليه القمط وقتله انتهى

وقال ابن خلدون فى سفارته عن السلطان ابن الاحمر الى اشبيلية مانصه « وسفرت عنه سنة خمس وستين الى الطاغية ملك قشتالة يومئذ بطره بن الهنشة بن اذفونش لاتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك العدوة بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة فلقيت الطاغية باشبيلية وعاينت آثار سلفي بها وعاملني من الكرامة بما لامزيد عليه وأظهر الاغتباط بمكاني وعلم اوليّة سلفنا باشبيلية واثنى علي عنده طبيبه ابراهيم بن زرزور اليهودي المقدم فى الطب والنجامة وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبه وهو يومئذ بدار ابن الاحمر بالاندلس ثم نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم الى الطاغية فأقام عنده ونظمه فى أطبائه فلما قدمت أنا عليه اثنى علي عنده فطلب الطاغية حينئذ المقام عنده وان يرد علي تراث سلفي باشبيلية وكان بيد زعماء دولته فتفاديت من ذلك بما قبله ولم يزل على اغتباطه الى أن انصرفت عنه فزودني واحملني واختصني ببغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين اهديتهما الى السلطان فاقطعني قرية البيرة من اراضي السقي بمرج غرناطة انتهى

***

وبعد ان اديل للدون انريك قام ملك البرتغال يطالب بالخلافة بحجة أنه هو الوارث الشرعي الوحيد لتخت قشتالة لان والده بطره القاسطانه هو ابن بنت شانجه الرابع ملك قشتالة ولان الدون انريك ابن لحظية فنشبت الحرب واستولى انريك على كثير من معاقل البرتغال وحاصر اشبونة عاصمتهم ثم انعقدت السلم بتوسط وكيل البابا

وكان أولاد الدون بطره الملك السابق مع خزائنه فى قرمونة فحاصرة الدون انريك ودافعه قائدها مرتين لويز دوقرطبة الى أن نفدت الاقوات واضطر مع حاميته الى التسليم على شرط الامان فأمنهم رئيس ماريةوب من قواد انريك لكن هذا أبى تصديق عهد القائد وقتل مرتين صبراً واستولى على الخزائن وارسل أولاد اخيه الى طليطلة حيث اودعهم السجن

وسنة ١٣٧٢ وقعت الحرب بين الانكليز والفرنسيس فأرسل الدون انريك قائد بحره امبروسيو بوكانغره لمساعدة الفرنسيس فهزم اسطول الانكليز ثم تحارب مع ملك أراغون من اجل مرسية وانتهت الفتنة بتزويج جويان ولي عهده بابنة صاحب اراغون وكان الدوق دولنكاستر رابع اولاد أدوار ملك انكلترة قد تزوج فى بعون بالدونة قسطنسه ابنة بطرة الجاسي وكان والدها قد عهد لها بالملك فخال هذا الدوق انه صار صاحب الحق فى خلافته فجمع عسكراً جراراً وزحف صوب اسبانية فناوشه الفرنسيس القتال فى طريقه ومات اكثر جيشه فعاد بخفي حنين ثم لعهد وقع بين شارل الرديء ملك نافار والانكليز زحف اليه الفرنسيس من جهة والقشتاليون من اخرى فالتزم ان يصرم ذلك الحبل ومات الدون انريك فى ٢٩ أيار سنة ٧٩

وجلس على كرسي الامارة ابنه جويان وولد له فى اوائل ملكه ولد سماه انريك وكان فرديناند صاحب البرتغال لم يرزق غلاما وانما ولد ابنة يخشى بعد موته ضياع حقها فخطر له ان يجعلها حليلة لابن الدون جويان فيتمكن من حفظ حقها فخاف الانكليز عاقبة هذا الزواج وكان الدوق دولنكاستر لم ينزل عن دعواه فداخلوا البرتغال في فسخ ذلك العقد وحملوهم

على الحرب فاصطلحت بين المملكتين عوانا وطالت زمانا ووفد الانكليز بالمدد على اشبونة وفي تلك المدة توفيت ليونورة امرأة الدون جويان فرأي صاحب البرتغال أن يزوجه ابنته التي كان يريد اعطاءها لابنه وهي المسماة بالدونة بياتريزة ويختم بذلك الحرب فانصاع عنه الانكليز وعقد للدون جويان على ابنته المذكورة وبعد زفافها عليه باربعة أشهر مات الدون فرديناند ونودي بكريمته ملكة على البرتغال فأسف رعية هذه المملكة أن يروا عليهم أجنبيا ولم يقبلوا الدون جويان فزحف الى عاصمتهم اشبونة وحاصرها براً وبحراً حتى هلك كثير من أهلها ومن عساكره فانكفأ عنها وطمع فيه البرتغال فقاتلوا من أطاعه منهم واجتمعوا وقرروا تحت رئاسة قائد أشبونة أن بياتريزة ليست ولداً شرعيا لفرديناند لان امها كانت متزوجة بالدون جوان لورانسو دوا كونها حينما انتقلت الى الملك فرديناند فبايع البرتغال الدون جويان ابن بطره القاسط وانضموا اليه وكان متولي الدفاع عن أشبونة فزحف ملك قشتالة لقتاله فالتقيا في ١٤ آب سنة ٨٤ بعد الثلاثمائة والالف بقرب قرية الجبروته فانهزم ملك قشتالة وهلك من جيشه عشرة آلاف ومن البرتغال الف وهي وقعة مذكورة في التاريخ بقي البرتغال يحتفلون بتذكارها زمانا فتوطد بذلك أمر الدون جوان البرتغالي وجاء الدوق دولنكاستر الانكليزي فدخل قشتالة بجيش واستولى على بعض البلاد ومدَّ يده إلى يد ملك البرتغال وهيأ قسمة بلاد عدوهما لكن هذا استجاش بالفرنسيس فأمدوه بالمال والرجال ولم يفز اعداؤه بطائل فانتهت الفتنة كغيرها من الفتن التي تضمنها هذا التاريخ بزواج انريك ابن ملك قشتالة بكاتالانه بنت الدوق دولنكاستر من امرأته ابنة بطره الجاسي

وفي ٩ اكطوبر سنة ٣٩٠ بعد الالف بينما كان الملك يجري فرسه فى ميدان مع بعض فرسان النصارى الجالين من افريقيـة و كانوا موصوفين بالفروسية اذ كبا به جواده فخر صريعا وحمل بدون حراك فخلفه ابنه الدون انريك في الثانية عشرة من العمر وكفله مجلس مؤلف من الدون فادريك ابن الدون انريك جد الملك من حظيته ومن الدون بطره حفيد فادريك رئيس نظام مار يعقوب الذي قتله أخوه بطره ومن أساقفة طليطلة وسان جاك وغيرهم من القوادفانتشرت السلطة وتمخضت الحال بالفتنة وصارت الناس فوضى وفى هيعة ذلك هجمت العامة فى قرطبة على اليهود فقتلوا منهم خلقا وانتهبوا اموالهم وفى مدته قام محمد ثاني أولاد يوسف بن الاحمر على أبيه ورماه بالضعف عن الجهاد وأثار عليه العامة فالتزم يوسف أن يخرج بعساكره ويجتاح بلادالنصارى لينفي تهمة ابنه الذي اتخذها حجة للخروج إلا أنه لما كان ميالا بطبعه الى السلم لم يلبث أن هادنهم وقفل

وفي تلك المدة ظهر رجل عند الاسبانيول يدعى سيو معروف بالنسك والزهادة وقبول الدعاء وصار لعامتهم فيه اعتقاد كبير فانبأ رئيس فرسان القنطرة بأنه يفتح غرناطة كما فتح السيد بلنسية فصدقه وأرسل اثنين من اعوانهِ الى سلطان غرناطة برسالة تضمنت قذفا وطعنا فى دينه ، وتهديداً وانذاراً من بطشه ، وهو يدعوه إلى النزال ، ويعده ان احجم من الانذال، ويقاتله بفئة قليلة له أن يجمع بازائها اضعافها، فلم يكترث صاحب الاندلس بكلامه إلا كما يكترث بهذيان الممسوسين، وطرد الرسل من حضرته مذءومين مدحورين، فلما بلغ ذلك مارتين يانس

استاذ القنطرة جهز خمسة آلاف مقاتل وسار بهم نحو غرناطة ، وقيل أن الدون ازيك نهاره عن المسير لما فيه من النكث بالمعاهدات فلم ينته قائلا انها مسألة دينية لا سياسية يلزم فيها الخضوع للملك، ولما مر بجيشه بقرطبة حاول بعضهم أن يمنعه من جواز الجسر فثارت العامة واعترضت على تلك الممانعة فأذن له وفي ٢٦ نيسان سنة ٣٩٤ بعد الالف وصل الى ثغور غرناطة وحاصر برجا اسمه برج إيجة وبعث الى الحامية يعرض عليهم التسليم والنصرانية وإلا فالسيف فهزؤا به وجاوبوه بالنشاب والحجارة فجرح الاستاذ وقتل معه ثلاثة من أبطاله فدعا الناسك سيو وقال له أكدت لنا انه لا يهلك منا أحد وهو ذا ثلاثة قد سقطوا صرعى فقال له الناسك نعم قلت ولا أزال أقول لكن انما أردت بذلك الحرب في السهل لا الحصار امام الحصون فأخذ يجمع اكداسا من الحطب بقصد احراق البرج، اذا بعساكر المسلمين قد اقبلت فذعر أصحاب يانس من كثرتها وصاروا ينسلون هاربين فوضع رايته والصليب في الوسط وأحاط بهما في نخبة رجاله إلا أن العدو أحاط بالجميع فلم ينج من الخمسة الآف سوى الف وخمسمائة وأما معلم القنطرة فسقط مع جميع الرجال الذين انتخبهم ليكونوا فيه وطنه وانتشر خبر هذه الهزيمة في اسبانية فخاف النصاري أن يستأسد المسلمون ويوقعوا بهم لكن السلطان يوسف حصر القتال في مكانه مع هذا الرجل المتحمس ولم ينكث بعهده معهم إلا انه لما مات وخلفه ولده محمد استؤنفت الحرب وأخذ كل من الفريقين ينحي باللائمة على الآخر في اخفار الذمة

وعام أربعة بعد الاربعمائة والالف خرج محمد بن يوسف غازيا في جيش كثيف فاكتسح البسائط وعاث في بلاد الاسبانيول، وفي السنة التالية

غزا جيان وأذاقها مر القتال وقفل بالغنائم فأخذ الدون أنريك يحصن ثغوره دفعاً لعادية المغاربة

وسنة ١٤٠٦ قضى نحبه تاركا من الولد طفلا وابنتين فأوصى بتربية أولاده أخاه الدون فرناند الملقب بالرشيد وامرأته الملكة كاترينة وكان من فواتح أعمالها التجهيز لحرب غرناطة فشنت الغارات وعطلت الثغور ومات أثناءها محمد بن يوسف وخلفه أخوه البكر يوسف فتجدد القتال في مدته وتزاحف الفريقان في سنة عشر بعد الاربعمائة والالف وحاصر الاسبانيول النقيرة وأخذوها واستفحل بذلك شأن فرناند

وفي هاتيك الآونة مات صاحب اراغون عن غير ولد شرعي كما قدمنا في أخبار أراغون فأجمع رأي نواب تلك الامة على انتخاب فرناند الرشيد ملكا عليهم لمكانه من القرابة وما عرف من ذمته وأمانته وعفته عن اغتصاب ملك ابن أخيه الذي استودعه طفلا رضيعاً فتوج فرناند ملكا على أراغون وبقي كافلا لابن أخيه في قشتالة وبينما كان سائراً لغزو المسلمين سنة ١٤١٦ وافاه أجله فاستقل بكفالة ملك قشتالة أمه كاترينة بنت دوق لنكاستر الانكليزي وكانت ممدوحة السيرة إلا أنها كانت مغرمة بالخمرة ونقم عليها الاسبانيول عدم كراهيتها الشديدة للاسلام فماتت حتف أنفها في غرة حزيران سنة ١٨ فاستلم ابنها ملك جوياني أزمة الملك وهو في نحو الثالثة عشرة من العمر فتنازع الرئاسة الامراء والقواد وانتشبت الفتن وتوالت المحن الى أن تمكن من رأب الصدع

وفي تلك الايام حدثت في غرناطة حوادث جمة من وفاة يوسف ابن الاحمر وقيام ولده محمد الاعسر مقامه وخلع هذا وقيام محمد الصغير

وخلعه ورجوع الاحمر وانتزاء يوسف ابن عمه عليه وجلوسه على تخت الامارة وموته ورجوع الاحمر ثالثة مما استوفيناه في أخبار غرناطة وامتدت لجوبان في قضايا المسلمين بعضهم مع بعض يد طولى واستفاد من انقسامهم فهزمهم وأثخن في بلادهم . ومما سود صحيفته نكبته لامير الجيوش الدون الفارو دي لونه الذي حضنه ورباه ونصره على أعدائه وأخلص في مناصحته مدة ثلاثين سنة فجزاه شر الجزاء بسبب اختياره ابنة ملك البرتغال لزواجه بعد وفاة زوجته الدونة مارية حال كون جوبان يهوى رادغوند ابنة شارل السابع ملك فرنسا والصحيح أن الدون الفارو كان في دولة قشتالة لعهد جوبان أشبه بيحيي بن خالد البرمكي في دولة الرشيد لا ينفذ أمر بدونه ولا تمضي قضية إلا على مقتضى ارادته حتى انصرفت اليه الناس من دون الملك وازدحمت في بابه الاقدام وثقل على جوبان احتمال هذا الامر أكثر مما احتمله إلا أنه لم يعمر زمانا بعد وفاة الفارو ومضى لسبيله في ٢١ تموز سنة ١٤٥٤ وكان ملكه مشوبا بالفتن ورأيه نسبياً للعجز إلا أنه كان ممن يحب العلم خصوصاً التاريخ والادب وخلفه ابنه الدون أنريك الرابع فأول ما فكر فيه عند استوائه على الكرسي أن ينسل ولداً يورثه الملك فاقترن بالدونة جويانة البرتغالية لكن لم يلبث أن اتخذ من دونها الحظايا فاختار كاتالينه دو صندوفال مدة ثم تركها ولما علم أنها علقت بفارس غيره أمر بضرب عنقه ثم بلغه ان دير راهبات مار بطرس دولاس دو يناس محتاج الى الاصلاح فعين معشوقته هذه رئيسة الراهبات واتخذ الدونة غيومار دو كاسترو عشيقة فحكمها في ارادته وانقطع اليها دون العالمين فثار عليها حسد الملكة

واشتدت الفتنة بينهما حتى انهما مرة تعاركتا وتضاربتا وفتل من ساعد الملكة ما في صدرها من الغيظ ممن اغتصبها حقها فأمسكت بذوائب الحظية وصرعتها في الارض فحضر الملك مسرعا ورفس الملكة فأنامها لوقتها مغشيا عليها. قال المؤرخ لا فاله: وهذه الوقائع المخجلة لم تكن الا مقدمة لحوادث اعظم فضيحة واظهر عارا، وروى من عشق الملكة لبرتران دو لا كوفا ومن تهتكها وولادتها ودعوة الملك امراء البلاد لحلف يمين الامانة لابنته الجديدة وإبائهم ذلك اشتباها في صحة انسبها للملك الى غير هذا من الامور الفاضحة ما امسكنا عن تفصيله ضنا بشأن التيجان، وحرمة لمقام الصولجان، خصوصا وان لهذا الملك فيه السهم الاوفر من العار وبالاجمال فنقول ان امراء قشتالة خرجوا على اميرهم انريك ولاشتهار عجزه عن الزواج عندهم رفضوا ان يقبلوا عليهم ولي عهد من سلالته إذ ليس عندهم ممن له سلالة، فولوا عهد الامارة اخاه الفونس وطوح ببعض الثوار بغض الملك واحتقاره حتى نصبوا له علما في محفل غاص ووضعوا عليه جميع شارات الملك وعصبوه بالتاج وقام واحد فقرا على الملا فاضح سيرته فأخذوا عند كل نبذة ينزعون قطعة حتى جردوا النصب ثم لم ينتهوا حتى حطوه للارض وبايعوا الفونس ملكا وجمهروا حوله وحصروا بعض المدن فزحف اليهم انريك وناصره من الامراء والاعيان من احفظه عمل الثوار ولم يحطب في حبال الفوضى، فالتقى الجمعان في ظاهر اولميدو وتناجزوا مناجزة الاضداد، اذا ملأت صدورهم الاحقاد وفصل كل من الفريقين مدعيا لنفسه النصر والصحيح أنه لم يتعين لاحد ولم تزل النائرة حتى جاء ما لم يكن في الحسبان وهو وفاة الدون

الفونس فى ٥ تموز من أشهر عام ٦٨ بعد الاربعمائة والالف فلما لم يجد الخوارج من يقدمونه عليهم جاؤا مبايعين الدونة ايزابلا أخت الملك انريك فأبت مزاحمة أخيها وذكرتهم بما عليهم من فروض الطاعة لمليكهم الا أنها طالبت بحق الوراثة فلما عرض ذلك على الملك عده مغنما بشرط دخول القوم في الطاعة وسكن الثوار على وثيقة استخلاف الدونة ايزابلا والعفو العام عنهم ورضي الملك بذلك واعترضت الملكة داعية لابنتها التي تقدم خبرها فلم يسمع لها وحل وكيل البابا الامراء الذين أقسموا يمين الامانة لتلك البنت من عقدة اليمين

وكانت ايزابلا جامعة بين جمال المنظر وجودة الادراك وأحسن منها انها وارثة ملك قشتالة فاخذ جميع ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها الا ان اختيارها وقع على فرديناند ملك أراغون ومضت اليه رغما عن ارادة الكثيرين من أعيان المملكة فالتقيا فى وادي الوليد وتم عقد النكاح بينهما في سنة ٦٩

فأحفظ ذلك المركيز دوفيلنه مستشار الملك فقام يسعى فى ايجاد خطيب من الملوك لابنة الملك أملا بمنازعة ايزابلا الوراثة فمالوا أولا إلى ملك البرتغال ثم أبرزوا الدوق دو غويان واحتفلوا بالخطبة لكن سفراء الدوق اشترطوا على الملكة ان تحلف على رؤس الاشهاد بان هذه الفتاة هي ابنة الملك انريك وعليه أيضا ان يحلف بانه أبوها ففعلا ومع ذلك بقي الخطيب مشتبها حتى انه لم يهجم على النكاح وأخطبوها لامير آخر اسمه الدون انريك ثم لسوء ملكته كره الملك تزويجها منه فبقيت بدون عرس الى مابعد مهلك الدون أنريك الذي وقع في ١٢ كانون الاول سنة ٧٤

فانتقل الملك الى ايزابلا زوجة فرديناند وفي أوائل الامر كاد يقع بين الزوجين الشقاق لكون فرديناند يزعم انه هو الملك الوحيد لانه لايوجد رجل سواه من سلالة الدون انريك دوتراستامارة وايزابلا تزعم ان انتقال الامر الى النساء معروف في عادات مملكة قشتالة وهي أقرب وارث الى آخر ملك ولها الحق وحدها [illegible] وكم الزوجان من يفصل الخطاب فحكموا على الملك فرديناند [illegible] الى أراغون فحينئذ أخذت ايزابلا تقدم له البراهين [illegible] بالرجاء بان دعواها هذه ضرورية لمصلحة ابنتهما إذ لو فرض أنهما لم يرزقا ذكراً وكان حق المرأة ساقطا في الامارة لزم أن ينتقل ذلك الى زوج [illegible] يكون أجنبيا فيكون قد اسقط ابنته من حقها ثم [illegible] الى شيء وانها تقدم اسمه على اسمها [illegible] الحق في نصب الحكام والولاة، وهكذا مضى الامر [illegible] بينهما وتم ماتم على يدهما فكانت شدة التحامهما سببا لانسلاخ [illegible] عن بلاد الاسلام

وكان المركيز دوفيننه قد مات [illegible] ابيه وارث عداوة ايزابلا من أبيه فتحرك مع الدون الفونس [illegible] لاحل مناصبة الملكة وزوجها وأغريا ملك البرتغال [illegible] جوريانة المشكوك في نسبها فأطاعهما ومع كونها بنة شقيقه أقدم على ذلك ملتمسا من البابا الاسعاف في سؤله وخطبها ودخل مملكة قشتالة داعيا لنفسه فاعصوصب حوله أضداد الملكين وكثرت الفتنة [illegible] وكثر العيث وحوصرت المدن وضيق فرديناند على قلعة زامورة ونهد الى صاحب البرتغال بقرب نورو فانكشف البرتغال وقتل منهم جم وافر وسلمت قلعة زامورة وذهب

ملك البرتغال مستصرخا لويس الحادي عشر صاحب فرنسا فلم يصرخه وخذله أحزاب خطيبته وراجع البابا نفسه في الرخصة التي أعطاها في شأن زواجه بابنة أخته وقال انها كانت على غير ترو فنسخها بمنع لاحق ورأت تلك المسكينة أن زواجها من أحد أصبح عسيراً وان نسبها الى الملك انريك أصبح مسألة خلافية والقائمون بنصرتها قليلون فتبتلت راهبة في ديرسانت كليردو قويمبرة وكانت تلقب بالبلترا اينجه

وكان يكثر في ممالك اسبانية لذلك العهد اللصوص وقطاع السوابل وقلما تخلو كورة من عيثهم وفسادهم وربما كان لبعض أمراء البلاد يد فى امدادهم فوجه فرديناندوايزابلا عزمهما لاستئصال اللصوص ونظما عسكراً خاصا لتأثرهم وقطع دابرهم وسمياه هرمانداد وخصصا له مالا معينا وعقدا عليه للدون الفونس أخي فرديناند من حظية أبيه فجرى في أثر اللصوص ونكل بهم في كل سهل وجبل حتى لم يبق من هذه الدعارة الا القليل

وفي هاتيك المدة هلك الدون جويان الثاني ملك أراغون وتولى مكانه ابنه فرديناند الكاثوليكي فضم أراغون وبلنسية وكاتالونة وصقلية وميورقة الى قشتالة فبينما كانت ممالك النصرانية العظيمة تتحد في تلك الاقطار كانت مملكة الاسلام الوحيدة فيها تزداد فتقا على فتق ليقضي الله أمراً كان مفعولا

الفصل الخامس

في ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية

كانت الثغور منذ القديم مواطن الامم المتناظرة، ومواقف الاقران من حماة الاقوام المتبارزة، وكماة الشعوب المتحاجزة، ومقامات صدق المجاهدين، ومظان النخوة الجائشة بالرؤس للذب عن العرض والدين، ومنذ ظهرت دولة الاسلام بما شرع فيها من الجهاد لم تبرح مرابطة الثغور ومحافظة الدروب وبعوث الصوائف من اركان الملة وقواعد الدولة وأعمدة سرادق الخلافة، يتنافس في الوفاء بها والقيام عليها الاطول يداً، والابعد همّاً، والاشد عزمة، والارخى في الجد غاية، من خلائف الاسلام وسلاطينه وأمراء التوحيد وأساطينه ممن رفعوا في تعزيز الملة واجابة داعي الجنة شأن الجهاد، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد، فان كان للاسلام لواء خافق فوق رؤس بنيه فهو بقية ما عقد بأيدي الغزاة والمجاهدين، وان كان تحت أقدامهم مواقع للامتناع فهي نتيجة مواقع السيوف من رقاب المناهدين. ولما كانت الجزيرة الاندلسية، بموقعها من الاتصال ببر العدوة الاوروبية، والموازاة لبر العدوة المغربية، غير منفصلة عنه الا ببحر الزقاق الذي يتراءى الساحل من ورائه تعد ثغر الثغور بين البرين الكبيرين، وموطن الرباط ومعترك الثقاف من المنصرين العظيمين، استمر الجهاد فيها ثمانمائة سنة ونيفا بين حماة الحنيفية والنصرانية منازعة الارض بالشبر، فاذ كان الاسلام هنالك في عنجهيته والعرب تترامى الى الاندلس للاعتمار من جميع الاقطار، قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج وأجفلت هذه بين أيديهم وانهزمت من أوجههم وانتظمت دولة بني

أمية فى ذلك الصقع أعظم ما كان العرب نضارة وأكمل عزاً وأبعد فى العدو مغاراً مضت على الاسلام فى الاندلس ثلاثة قرون كفت فيها نفسها مؤونة الجهاد، وقامت وحدها في وجه العدو الذي كان قد انضم بعد التخاذل واستمسك بعد الاسترسال، الى ان انقرض حبل الخلافة المروانية، وتشعبت الكلمة وصار الامر الى ملوك الطوائف، فاستأسد الفرنج واقتحموا ثغور المسلمين وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحي فاستصرخ هؤلاء اخوانهم من وراء البحر بحسب الانقطاع فى تلك الجزيرة فوافاهم مدد المرابطين من بني لمتونة واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب فرمى اليه بأفلاذ أكباده من زناتة وصنهاجة وغيرهما وأجاز الى الاندلس بجحافله فرد عادية النصارى واسترجع كثيرا من القواعد، ولم يلبث ان تأذن الله بانقراض أمد تلك الدولة وقيام دولة الموحدين بني عبد المؤمن فاقتدوا بسلفهم في الجهاد وأجازوا الى الاندلس على ظماء من اهلها لنجدتهم، فصدموا تقدم العدو وفلوا غربه، ولم يسعد الاسلام الحظ بطول انتظامهم، وامتداد التئامهم، فخامر دولتهم الضعف واستولى عليها الانقسام، وظهر في عقبها الفشل، وجاءت وقعة العقاب لعهد الناصر من امرائهم الطامة الكبرى على الاسلام فلم تقم له بعدها قائمة تحمد فيما وراء البحر، وانجلى أهله أمام العدو المتقدم الى سيف البحر، وحشروا في ممالكة ابن نصر الذي ضم شملهم فى غرناطة وجوارها، ورأى المسلمون أن الامر كاد يفلت من ايديهم وأن منزلهم هنالك أصبح قلعة، وأن زيالهم لتلك الديار أضحى قريب الاجل، كما يستدل على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم كقول أبي البقاء الرندي

قواعد كنَّ أركان البلاد فما عسى البقاء اذا لم تبق اركان

وكقول غيره

حثوا رواحكم يا أهل اندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير من جملة نصيحته لاولاده

« ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القاق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه أن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال امام النوب الثقال »

ولما ضعفت حامية الاندلس بعد ذهاب بني عبد المؤمن وضاقت مسالك المسلمين في الجزيرة وتسامع بذلك أهل المغرب نفروا للجهاد وسابق الى ذلك الامير أبو زكريا بن أبي حفص صاحب افريقية فأمدهم بالمال والرجال واعطوه بيعتهم ولما قامت دولة بني مرين واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحق واستبد بسلطنة المغرب وكان عظيم الاستعداد في نفسه لاحراز تلك المثوبة وبلوغ هاتيك الرتبة وأهمه شأن ابن أخيه ادريس بن عبد الحق لما وقع بينهما من المنافسة واستأذنه عامر بن ادريس في الجهاد اغتنم هذه الفرصة وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوعة زناتة وأجاز معه رحو ابن عمه ابن عبد الله بن عبد الحق فكان لهم في الاندلس مقام كريم في الجهاد ثم صارت الاجازة والجهاد شأن ذوي القرابة من ملوك المغرب المنافسين في الملك والمزاحمين في الدولة اغتناما للاجر والذكر وتوسلا الى قطع أسباب المنافسة بالغربة والانقطاع وهؤلاء مثل ابناء عم الملوك من بني مرين الملقبين

بالاعياص ومثل عبد الملك يغمراسن بن زيان وعامر بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد بن عبد القوي فامتلأت الاندلس بأقيال زناتة واعياصهم وكان ممن أجاز معهم بنو عيسى بن يحيي بن وسناف بن عبو بن أبي بكر ابن حمامة ومنهم سليمان وابراهيم اللذان كرم مقامهما في الرباط، ثم أجاز موسى بن رحو بن عبد الله مع أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق فولاه السلطان ابن الاحمر رئاسة الغزاة والمجاهدين، ثم انصرف الى المغرب فولى مكانه أخاه عبد الحق ثم انصرف فولى مكانه ابراهيم بن عيسى بن يحيي ابن وسناف ثم رجعا فرجعت امارة الغزاة الى موسى وبقي فيها الى أن هلك ثوليها أخوه عبد الحق الى أن هلك سنة ٦٧٩ فوليها ابنه حمو ابن عبد الحق بن رحو . وفي تلك المدة خرج عبد الحق بن عثمان من ولد محمد بن عبد الحق ثاني الامراء على بني مرين علي السلطان أبي الربيع المريني وأجاز الى الاندلس لعهد سلطانها أبي الجيوش بن محمد الفقيه وخاطب ملك المغرب سلطان غرناطة في اعتقاله فقبض هذا عليه ففر من السجن لاحقا بالطاغية وعند ما ثار أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد ودعا لنفسه وبويع بمالقة ووقعت الحرب بينه وبين ابن عمه سلطان غرناطة واخذ فيها حمو بن عبد الحق أسيراً وسيق الى أبي الوليد أطلق سراحه اكراما لعمه أبي العباس بن رحو فرجع الى سلطانه فارتاب به وولي مشيخة الغزاة عبد الحق بن عثمان فاستدعاه من دار الحرب ثم ارتحل هذا إلى افريقية إلى أن قتل في تلمسان. ولما انتزى أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر على ابن عمه صاحب غرناطة كان شيخ زناتة بمالقة عثمان بن أبي العلاء من آل عبد الحق فانتصر به أبو

الوليد على ابن عمه ولما استتب له الامر عقد له على الغزاة من زناتة وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان فلحق بوادي آش مع السلطان أبي الجيوش وصار حمو بن عبد الحق بن رحو من جملة عثمان ابن أبي العلاء بعد ان كانت الرئاسة له وبعد صيت ابن أبي العلاء واستفحل امره وعلت رايته وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده مالم يتوقعوه ولما مات أبو الوليد سلطان غرناطة وبويع ابنه صبيا لنظر الوزير ابن المحروق استبد عليه ابن أبي العلاء شيخ الغزاة فوقعت الفتنة بينه وبين الوزير ونصب الوزير له كفؤا من ذوي قرباه يحي بن عمر بن رحو وارتحل عثمان وبقي الى أن استبد بالامر السلطان محمد بن الاحمر ونكب ابن المحروق فاستدعى عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين ومات لسبع وثلاثين سنة من امارته عليهم وكان مكتوبا على قبره هكذا

«هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الابطال والكماة، واحد الجلالة، ليث الاقدام والبسالة، علم الاعلام، حامي ذمار الاسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والافعال المشهورة، والمغازي المسطورة، امام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، قاصم الاعاد، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام المجاهد، الارضي البطل، الباسل الامضى، المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان، ابن الشيخ الجليل، الهمام الكبير، الاصيل الشهير، المقدس المرحوم أبي العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق. كان عمره ثمانيا وثمانين سنة، انفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة» الى آخر ما هنالك

وقام برئاسة الغزاة بعد عثمان الغازي هذا ابنه أبو ثابت عامر وكثرت عصابته واشتدت وطأته حتى استبد على ابن الاحمر هو وقومه وهم الذين قتلوه بعد رجوعه فائزاً من جبل الفتح بعد أن قتلوا عاصما خادمه وبايعوا أخاه يوسف فقبلها منهم لكن على حذر في الباطن فلما وجه السلطان أبو الحسن بن مرين عزائمه الى الجهاد داخل ابن الاحمر في ازاحة الغزاة هؤلاء عن الاندلس فأجابه وقبض على أبي ثابت أميرهم واخوته ادريس ومنصور وسلطان ، وفر أخوهم سليمان فلحق بالطاغية ثم غربهم سلطان الاندلس الى افريقية، وأعاد امارة الغزاة الى يحيي بن عمر بن رحو، فكرم في الجهاد مقامه ، وحمدت آثاره، وبقي فيها الى أن هلك السلطان أبو الحجاج ابن الاحمر وقام بالامر ولده محمد، وأخذ له البيعة الحاجب رضوان، فقاسم يحيي بن عمر هذا في الشان، وشارك في الدولة، فلما انتزى الرئيس أبو سعيد قائما بدعوة ابن عمه اسماعيل أخي السلطان واغتصبوا منه الملك حسبما تقدم وأجاز الى المغرب مستجيراً بالسلطان أبي سالم بن مرين ومعه وزيره ابن الخطيب وقتلوا الحاجب رضوان لم يثقوا بيحيي بن عمر فاستدعوا لامارة الغزاة ادريس بن عثمان بن أبي العلاء وكان ببرشلونة نخف وانهزم يحيي الى دار الحرب ثم ترك فيها ابنه وأجاز الى سلطان المغرب لاحقا بالسلطان محمد المخلوع فبقي في صحبته الى أن قيض الله له الرجوع على يد أبي سالم والطاغية فرجع يحيي الى امارة الغزاة وخلطه السلطان بنفسه وبقي على حاله الى أن وقعت المنافسة بينه وبين ابن الخطيب الوزير فأغرى السلطان به وبقومه وأشخصهم الى المشرق فركب يحيى الى الاسكندرية ثم عاد الى المغرب وعاد بعض ولده الى الاندلس غزاة على عادتهم

وأما ادريس ففر بعد رجوع المخلوع مع الرئيس أبي سعيد الى الطاغية باشبيلية فلما غدر الطاغية بأبي سعيد حسبما تقدم الخبر أودع ادريس السجن فلم يزل فيه حتى تحيل للخلاص بمداخلة أسير مسلم فلحق بأرض الاسلام واتبعوه فلم يدركوه وجاء الى السلطان محمد المخلوع فأكرمه واستأذنه في اللحاق بالمغرب فأسعفه وآل أمره الى الاعتقال في أيام السلطان عبد العزيز بن مرين وقتل خنقا بمحبسه وتولى امارة الغزاة بالاندلس علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو بن عبدالله بن عبدالحق وآثره ابن الاحمر أبو الحجاج لمنانته دونه ليلة لحاقه بوادي آش مفلتا من شرك النكبة بالحمراء كما سبق به النبأ فاستمر في رئاسته هذه الى أن توفي حتف أنفه سنة ٧٦٨

وقام برئاسة الغزاة بعده الامير عبد الرحمن بن علي بن يغلوسن ابن السلطان أبي علي قلده اياها سلطان الاندلس لقرب نسبه من سلطان المغرب وكون هذه الخطة مخصوصة بأعياص بن مرين كما قدمنا فأهم ذلك صاحب المغرب لما خشي من عاقبة الترشيح ، وكانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب مراسلات سرية فأفضى اليه بميله الى الافساد ما بين سلطان غرناطة وأمير زناتة في الاندلس فاشتغل ابن الخطيب ذلك طبق خاطره حتى حمل سلطانه على اعتقال الامير عبدالرحمن وبطانته فألقاهم في السجن واسترضى بذلك سلطان المغرب فلما نزع ابن الخطيب الى هذا السلطان وتبين لابن الاحمر احتياله في شأنهم أطلق سبيلهم وجهز لهم الاسطول فأجازوا الى العدوة منازعين في الملك واستبد الامير عبدالرحمن بقسم من أعمالها وعفا رسم هذه الخطة من الاندلس وصار سلطانها

يباشر أمور الغزو بنفسه وربما عقد على الغزاة لاحد أولاده وكان محو هذه الخطة من الجزيرة لسنة ٧٨٣ وأكثر السبب استبداد امراء الغزاة أبناء عم الملوك على سلاطين بني الاحمر ومقاسمتهم إياهم الجبايات للتفريق على الجند ومع هذا فقد احتملوا دالتهم مدة مديدة لمقامهم في الجهاد وأثرهم في دفع العدو وأخيراً لما ضاقوا بهم ذرعا رأوا الاحزم تحويل هذا الرسم الى أبنائهم فقلد محمد الغني بالله بن الاحمر ولده الامير يوسف مشيخة الغزاة وفي هذا التقليد يقول لسان الدين بن الخطيب : « هذا ظهير كريم فاتح بنشر الالوية والبنود، وقود العساكر والجنود، واجال في ميدان الوجود، جياد البأس والجود، واضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود، على الطائفين والعاكفين والركع السجود، عقد لمعتمد به عقد التشريف والقدر المنيف زاكي الشهود، وواجب المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود، وبشر السيوف في الغمود، وأنشأ ريح النصر آمنة من الخمود، أمضى أحكامه، وانهد العز أمامه، وفتح عن زهر السرور والحبور أكمامه، أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر أيد الله تعالى أمره، وخلد ذكره، لكبير ولده، وسابق أمده وريحانة خلده، وياقوتة الملك على يده الامير الكبير، الطاهر الظاهر الاعلى؛ واسطة السلك وهلال سماء الملك، ومصباح الظلم الحلك، ومظنة العناية الالهية من مدير الفلك ومجري الفلك، عنوان سعده، وحسام نصره وعضده، وسمي جده وسلالة فضله ومجده، السعيد المظفر الهمام الاعلى الامضى، العالم العامل الارضى، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج يوسف ألبسه الله تعالى من

رضاه عنه حللا لا تخلق جدتها ، الايام ولا تبلغ كنهها الافهام، وبلغه في خدمته المبالغ التي يسر بها الاسلام »

(الى أن يقول) رأى والله الكفيل لنجح رأيه، وشكر سعيه، وصلة حفظه ورعيه، أن يجهدلهم اختياره، ويحسن لديهم آثاره ، ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده، وابطال جلاده، وحماة أحوازه، والآت اعتزازه، من يجري مجرى نفسه النفيسة في كل مبني، ويكون له لفظ الولاية وله أيده الله تعالى المعنى، فقدمه على الجماعة لاولى كبرى الكتائب ، ومقادة الجنائب، وأجمة الابطال، ومزنة الودق الهطال، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام ، واعلام الاسلام، وسائر قبائل بني مرين، ليوث العرين، وغيرهم من أصناف القبائل ، أولي الوسائل، ليحوط جماعتهم، ويستخلص لله تعالى ، لابيه أيده الله تعالى طاعتهم، ويشرف بأمارته مواكبهم، ويزين بهلاله الناهض الى الابدار على فلك سعادة الاقدار كواكبهم، تقديما أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل، واحس باقتراب ما أمل، فللخيل اختيال ومراح وللاسل السمر اهتزاز وارتياح، وللصدور انشراح، وللآمال مغدى في فضل الله تعالى ورواح، فليتول ذلك أسعده الله تعالى تولي مثله ممن أسرة الملك أسرته ، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربي محتد لطيب طبعه ،، الخ

وقال في تقليد الامير سعد أخي الامير يوسف: ،، هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعقد منه في سبيل الله تعالى لواء منصوراً ، وأعطى المعتمد به باليمين كتابا منشوراً ، (وما كان عطاء ربك محظوراً)، واطلع

صبح العناية المبصرة الآية يبهر سفوراً ويسطع نوراً، وأقر عيون المسلمين وشرح صدوراً، ووعد الاهلة أن تصير بامداد شمس الهدى اياها بدوراً، وبشر الاسلام بالنصر المنتظر والفتح الرائق الغرر مواسط وثغوراً؛ واتبع حماة الدين لواء الامارة السعيدة النصرية فأسعد بها آمراً وأكرم بها مأموراً، أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه امير المسلمين عبدالله محمد ابن امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الوليد بن فرج بن نصر، اعلى الله رايته وسدد رأيه، وشكر عن الاسلام والمسلمين سعيه، لقرة عينه، ومقتضي حقه من العدو ودينه، وغصن دوحه، وآية لوحه، ودرة قلادته، ودري افلاك مجادته، وسيف نصره، وهلال قصره، ولده الاسعد، وسليل ملكه المؤيد (الى ان يقول)

«حامي الحمى تحت ظل طاعته، وكافي الاسلام الذي يأمن من اضاعته، المحرز مزايا الاعمار الطويلة حظ الشهر في يومه وحظ اليوم في ساعته، الموقر المهيب المؤمل المعلم ابي النصر سعد، عرفه الله تعالى بركة سعد بن عبادة جده، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعظم مجده، ووزيره في حله وعقده، واجناه ثمرة النصر الذي كناه به، ووصل سببه بسببه، فما النصر إلا من عنده

(الى ان يقول) اختار لقيادة مغازيه المنصورة، وامارة غزواته المبرورة، اقرب الناس الى نفسه نسبا، واوصلهم به سببا، واحقهم بالرتب المنيفة، والمظاهر الشريفة ذاتا وأباء وصرف اليه آماله واستعمل في أسنته يمينه وفي اعنته شماله، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزة نصره، وراي الظهور على

اعداء الله تعالى جنى فيها ادلهصره، وادار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره ونبه نفوس المسلمين على جلاله قدره وقدمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الاشياخ من اولاد يعقوب كبار بني مرين، وسائر قبائلهم المكرمين ،، الخ

وكانت رسائل بني الاحمر الى ملوك العدوة تترى بالنفير والاستنجاد كلما بدأ للعدو كرة وأجلها ما كتب بقلم لسان الدين بن الخطيب أيام وزارته ننقل منها بعض الجمل اجمالا لمعنى الحالة، ونأثر بعض الفقر الدالة على فقر الاندلس الى المغرب كلما أمن العدو في الاستطالة، فمن ذلك ما كتبه من كتاب على لسان سلطانه الى ابن مرين

،، ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الاقوات المهيأة للانتساف، ويسكن ماء البلاد المسلمة من هذا الارجاف، ونفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف، أوحرب يبلغ الاستبصار فيه غايته، حتى يظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته، ولم نجمل سبب الاعتزاز فيما أردناه، وشموخ الانف فيما أصدرناه، الا ما أشمنا من عزمكم على نصرة الاسلام، وارتقاب خفوق الاعلام، والنهوض الى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وان الارض حمية لله تعالى قد اهتزت، والنفرة قد غلبت النفوس واستفزت، واستظهرنا بكتبكم التي تضمنت ضرب المواعد وشمرت عن السواعد، وان الخيل قد أطلقت الى الجهاد في سبيل الله الاعنة، والثنايا سدتها بروق الاسنة، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون، والاموال قد سمح بها المسلمون، وهذه الامور التي عمشت بقريبها أو بعيدها أحوال الاسلام، والاماني المعدة لتزجية الايام، ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان

من خور العزائم المؤمنة بمذكورها، وتسويف مواعد النصرة بعد استشمار فورها، وان الحركة ممهلة الى مراكش الجهة التي في يديكم زمامها، واليكم وان تراخى الطول ترجع أحكامها، والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة، ولا يعجزكم عن الصولة، ولا يطالبكم ان تركتموه، ولا يمنعكم ان طرقتموه وعركتموه، فسقط في الايدي الممدودة، واختلفت المواد المحدودة، وخسئت الابصار المرتقبة، ورجفت المعاقل الاشبة، وساءت الظنون، وذرفت العيون، وأكذب الفضلاء الخبر، ونفوا أن يعتبر، وقالوا هذا لا يمكن حيث الدين الحنيف، والملك المنيف، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم، وحمل النصيحة أعناقهم، هذا المفترض الذي يبعد، والقائم الذي يقعد، يأباه الله تعالى والاسلام، وتأباه العلماء الاعلام، وتأباه المآذن والمنابر، وتأباه الهمم والاكابر، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبإ الذي اذا كان باطلا فهو الظن، ولله المن، وان كان خلافه لرأي ترجح، تنفق بقرب الملك وتبجح فنحن نوفد كل من يقدم الى الله تعالى بهذا القطر في شفاعة، ويمد اليه كف ضراعة، ومن يوسم بصلاح وعبادة، ويقصد في الدين بث افادة، يتطارحون عليكم في نقض ما ابرم، ونسخ ما أحكم، فانكم تجنون به على من استنصركم عكس ما قصد، وتحلون عليه ما عقد وهب العذر يقبل في عدم الاعانة وضرورة الاستعانة والاستكانة، أي عذر يقبل الاطراح، والاغراض الصراح كأن الدين غير واحد، كأن هذا القطر لكلمة الاسلام جاحد، كأن ذمام الاسلام جامع، كأن الله غير راء ولا سامع » الخ

ومن كتاب آخر في وصف ضيق المسلمين بالاندلس قوله « وان تشوفتم الى احوال هذا القطر ومن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين

والفضل المبين، فاعلموا إننا في هذه الايام ندافع من العدو تياراً ونكابر بحراً زخاراً، ونتوقع الأن وقي الله تعالى خطوباً كباراً ونمد اليد الى الله تعالى انتصاراً ونلجأ اليه اضطراراً ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استمداداً به واستظهاراً ونستشير من خواطر الفضلاء مايحفظ اخطاراً وينشيء ريح روح الله طيبة معطاراً فان القومس الاعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع ومخالفته لاتستطيع رمى هذه الامة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لايسد طريقها ولا يحصى فريقها التفت على أخي صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله وتبلغه أمله ويكون الكل يداً واحدة على المسلمين ومناصبة هذا الدين واستئصال شأفة المؤمنين وهي شدة ليس لاهل هذا الوطن بها عهد ولا عرفها نجد ولا وهد وقد اقتحموا الحدود القريبة والله تعالى ولي هذه الامة الغريبه وقد جعلنا مقاليد امورنا بيد من يقوي الضعيف ويدرأ الخطب المخيف ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) إلى آخر ماقال

وله من جملة كتاب عن سلطانه الى سلطان المغرب في ذلك المقصد:

« وليعلم مقامكم وهو من إصالة النظر غني عن الاعلام ولكن لابد من الاستراحة بالكلام والتنفث بنفثات الاقلام إننا إنما نجري امورنا مع هذا العدو الذي رمينا بجواره وبلينا والحمد لله بمصادمة تياره على تعداد أقطاره واتساع براريه وبحاره بأن تكون الامة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق واسواق النفاق غير ذات نفاق والجماهير تحت عهد من الله تعالى وميثاق فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقد ووقع بينهما

في قبول الطاعة رد ساءنا واقعه وعظمت لدينا مواقعه وسألنا بأن يتدارك الخرق راقعه لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا وتفرغ العدو الى ضرنا»
(الى آخر ماقال وانم في المقال)

وله في مثل ذلك عن سلطانه الى أحد أولاد السلطان أبي الحسن المريني قيل الى السلطان أبي فارس عبد العزيز وهو قوله :

«ان هذا القطر الذي تعددت فيه المحاريب والمنابر والراكع والساجد والذاكر والعابد والعالم واللفيف والارملة والضعيف قد انقطع عنه أرفاد الاسلام وشحت الايدي به منذ أعوام وقوبلت ضرائره بالاعذار والمواعيد المستغرقة للاعمار وان عرضت شواغل وفتن وشواغب ولحن فقد كانت بحيث لايقطع السبب بجملته ولايذهب المعروف بكليته

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة   يؤاسيك أو يسليك أو يتوجع

ولو كانت الاشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدس والدكم جبل الفتح وهو منازل أخاه بسجلماسة ولا أمده ولده السلطان أبوعنان وهو بمراكش (الى أن يقول) ولا كالحسرة في الجبل باب الاندلس وركاب الجهاد وحسنة بني مرين ومآثر آل يعقوب وكرامة الله للسلطان المقدس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذي ترد على قبره مع الساعات والانفاس وفود الرحمة وهدايا الزلفة وريحان الجنة فلولا أنكم على علم من أحواله لشرحنا المجمل وشكلنا المهمل إنما هو اليوم شبح مائد وطلل بائد ولولا ان الله تعالى شغل العدو عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلا اليه ولا حوم طيره إلا عليه ولكان بصدد أن يتخذه الصليب داراً وأن يقر به عينا والعدوة فضلا عن الاندلس قد

أوسمها شراً وأرهق مايجاوره عنراً نسأل الله أن لايسود الوجوه بافجع فيه ولا يسمع المسلمين الثكله (الى أن يقول)

فمن يستدعي لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن حيث المآذن بذكر الله تملأ الآفاق وكلمة الاسلام قد عمت الربى والوهاد إنما الاسلام غريق قد تشبث باهدابكم يناشدكم الله في بقية الرمق وقبل الرمي تراش السهام وهذا أوان الاعتناء واختيار الحماة وأعداد الاقوات قبل أن يضيق المجال وتمنع الموانع وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مقرراً الضرورة منهيا الرغبة مذكراً بما يقرب عند الله مذكراً لذمام الاسلام جالباً على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور وتسني الآمال وتستدعي الدعاء والثناء فالمؤمن كثير بأخيه ويد الله مع الجماعة والمسلمون يد على من سواهم . المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا والتعاون على البر والتقوى مشروع في الذكر الحكيم مذكور وحق الجار مشهور وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب (الى آخره)

* * *

وما زالت الاندلس تستجيش بالمغرب أوان الضعف وملوك بني الاحمر يستصرخون بني مرين من وراء البحر إلى المائة التاسعة حيث صار السائل لا يجد مجيبا والصارخ لايسمع ملبيا وتخاذل المسلمون عن النصرة وشغلوا في المغرب بشؤونهم الخاصة وفتنهم الناجمة عن مد اليد الى اخوانهم في اسبانية بل انصرمت حبال آمالهم ببقاء ذلك القطر على الكلمة وأيقنوا أن سوف لا يبقى أحد في ذلك البر من الامة المسلمة فصارت ترد عليهم الاخبار وهم ساهون وتحدثهم الجالية والركبان بما خلفوا

وراءهم من الفجائع والفظائع وهم لاهون ، وإذا ثار بأحدهم ثائر للجهاد لم يجد علماً ينضوي اليه، ولا سنداً يعول عليه، ولا جماعة ينتظم فيها. ذلك بما أصاب المغرب من افتراق الكلمة وانحطاط الدول ، وتحول الاحوال الاوَل، فلما سقطت الاندلس كانت اختها المعدومة ناظرة اليها وهي تنشد

ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

وأما النصارى ففي بداية برازهم مع المسلمين في الجزيرة الاندلسية كانوا يستنجدون لإخوانهم وراء جبال البيرانه فتخف إلى صريخهم امم الفرنج والالمان والانكليز وربما نهض معهم امم اخرى من جميع أقطار النصرانية ولولا نجدات البر الكبير لاهل اسبانية لتحولت الجزيرة باسرها الى الاسلام، وكان الفاصل بين الفريقين جبال البيرانه بدل أن يكون بحر الزقاق، كما أنه لولا شارل مارتل المعروف عند العرب بقارله لسخر المسلمون قسما من أوربا وربما كانوا وصلوا الى القسطنطينية العظمى من طريقها حسبما كان يتخيل موسى بن نصير، ولكن دول أوربا خصوصا ما جاور منها اسبانية كانت لا تضن على هذه البلاد بدم ولا مال في مدافعة المسلمين تخلصا من غاراتهم الى ما وراء الجبال وحصولهم في قلب اوربا وكان نصارى اسبانية أنفسهم أهل شدة ومراس على الحرب، وكان أمراؤهم عند القتال يجمعون من في اقطاعهم من المقاتلة وينضمون الى الملك وبقي هذا شأنهم الى أن علقت آمالهم باجلاء المسلمين عن البلاد، ووجدوا في حالة الجند من جهة المؤونة قصوراً عن ادراك المرام، فرأوا انشاء مرابطة أشبه بمرابطة الاسلام، لا شغل لها الا الصلاة والقتال وسبق الى تحقيق هذا الوطر الفونس الباتليور صاحب أراغون فأنشأ جندية سماها بنظام

الخاص وجعل لها قوانين وعلامات وقاتل بستة آلاف من رجالها في غارته على بلاد المسلمين، ثم ظهر نظام الفرسان الهيكليين الذي انشيء سنة ١١١٩ فلم تمض بضع عشرة سنة حتى بلغ من القوة والاستفحال المبالغ التي لا تصح الا للدول، وسنة ١١٥٦ أنشأ إثنان من أمراء الاسبانيول أحدهما اسمه سويرو والثاني غرمان نظام مار جوليان الاجاص وذلك لكونهما بنيا حصناً في مكان مخصص بمار جوليان فيه غيضة أجاص نزل لهما عنها مطران طلمنكة

وسنة ١١٥٧ بعد وفاة الامبراطور الفونس السابع حينما جمع الموحدون عساكرهم لمنازلة طليطلة خارت عزائم الفرسان الهيكليين الذين في يدهم قلعة رباح فنزلوا عنها للدون سانشو أو شانجه الملقب بالمأسوف عليه فأعلن هذا الامير ان من أراد من أمراء البلاد الدفاع عن قلعة رباح فهي له أقطاعا بملحقاتها فلم ينهض احد وبعثت الحمية راهبا من دير فيترو سمي فيما بعد مار ريموند وراهبا آخر اسمه دياغو فلسكيز فطافا في البلاد وبالغا في التحريض والنفير حتى جمعا عشرين ألف مقاتل في تلك القلعة وامتلأت ذخائر فأنشأ لهم ريموند نظاما وقيدهم بروابط وسمى هذه الجندية الدينية بنظام قلعة رباح وجاءها التثبيت من البابا واستمسكت بقوانين مار بنوا وكانت علامتها الفارقة رداء أبيض وقلنسوة مرسلة من الرأس على المنكبين وبعد ذلك صارت علامتها صليبا أحمر على الثياب وفي هاتيك المدة تألف نظام رهباني حربي آخر يقال له نظام مار يعقوب السيف وثبته البابا اسكندر الثالث وجعلت لاصحابه علامات فارقة في الثوب وشكل الصليب وغير ذلك، وكانت مدينة القنطرة في يد فرسان قلعة رباح فأسلموها الى فرسان مار يعقوب رصارت مركزاً لهم ومن هذه الفرق الرهبانية المرابطة أيضا

فرسان مار جرجس الفامه نظمهم الفونس الثاني ملك أراغون سنة ١٢٠١ في نواحي طرطوشة وسنة ١٣١٧ بعد استئصال الهيكليين تألف في مونتيزة من أراغون نظام آخر باسم مارجرجس فانضم اليه النظام الاول وصارا واحداً وكان لكل نظام من هؤلاء رئيس اسمه المعلم أو الاستاذ ورتبته أعلى الرتب، ويتلوه القائد الكبير وينوب عنه اذا غاب، ويتلوه الكلافره وهو دهقان القوم المكاف بإدارة الاملاك وحفظ الاموال وكان في نظام ماريعقوب مجلس مؤلف من ثلاثة عشر أخالا يعقد ولا يحل المعلم بدون قرارهم

ووجد في اسبانية نظام راهبات محاربات سمي بنظام سيدات الفاس وأصل تأسيسه ان المسلمين بعد أن خسروا طرطوشه كروا لاسترجاعها وحاميتها قليلة فكادت تسقط لولا ماقيل من أن النساء هجمن نحو الاسوار وبذلن أنفسهن حتى رددن العدو فتأسس من ذلك الوقت نظام جندية للنساء، وسنة ١٣٧٩ قلد جويان الاول سيف الفروسية مائة شاب من أبناء الاعيان وأعطاهم وسام الحمامة وكان عقد الوسام عبارة عن سلسلة ذهب معلقة بها حمامة من الفضة في دائرة من الذهب وكان نذر اولئك الفرسان أن يكونوا أمناء لنسائهم

وأما مقصد هذه الرهبانيات كلها فهو حرب المسلمين وغزوهم وقد وجد غير ماذكرنا لكن هذه هي المشهورة وقد اتسعت سلطتها وانبسطت قوتها حتى صار يخشاها الملوك وأصبحت تستبد عليهم استبداد غزاة المغرب على ملوك غرناطة، فلما ثُل عرش غرناطة وتم مقصد فرديناند وإيزابلا وأدى هؤلاء الفرسان خدمتهم عول الملك وامرأته على إلغاء هذه النظامات ونال من البابا اينوشنسيوس الثامن أمراً بادارة هذه الرهبانيات وصارت منذ ذلك الحين الى نظر الملك

الفصل السادس

في سقوط غرناطة والجلاء الاخير

وصلنا في ذكر دولة بني الاحمر الى أبي الحسن علي المتولي الملك بعد محمد بن اسماعيل والذي يفهم من بعض مؤرخي الفرنج انه هو ابنه البكر وفي النفح يقول انه هو أبو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف بن محمد الغني بالله ولا يذكر كيف أفضت اليه الامارة بل جل مايقوله هنالك ان بني الاحمر ملوك الاندلس الباقية بعد استيلاء العدو على الجل كانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم الى زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالبي الاحمري واجتمعت الكلمة عليه بعد ان كان أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد المدعو بالزغل قد بويع بمالقة بعد ان جاء به بعض القواد من عند النصاري وبقي بمالقة برهة ثم ذهب الى أخيه أبي الحسن وانقضت الفتنة اهـ

وقال مؤرخو الفرنج انه لما ثار لزغل على أخيه وسرح أخوه الجيش في أثره فر هذا الى الدون انريك ملك قشتالة فتجاوز أبو الحسن حدود بلاده وأغار على بلاد الاسبانيول لكن روى دوليون قائد الثغور قابله بأخذ مدينة مونتجيقار ثم مات الدون انريك وتولى فرديناند وايزابلا فراسلهما أبو الحسن فى المهادنة فقبلا بها على شريطة أن يعترف سلطان غرناطة بسيادة ملك قشتالة فأجاب سفراء ابن الاحمر انهم غير مفوضين بذلك فأشخص فرديناند وايزابلا سفراءهما بطلب الجزية واقتضاء الخضوع من صاحب غرناطة فلما عرضوا ذلك على السلطان أبي الحسن أبى قبوله كل

الاباء وقال لهم اذهبوا واخبروا من أرسلكم ان الملوك الذين كانوا يؤدون الجزية قد ماتوا منذ طويل وان دار الضرب في غرناطة عادت لا تضرب فضة ولا ذهبا ولا تضرب الا سيوفا وحرابا وحيث كان فرديناند وإزابلا مشغولين بحرب البرتغال احتملا منه هذا الجواب وأجلا الانتقام منه الى وقت آخر

وأما أبو الحسن فافتتح الحرب على النصارى وهم قلعة الصخرة التي كان الاسبانيول قد استولوا عليها في أيام فرناند الرشيد لما بلغه من ضعف حاميتها فتسلقت عساكره أسوارها ليلا ووضعت السيف في الحامية وساقت البقية مقرنين في الاصفاد الى غرناطة وقفل أبو الحسن ظافراً منصوراً الى حاضرته فخرج الاعيان لملاقاته ولكن عامة أهالي غرناطة بزعم مؤرخي الاسبانيول لم يحتفلوا بما صنعه أبو الحسن خصوصا بسبي النساء فأظهروا الامتعاض ووزعوا المآكل على الاسرى وقيل انه لما اجتمع الامراء والفقهاء لتهنئة السلطان بهذا الفتح اذا بصوت هائل ارتفع فيهم يقول الويل لغرناطة قد دنا أجلها إن انقاض الصخرة ستقع على رؤوسنا فارجف هذا الصوت جميع الحضور، وتطلعوا فاذا بشيخ طاعن في السن من طبقة الدراويش قد خرج يطوف في الاسواق ناعقا بالخراب ولا نعاق الغراب، حتى أجزع الجميع، وتطير منه الرفيع والوضيع، وأما أبو الحسن فعده من جملة الممسوسين ولم يلتفت اليه

وقال بعض اولئك المؤرخين أن مملكة غرناطة لعهد أبي الحسن كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبع وتسعين قلعة عدا الابراج والحصون والقرى العامرة، وورد في التاريخ العام للعلامة كنتو الشهيران

سلطنة غرناطة في تلك الايام كانت تحتوي ثلاثين مصراً وثمانين مدينة صغيرة وعددا لايحصى من الابراج والحصون والعساكر، وقد قدر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين في الاندلس باربعة ملايين من النسم وقالوا إن السلطان أبا الحسن بن الاحمر داخلته الخيلاء وخامره العجب ببسطة سلطانه وكثرة جنوده ففي سنة ١٤٧٨ لما حضر الدون جان دوفيرا من فرسان فرديناند وإيزابلا ومعه جماعة يتقاضى الجزية المعتادة من مولاي أبي الحسن احتفل السلطان بلقائه وظن في الاول إنه قادم لمبارزة أحد فرسان المسلمين لما كانت جارية به العادة بين الفريقين من البراز والسجال في ألعاب الفروسية أيام الموادعة فلما عرض له الامر أجابه الجواب السابق من أن الذين سبق لهم أن يؤدوا الجزية قد ماتوا والآن دار ضربنا عادت لاتضرب إلا نصالا وحرابا فلم يتمكن الملك وزوجته من جواب أبي الحسن إلا بعد ثلاث سنوات لاشتغالهما بحرب البرتغال. وكان بين ملوك الاسلام والاسبانيول عهد على أن لكل فريق أن يشن الغارة على أرض الفريق الآخر خفية بدون نشر بنود ولا قرع طبول بشرط أن لا تطول مدة غارته فوق ثلاثة أيام فعلم أبو الحسن أن قلعة الصخرة قايلة الحامية وهي قلعة أمنع من عقاب الجو مبنية على قنة جبل لها طريق واحد منحوت في الصخر فقبل عيد الميلاد بأيام انتبه أهل الصخرة ليلا على صياح « المغاربة . المغاربة » فدخلوا القلعة وقتلوا الحراس وأسروا من سلم وساقوهم الى غرناطة وجرى ماجرى

وقال المقري في شأن ملك هذا السلطان مايأتي

واستقل السلطان أبو الحسن بما بقي من ملك المسلمين بالاندلس وجاهد

الاعداء وافتتح عدة أماكن ولاحت له بارقة الـكرة على العدو وخافوه وطلبوا هدنته وكثرت جيوشه فاجمع على عرضها بين يديه وأعد لذلك مجلسا اقيم له خارج الحمراء وكان ابتـداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة ولم تزل الجنود تعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من محرم السنة التي تليها، وهو يوم ختام العرض وكان معظم المتنزهين بالسبيكة وما قارب ذلك فبعث الله سيلا عرما على وادي حدرة بحجارة وماء غزير كافواه القرب عقابا من الله وتأديبا لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر واحتمل الوادي ماعلى حافتيه من حوانيت ودور ومعاصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق وبلغ تيار السيل الى رحبة الجامع الاعظم ولم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد وكان بين رؤساء الافرنج في ذلك الوقت اختلاف عظيم فبعضهم استقل بملك قرطبة وبعضهم باشبيلية وبعض بشريش وعلى ذلك كان السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات، وركن الى الراحات وأضاع الاجناد وأسند الامر الى بعض وزرائه واحتجب عن الناس ورفض الجهاد والنظر في الملك ليقضي الله تعالى مايشاء وكثرت المظالم والمغارم فانكر الخاصة والعامة ذلك منه وكان أيضاً قد قتل كبار القواد وهو يظن أن النصاري لا يغزون البلاد ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد واتفق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها وانقاد له الرؤساء المخالفون ووجدت النصارى الطريق الى الافساد وذلك انه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من بنت عمه السلطان أبي عبد الله الايسر وكان قد اصطفى على امهما رومية له منها بعض ذرية وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية تخيف أن يقدم

أولاد الرومية على أولاد بنت عمه السنية وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب لميل بعضهم الى أولاد الحرة وبعضهم الى أولاد الرومية وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لامدحده وضربوه ولما تم أمد الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الاولاد وتشكي الناس مع ذلك بالوزراء والعمال اسوء ماعاملوا به الناس من الحيف والجور فلم يصغ اليهم وكثر الخلاف واشتد الخطب وطلب الناس تأخير الوزير وتفاقم الامر انتهى

وورد في تواريخ الافرنج أن السلطان أبا الحسن كان متزوجا بامرأتين احداهما ابنة عمه واسمها عائشة الحرة والثانية ثريا اسبانيولية اسلمت كان أبوها قائد مرنوس وله من الاولى أبو عبدالله محمد ويلفظ في بلده بالتخفيف فيقال أبو عبد الله وحرفه الاسبانيول أبو عبديل ومن الثانية ولدان أحدهما سيدى يحيي الذي كان يريد أبوه أن يوليه عهده اكراما لوالدته الحظية وبهذه المناظرات انقسمت غرناطة الي قسمين ومال قسم من الرؤساء والاعيان نحو الامير أبي عبد الله واشتدت الفتنة التي مصدرها النساء وفي خلالها ارتكب السلطان أبو الحسن الخطأ في منازلة الصخرة لوقوع الفرقة في مملكته فلما بلغ خبر أخذها الملك فرديناند جزع جزعا شديداً وأعمل في النفير وجمع مقاتلة الثغور، وبث الرهابين في جميع الاقطار يستنفرون فرسان النصرانية لقتال الاسلام، فأول من لبي الدعوة الدون لذريق بونس ليون الملقب بمركيز قادس وكان له في الاندلس أراض واسعة وحصون عديدة وعنده مقاتلة كثيرة، فاجمع الغارة وبلغه أن قلعة الحامة قليلة الحراس فارسل من جماعته رجلا حاذقا مقداما دريا باقتحام الثغور خبيرا بتسلق

الجدران اسمه اورتغادو براد و فرادله في نواحي الحامة بليلة مظلمة وطاف حول الاسوار وصعد القلعة وعين مكان وضع السلالم وعاد مخبرا مولاه بما شهد فجمع هذا اصحابه وساروا في ثلاثة آلاف فارس واربعة آلاف ماش وكانوا في النهار يكمنون وفي الليل يسرون بدون جلبة ولا ضوضاء حتى وافوا الحامة قبل انبلاج الفجر بساعتين فسار اورتغادو بثلاثمائة مقاتل وثلاثين من حملة السلالم الى جانب القلعة فتسلقوها بدون عائق وقتلوا بعض الحرس وارتفعت الصيحة وملكت القلعة لكن أهل المدينة وان كانوا في الاغلب تجارا وصناعا فقد كانوا ذوي حفاظ وشدة بأس وبصائر في الحرب كسائر المغاربة فرشقوا المحاصرين بالنبال والحجارة وحملوا على القلعة فضيقوا عليها حتى خاف الاسبانيول أن يسترجعوها منهم وتشاوروا في حرقها والخروج منها فنهاهم المركيز عن ذلك وحرضهم على الثبات واستحر القتل بين الفريقين وقاتل أهل الحامة نساءاً ورجالا صغاراً وكباراً قتال الاسود عن أشبالها لكن العدو تغلب عليهم فقتل بعضاً وأسر بعضا ونهب البلدة ودمرها تدميرا

وأسرع فارس مغربي الى الحمراء يخبر السلطان أن النصارى قد دهموا تلك الليلة قلعة الحامة وحدث عراك شديد على الاسوار وانه عندما فارق المدينة كانت القلعة في يد النصارى فأرسل من غرناطة الف فارس لاجل المشارفة واستقصاء الخبر فوجدوا العدو قد تسلم القلعة والبلدة فزحف السلطان أبو الحسن بثلاثة آلاف فارس وخمسين الف راجل ولم يستأن ريثما يجهز جيشه بالمدافع والعدة وكان للمركيز صاحب هو الدون الونزو القرطبي قدم لنصرة صاحبه فلما أحس بقدوم أبي الحسن فر الى النقيرة فلم

يتعقبه السلطان بظاهر قاصداً الحامة وحصرها من كل جهة وركز الاعلام حواليها لكن حيث كان جيشه مكشوفا للعدو أصبح هدفا للسهام فقتل منه كثيرون وارتدوا على أعقابهم وادرك ابن الاحمر خطأه بالزحف بدون آلات الحصار ولكنه لم يرجع عن كيده بل أمر بحفر الخنادق حول السور وواصل القتال فقتل وجرح من المسلمين نحو الالفين

فأعمل المسلمون الحيلة في قطع المدد عن الحامة وكان لها نهر يسقيها فأداروه عنها بعد أن تقاتلوا عليه قتال اليأس واذ لم يكن فيها عيون ولا آبار إشتد الخناق بالاسبانيول ولم يبق لهم مورد سوى قناة صغيرة وعليهم اذا وردوها أن يقاتل منهم فريق ويشرب فريق حتى يصح أن يقال ان كل نقطة ماء بنقطة دم

ثم سقطوا على بئر أغنام ماؤها قليلا ولكن بلغ منهم الضيق حده فأرسلوا بالصريخ الى ملوكهم فأصرخهم دوق مدينة سيدونيا من اشبيلية في خمسة آلاف فارس وخمسين الف ماش وظاهره رئيس فرسان قلعة رباح وتقدم فرديناند بحاشية غير وافرة وأرسل يقول للدوق ان ينتظر اجتماع الحشود وأجابه الدوق انه لا يمكنه الانتظار لكون الذين تحت الحصار في ضيق شديد واذ علم أبو الحسن بدنو الجيوش عزم على الهجمة الاخيرة وفي صباح يوم اجتمع نخبة من أبطال المسلمين وتسلقوا السور من ناحية برج عال ووضعوا السلالم وقتلوا الخفراء ووصلوا الى السوق وكادوا يفتحون الابواب وهم نحو سبعين رجلا فقط فأحاط بهم الاسبانيول احاطة السوار بالمعصم فانضموا اشبه دائرة رافعين في وسطهم راية النبي صلى الله عليه وسلم وظلوا يدافعون عن حوضهم دفاع الليوث حتى لم يبق

منهم سوى رجل واحد سقط وهو معتنق الراية النبوية فأصاب أبا الحسن اليأس من هذا الفشل وأقلع عن الحامة الى غرناطة ووصلها بلدا الكثيف انتهى ماذكره الافرنج في شأن الحامة وهاك ماورد في نفح الطيب بهذا الشأن

وصح عند النصارى ضعف الدولة واختلاف القلوب فبادروا الى الحامة فأخذوها غدراً آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة وغدوا للقلعة وتحصنوا بها ثم شرعوا في أخذ البلد فملأوا الطرق خيلا ورجالا وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ونهبوا الحريم والناس في غفلة أيام من غير استعداد كالسكارى فقتل من قضي الله تعالى بتمام أجله وهرب البعض وترك أولاده وحريمه واحتوى العدو على البلد بما فيه وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عند مابلغهم العلم وكان النصارى عشرة آلاف بين ماش وفارس وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه واذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا فرجع العدو الى البلد فحاصرهم المسلمون وشددوا في ذلك ثم تكاثر المسلمون خيلا ورجالا من جميع بلاد الاندلس ونازلوا الحامة وطمعوا في منع الماء عن العدو وتبين للعامة ان الجند لم ينصحوا فأطلقوا ألسنتهم بأقبح الكلام فيهم وفي الوزير وبينما هم كذلك اذا بالنذير جاء ان النصارى اقبلوا في جمع عظيم لاغاثة من بالحامة من النصارى فأقلع جند المسلمين من الحامة وقصدوا ملاقاة الواردين من بلاد العدو ولما علم بهم العدو ولوا الادبار من غير ملاقاة محتجين بقلتهم وكان رئيسهم صاحب قرطبة

ثم ان صاحب اشبيلية جمع جنداً عظيما من جيش النصارى الفرسان والرجال وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى وعند ماصح هذا عند

العسكر اجتمعوا وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد والصلاح الرجوع الى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا مايحتاج اليه الحصار من العدة والعدد، فعند ما أقلع المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون وتشاوروا في إخلائها أو سكناها واتفقوا على الاقامة بها وحصنوها وجعلوا فيها جميع مايحتاج اليه وانصرف صاحب اشبيلية وترك أجناده وفرق فيهم الاموال ثم عاد المسلمون لحصارها وضيقوا عليها وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة منه ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين وخاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى فعادوا عليهم وتردى بعضهم من أعلى الجبل وقتل أكثرهم وكانوا من أهل بسطة ووادي آش فانقطع أمل الناس من الحامة ووقع الاياس من ردها انتهى

فأنت ترى قرب الروايات العربية من الافرنجية في مؤداها وقد آثرنا المقابلة بين النقلين زيادة في التمحيص وامعاناً في النصح لقلة تداول هذا التاريخ في العربية

ثم قال صاحب نفح الطيب وفي جمادى الاولى من السنة تواترت الاخبار ان صاحب قشتالة أتى في جنود لا تحصى ولا تحصر فاجتمع الناس بغرناطة وتكلموا في ذلك وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصد أن يضيفها الى الحامة وجاء بالعدد والعدد وأغارت على النصارى جملة من المسلمين فقتلوا من لحقوه وأخذوا جملة من المدافع الكبار ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة وناوشوا النصارى فألجأوهم الى الخروج عن الخيام وأخذوها فهرب النصارى وتركوا طعاما كثيراً وآلة ثقيلة وذلك في السابع والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة انتهى

وقال مؤرخو الافرنج ان فرديناند عقد مجلسا في قرطبة ليرى ماذا يفعل بالحامة فأشار اكثرهم بدك حصونها واخلائها لصعوبة حفظها من طارقة العدو ولزوم حياطتها دائما بحامية وافرة تقتضي نفقات باهظة فعارضت في ذلك الملكة إيزابلا وأصرت على ابقائها وحملت حمايتها لنظر قائد اسمه فرناند بورتو كريرو مع اربعمائة فارس والف راجل وأجمع فرديناند على حصار لوشة وهي موقع حصين على مقربة من الحامة فاستنفر جميع المدن وبالغ في حشد العساكر وبلغ ذلك المسلمين فراسلوا اخوانهم من وراء البحر فارسل فرديناند وإيزابلا اسطولهما لمنع إجازة المدد واكتساح أرياف بر افريقية وسار من قرطبة وقد ترك أكثر جنوده في استجة وإنما استصحب خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف ماش فنازل لوشة فشاهد من حصانة لوشة وصعوبة مسالكها ومنعة النهر المطيف بها ماهاله فادرك خطأه بسرعة الاقدام لكنه أرسل كتيبة من جيشه للنزول بربوة محاذية للجسر يسميها المغاربة « صنتو أبو الحسن » وكان قائد لوشة رجلا يقال له علي العطار شيخا عالي السن مناهزاً التسعين لكنه لم يفقد شيئاً من صلابة جنانه ولا قوة ادراكه وهو حمو الامير أبي عبد الله ابن السلطان أبي الحسن وكان عنده ثلاثة آلاف فارس فارسل في الليل طائفة من جنده فكمنوا وراء « صنتو أبي الحسن » وعند الصباح خرج وهاجم المسيحيين فثاروا في وجهه فانهزم إمامهم خديعة منه فطاردوه ملحين واذا بالاصوات ارتفعت من خلفهم فالتفتوا فاذا بالمغاربة مقبلين فرجعوا للمحافظة على خيامهم فكر عليهم علي العطار وأرهف فيهم السيف وبقي يطاردهم ويستلحم منهم حتى تكاثرت نجداتهم فعاد عنهم وقد قتل منهم جملة وافرة وفيهم من أكابر فرسانهم

لذريق جيرون صاحب قلعة رباح الذي استشهر الاسبانيول فقده كثيرا فلما رأى الملك فرديناند مارأى أيقن بلزوم الرجعة وتأهب للاقلاع واذ رأى علي العطار حركته في الرجوع برز كالاسد اذا جاع وهجم على معسكر الاسبانيول فهزم منه جانبا فتداعى كله للفرار وارتفعت الضوضاء والصياح وبذل المسلمون فيهم السلاح فثبت فرديناند وبطانته ريثما أمكنهم نقل الخيام والمدافع والميرة لكنه كاد يلقى حتفه مرتين لولا تهالك الدون جان دوريبرا في وقايته وما زال في ذلك المأزق حتى وصل مركيز قادس وحال بينه وبين العدو فنجا الملك وفر الى بلاده وعلي العطار يطارده الى ريوفريو فلحق بقرطبة مدحوراً كسير القلب

وعلى رواية اخرى أن السلطان أبا الحسن خف الى نجدة لوشة وانه فى ٢٦ جمادي الاولى سنة ٨٨٧ الموافق ١٣ تموز سنة ١٤٨٢ هاجم معسكر فرديناند من الوراء بينما كان علي العطار قد نهد اليه من جهة المدينة وانه بذلك دارت الدائرة على الاسبانيول وهذه الرواية أقرب الى خبر نفح الطيب اذ فيه أن جماعة من أهل غرناطة ذهبوا الى لوشة وناوشوا النصارى فاخرجوهم من الخيام

وقال آخرون أن أبا الحسن لما حضر بجيشه نجدة للوشة وجد فرديناند بجيشه قد جاز الدروب وانه لما بلغت أخبار لوشة حامية الحامة هامت قلوبهم فقصدهم أبو الحسن فاسرع فرديناند باصراخهم فارتد ابن الاحمر عنهم وقصد مدينة قانيت فاستولى عليها وقفل الى غرناطة فبلغه انها بايعت ولده أبا عبد الله محمد وتبعها كثير من مدن المملكة فتوجه الى مالقة التي حافظت على عهده هي ووادي آش وبسطة

قال بعض مؤرخي الافرنج انه في تلك الآونة استحكمت عري الخلاف في بيت ملك غرناطة وأخذ بنو سراج عشيرة من أعيان غرناطة أصلهم من قرطبة (١) بالخلاف مع بني زغبة واستفحل أمر أبي عبد الله نجل السلطان أبي الحسن ومالت اليه العامة بما نقموا على أبيه ذهاب الحامة وهي مفتاح غرناطة فلما قفل عنها المرة الاخيرة خائبا وجد الحاضرة مقفلة الابواب في وجهه فمال الى بسطة وهناك جمع خمسمائة رجل وحضر بهم الى الحمراء فقتل من التقاه في الدور والساحات ولما أصبح الصباح تكاثروا عليه فافنوا أكثر جماعته ففر شريداً الى مالقة. وفي هذه الحادثة يقول المقري انه هرب الاميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفا من أبيهما أن يفتك بهما باشارة حظيته الرومية ثريا واستقرا بوادي آش وقامت بدعوتهما ثم بايعتهما تلك البلاد المرية وبسطة وغرناطة ، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن الى مالقة

وفي روايته شيء من مخالفة الرواية الافرنجية لكن على اتفاق في النتيجة فانظروا أي زمن اختاره امراء غرناطة للشقاق والخلاف واذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه

أما أبو الحسن فاصبح بعد انقسام المملكة غير قادر على مناطحة فرديناند قرنا لقرن ولكنه يراقب الفرصة للقيام بعمل يمكنه من قلوب المغاربة ويعيد عليه سلطانه فعزم على الغارة في أراضي دوق سيدونا وزحف بستة آلاف راجل وألف وخمسمائة فارس فلما حصل في بلاد النصارى بين جبل طارق

---

(١) رواية ستانلي لان بول المؤرخ الانكليزي ان اصلهم من قرطبة فيكون بنو سراج غرناطه هم سلالة بني سراج قرطبة المذكورين في نفح الطيب

وقسطليرة سرح اربعمائة فارس نحو حصن الجبل وأرسل اربعمائة اخرى نحو طريف فعادوا بغنائم لاتحصى ثم رفأ الى ميناء الحصن اسطول بقيادة كارلوس دوفليرا فالتمس منه بطره دوفرغاز أن يتولى قيادة الحصن مكانه ليخرج الى لقاء العدو وسار بسبعين فارسا الى جهة قسطليرة وكانت طلائع السلطان منفصلة عن جيشه فناوشها القتال نخرج اليه ثمانون فارسا وحمي الوطيس فقتل جماعة من أبطالهم وجرح دوفرغاز وعاد كل من الفريقين الى مكانه فخيم أبو الحسن بساحة قسطليرة وأحرق بعض بيوتها ولم تمكنه منها ولكنه اعجب بشجاعة دو فرغاز فاستدعى اليه أسيرين من النصارى وسألهما ماهي وظائف قائد جبل طارق فأجاباه ان له على كل قطيع يمر بأرضه كبشا فصاح أعوذبالله من أن اعتدي على فارس مقدام كهذا وأرسل اليه اثني عشر رأس غنم عن الاثنى عشر قطيعا التى عنده قائلا لمن أمره بسوقها اعتذر له عني بجهلي الواجب فأجاب دوفرغاز الرسول قبل لي يدي جلالته وقل له اني أسيف من انه لم يوجد عندي جند أكثر من هذا لاقوم بواجب لقائه وأملي عند وصول الثلاثمائة فارس الذين أرسلت بطلبهم من شريش ان احتفل له بوليمة فاخرة ثم صرف الرسول مكرما

ولما بلغ أمراء الاسبانيول غزاة أبي الحسن عقدوا النية على أخذ الثأر واهتبلوا هذه الفرصة من اشتغال المسلمين بالفتنة فيما بينهم فاجتمعوا في النقيرة تحت زعامة مركيز قادس الدون بطرة هنريكس وقائد اشبيلية الكونت دوسيفونتاز والدون الونزو دو كردناز والدون الونزو دواغيلار وغيرهم وبلغ عدد فرسانهم نحو ثلاثة آلاف مع رجالة كثيرة وجعلوا وجهتهم الجبال لوجود قطعان الضان فيها بكثرة وخيلت لهم أنفسهم

الوصول الى وادي آش والاستيلاء عليها بغتة لضعف حاميتها فساروا مجتهدين في إخفاء أثرهم ولكن بلغ خبرهم وادي آش، وهي وان كانت حاميتها قليلة فكان عليها قائد هو جيش بنفسه وأمة برأسه الا وهو الامير ابو عبدالله الزغل اخو السلطان أبي الحسن وكان أخاه أيضا في البسالة والاقدام لكنه أحذق وأليق وأدرب بكيد العدو وأبصر بمواقع الكر ومعنى الزغل عندهم الفتى الغض الشباب وكان هذا الاسم وحده يلقي الرعب في قلوب الاسبانيول

فلما اشرف الاسبانيول من الجبل المطل على مرج مالقة ابتهجوا برؤية تلك الارض ابتهاج بني اسرائيل بأرض الميعاد واذ شعر بهم الاهالي جمعوا اقطاعاتهم ولاذوا بحصون الجبال فاحرق الاسبانيول المنازل المهجورة واخذوا بشعاب تلك الجبال، فتردى بعضهم في الاوعار، فبصر بهم المغاربة من ابراجهم فخرجوا ونضحوهم بالنبل ورموهم بالحجارة وتصايحوا بهم من كل جانب، وارتفعت الاصوات، وتجاوبت الاصداء، فوقع الرعب في قلوب الاسبانيول وأغاث بعضهم بعضا وانضووا الى مكان واحد وتشاوروا فيما يصنعون فاجمعوا الرحلة وترك الغنائم فساروا في الوعر والمغاربة يمطرونهم سيلا دافقا من النبل حتى خارت قواهم وجاعدوا سحابة يومهم الى ان جن الظلام فحصلوا في وادٍ عميق واذا بصوت قد ملا الربى والوهاد « الزغل الزغل » فسأل صاحب انتياغو ماهذا، فاجابه أحد فرسانه هذا صوت الزغل فلعله قريب، فقال لفرسانه لنعلم هذا الجبل ذلك خير لنا من ان نذبح كالغنم في قعر الوادي، فاخذوا صعداً والنشاب والحجارة في ظهورهم حتى استلحموا لاسيما الرجالة الذين كانوا يتشبثون باذناب الخيل فتهوي بهم وبفرسانها فيهلكون جميعا وما زالوا في هذا الضيق الى ان بلغ

كردنازقنة الجبل فالتفت فاذا به قد فقد حامل رايته وجماً من أصحابه وانسبائه ورأى نفسه محاطاً من كل جانب ثم تردى في مضيق حرج جداً وانتثر نظام جيشه

أما مركيز قادس فسار من جهة أخرى ومعه الكونت دوسيفنتاز والونزودواغيلار فالتقوا بعساكر الزغل فتناجزوا وضافر الزغل من هنالك من ابطال الجبليين فانكشف الاسبانيول وأثخن فيهم المسلمون قتلا واسراً وأذرعوا الفتك فقاوم المركيز مقاومة شديدة لكن سقط أخواه وولدا اخيه صرعى بجانبه ولما رأى الثالث من اخوته قد خر صريعاً طار قلبه شعاعا وأجهش بالعويل ولم يتمالك من البكاء وقتل فرسه فقدم له فرس آخر والتمس منه أصحابه الفرار فساعدهم فيه وانهزم بفلهم الى النقيرة

وأما الكونت دوسيفنتاز فبقي في الجبل مع جماعة وأرادوا اللحاق بالمركيز فمروا بجثث القتلى من اخوانهم وفيهم سراة الاسبانيول وأماثل رجالهم ومغاوير ابطالهم فأصابهم جزع شديد وظلوا منهزمين الى النقيرة وتاه منهم جملة وافرة في الشعاب وأسرهم الجبليون حتى النساء واعتقلوا منهم بحصن مالقة نحو مائتين وخمسين فارسا وأكثر من خمسمائة راجل

ولما وصل مركيز قادس الى النقيرة مفلولا شريداً أشعث أغبر مخضبا بالدم عظمت النكاية في قلوب الاسبانيول لانه كان عظيم المكانة فيهم ولم يجسر أحد أن يعزيه بأخوته بل لزم غرفته كئيبا حزينا وانتشر خبر هذه الهزيمة الشنعاء في البلاد فارتجت الثغور وساحت العبرات وهلعت القلوب حتى قلب فرديناند وايزابلا في وسط قصرهما أما المغاربة فطارت قلوبهم فرحا لاسيما عند ماشاهدوا أمراء الاسبانيول وأعيانهم مقيدين بالسلاسل تجلبهم فلاحو الجبال وفي ايديهم راياتهم والكونت دوسيفنتاز

من جملة من ثقفوهم

وهاك ما ورد فى (النفح) بشأن هذه الوقعة قال فى صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع رؤساء النصارى وقصدوا قرى مالقة وبلش فى نحو الثمانية آلاف وفيهم صاحب اشبيلية وصاحب شريش وصاحب استجة وصاحب النقيرة وغيرهم فلم يتمكنوا من أخذ حصن ونشبوا فى اوعار ومضايق وخنادق وجبال واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة وصار المسلمون ينالون منهم فى كل محل حتى بلغوا مالقة ففر كبيرهم ومن بقي قتل أو اسر. وكان السلطان أبو الحسن فى ذاك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب وبقي أخوه أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند وقتل من النصاري فى هذه الوقعة ثلاثة آلاف وأسر نحو الفين من جملتها خال السلطان وصاحب اشبيلية وصاحب شريش وصاحب النقيرة وغيرهم وهم نحو الثلاثمائة من الاكابر وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الانفس والاموال والعدة والذهب والفضة انتهى

وأما غرناطة فغبطت أبا الحسن على ما أصاب من الغنم والفوز وثارت بأبي عبد الله ولده لاجل الجهاد فلبي الدعوة وعقد عزمه فوراً على الاغ الغارة حدود قرطبة فحشد سبعمائة فارس وسبعة آلاف ماش وسار الى لوشة حيث وافاه حموه علي العطار بجيش من الفرسان كلهم مغاوير ثم دخل أرض النصارى واكتسح بلادهم الى حدود اشانة

وكان علي العطار خبيراً بالارض لكثرة ما قاتل فيها في زمانه فابصر ناراً على علم فقال لصهره لقد أصبحنا مكشوفين فانسرع الى فتح لشانة فسار معه أبو عبد الله وكان الدون دياغو دو قرطبة في حصن بانية وقد علم بقدوم المغاربة فخرج بمائتين وخمسين فارسا والفين ومائتي راجل لانجاد ابن أخيه

فى لشانة وفي الطريق تذكر أنه نسي راية بانية التي هي شارة يمنه فنشر راية قبرة وعند وصوله انتعش به ابن أخيه مما اعتراه من خوف العدو وبرز الكونت لمنازلة العدو فتلاقيا وراء ربي وهضاب وقد أثقلت الغنائم حركة المغاربة وشوهد أبو عبد الله ممتطيا جواده الاشهب تحف به بطانته الباهرة ولما ظهر لابي عبد الله جيش النصارى سأل حماد عن رايتهم فأجابه لست أعرف ياسيدي هذه الراية وأظن الاندلس كلها زاحفة الينا اذ لا يمكن أن أهل مدينة واحدة يتقحمون لقاءنا واشتعلت نار الحرب واذا بأحد القواد قد جاء الاسبانيول بمدد جديد وعزف بموسيقي إيطالية فقال علي العطار هذه ألحان طليانية أهل العالم كله أصبح ضدنا وكان الضباب كثيفاً فغم على المسلمين أمر العدو وظنوه ضعف ما هو فكانوا يقاتلون رجوعا حتى بلغوا ساقية هناك فوقف السلطان أبو عبد الله على ضفتها حتى عبرتها رجاله وبقي الحرس حواليه والقتال بينهم وبين الاسبانيول فانهزم الحرس وعبروا الماء وأصبح السلطان فريداً برأسه فترجل وتوارى وراء الصفصاف لئلا يعرفه الاسبانيول فحضروا اليه وامسكوه وظنوه كبيراً من كبراء المغاربة فعادوا به الى اشانة أما علي العطار فثبت سائراً والعدو في أثره لكنه كان يكر عليهم فيبدد شملهم ويستأنف سيره ولما وصل الخبر الى فرسان النقيرة اغتنموها فرصة لادراك الثأر وسار الدون الونز ودواغيلار بجيش فالتقى بالمغاربة على ضفاف الشنيل فاقتتلوا شديداً وزعموا أن علي العطار أبصر الدون الونز فقصده وطعنه بحربة فاثبتها في قسم من درعه ولم تصبه بضرر فانتضى حسامه ووثب عليه كالليث الذي قد ثكل شبله فدفع الفارس الاسباني عن نفسه وبقي القرنان يتساوران ساعة تارة على ضفة

النهر وطوراً في الماء وأثخن ذلك الشيخ العجيب جراحات فرق الدون لشخيوخته وعرض عليه التسليم فأباه فدهمه الدون بضربة على ام رأسه فخر صريعاً في النهر

قالوا : وكان مصرعه سببا في فشل المغاربة فعبروا النهر مفلولين وغرق منهم كثير وأما أبو عبد الله فأحضر لدي كونت قبرة فأعظم موصله وعزاه بما يناسب المقام قائلا له ان القضاء الذي قضى عليه هذه المرة ربما يقضي له مرة اخرى،، ووصل سيدي غالب الغرناطي بالصريخ الى لوشة فغرناطة وأخبر أن السلطان أبا عبد الله قد وقع في يد العدو وان العطار قد قتل فجزع المسلمون جزعا شديدا ومالت القلوب الى السلطان أبي الحسن وتطير وامن بي عبدالله استشعر واصدق أقوال المنجمين بحقه بأنه سيكون سقوط غرناطة على يده مما لقب لاجله بالشقيتو اي الشقي، ودخل أبو الحسن الحمراء واستقر ثانية في كرسيه وانحازت امرأته الحرة الى محلة البيازين وانقسمت العاصمة شطرين فكتب أبو الحسن الى الملك فرديناندو والملكة إيزابلا أن يسلما اليه ولده وهو يسلمهما الكونت سيفوتاز وسبعة امراء آخرين فأبيا تسليمه خوفا من أن يقتله لا حذرا عليه بل خشية من انقضاء الفتنة بينهما وارسلت امه من جهة اخرى تعرض عليهما رده اليها على وثيقة أن يعترف بسلطة ملك قشتالة ويؤدي جزية وافرة كل سنة ويقدم النفقات العسكرية ويرد اربعمائة أسير نصراني ويقدم سنويا سبعين رقيقا مدة خمس سنوات ويرهن على ذلك ولده الوحيد وأولاد اثني عشر بيتا من بيوتات المغاربة

وحيث كانت إيزابلا غائبة لم تحظ عائشة بجواب وخرج فرديناند

فشن الغارة على أراضي غرناطـة وأبو الحسن ملازم مكانه لا يخرج اليه خوفا من أن يعود فيجد الابواب موصدة في وجهه كالعادة فكان نظير النمر الكاسر المحبوس في القفص وصيده بازائه وهذه نتيجة استبداد النساء بالامور ودخولهن في الاحكام ثم عادت إيزابلا فاطلقت مولاي أبا عبد الله على شريطة أن يعترف بسلطانها وسلطان زوجها ويطلق من في جانبه من اسرى المسيحيين فخرج أبو عبد الله بحاشية وافرة لزيارة الملك فرديناند فلما قابله انحنى لاجل تقبيل يده فأبى فرديناند ذلك وانهضه بيده ولاطفه واكرمه

قالوا وقدم ابن سراج من غرناطة ومعه ولد أبي عبد الله وابناء الاشراف الغرناطيين فاودعوهم رهنا وجيء بالسلطان أبي عبد الله الى غرناطة وسار فرديناند في تشييعه بضع ساعات ولما وصل أبو عبد الله الى الحاضرة ثار به والده وأصحاب والده من جهة وانتصرت له والدته ومن اليها من اخرى فكان هنالك في ذلك الوقت الضيق مشهد الحماقة الاعظم وجرى من الامور المنكرة ماليس في كتاب وامتلأت الاسواق بالمتقاتلين بعضهم ينادي باسم أبي عبد الله والبعض الآخر باسم والده أبي الحسن وكان أكثر ميل العامة الى أبي عبد الله فسالت الدماء وأصبحت حمراء غرناطة اسما على مسمى الى أن كل الناس من تقتيل بعضهم بعضا والعدو على الابواب وسئموا من اهدار دماء المسلمين أعظم ما كانت الحاجة الى ادخارها لدفاع العدو وارتضى ابو عبد الله اخيرا بالخروج من غرناطة والانحياز الى المرية المدينة الثانية بعد تلك في الابهة والشأن وتشامخ البنيان لكن والدته حرسها الله لم تكن راضية عن ذلك بل قالت له ان الملك الذي لا يقدر ان يستقر في عاصمة ملكه لا يصح ان يسمى ملكا وكان بودها ان يبقى

ابنها في الحمراء ولو استمرت الفتنة وجري من الدم اضعاف ما جرى والحق ان لهذه المرأة ولضرتها الثريا اليد الطولي في تعجيل سقوط غرناطة

* ياربي مما تجر النساء *

على انه وان كان أبو عبد الله قد ارتحل عن غرناطة فقد بقي له في البيازين رجال كلما اغتاظوا من أبيه نادوا باسمه فأجمع أبو الحسن أخير على الغزو في بلاد العدو لعله يزداد تمكينا وكان فرديناند بقسم كبير من جيشه في غزاة بعيدة فعقد السلطان على الجند لقائد مالقة وجعل معهد اللقاء رندة وهي حصن مشهور بالمنعة كان لذلك الوقت عش الدعارة ومركز قطاع السبل ومأوى الفتاك، وأهله لا يألون النصارى خبالا ، ولا يفترون عن مغاورتهم من حصنهم، وسجونهم ملأى بأسراهم ، وعليهم قائد يليق بهم اسمه حامد الزغبي من بني زغبة الموصوفين بالشدة والقسوة، وعندهم طائفة من الافريقيين من غمارة، ولم يكن في الدنيا أحسن من هؤلاء اذا ركبوا لانهم سريعو الكرة، عقبان عند الوثوب، شديدو الوطأة، اذا أقبلوا من معاصمهم اندفقوا على مروج الاندلس ولا اندفاق السيل المنهمر من الجبال، فاجتمعت الاجناد في رندة وكانت نحو أربعين الف ماش والف وخمسمائة فارس وزحفوا تحت قيادة قائد رندة وقائد مالقة وذلك في ١٧ ايلول سنة ١٤٨٣ فانتشروا في السهول وامتلات أيديهم من الغنائم وامتد الصريخ بين رؤساء النصارى فجمع صاحبا قادس وبورتو جيشا كثيفا ونهضا لمدافعة العدو وكان المسلمون قد أقاموا كمينين أحدهما عند مدخل سهل الاندلس والثاني حفافي نهر لوبرة فلما انتشروا في ارض العدو نهد اليهم جيش من اوترره والتزموا الرجوع نحو لوبرة فطاردهم الاسبانيول

حتى وصلوا الى الكامنين فثاروا بهم وحمل الجمع على الاسبانيول فهزموهم وأنجدهم بويرتو كربرو فتشددوا به وعادوا الكرة فثبت المسلمون في مواقفهم لكن أسر قائدهم فذعروا وانشطروا شطرين فتأثف الاسبانيول احدهما وأحدوا عليه والتقى الآخرة بصاحب قادس فناوشه واذ رأى جواد أخيه المقتول في الوقعة السابقة تحت احد فرسان المغاربة ورأى الاسبانيول خيول اخوانهم القتلى في جبال مالقة تحت فرسان اعدائهم غلت في صدورهم مراجل الغيظ وثاروا لاخذ الثأر فحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فكشفوهم وضل حامد طريقه الى رندة فرده اليه احد المتمسلمة من النصارى

وكان عند صاحب قادس بعض العيون والجواسيس اكثرهم من منصرة مغاربة فأخبروه بضعف حامية صخرة فتهيأ لقصدها واستجاش بويرتو السابق الذكر وجويان المارز فبادر الاجابته وزحفوا في ٢٨ اكطوبر سنة ١٤٨٣ بستمائه فارس والف وخمسمائة ماش فبلغوها ليلا بدون ان يشعر بهم أحد وكمن اورتغادو براردو المعهود بعشرة من أقرانه تحت السور ومعهم سلالم وكان رجال الحصن قد خرجوا الى المدينة وناشبهم الاسبانيول القتال ريثما تمكن هؤلاء الكامنون من صعود الحصن فعند ما ايقنوا أن العدو أصبح فيه سقط في ايديهم واتفقوا مع العدو على الخروج بالامان

وبعث السلطان أبو الحسن جيشا الى الحامة وكان قائدها الكونت طنديلة فذب عنها حسنا وفي احد ليالي الشتاء خر جانب من سورها فخاف الكونت ان يدري المسلمون فيتقحموا الثغرة فنشر غطاءاً كبيراً من النسيج وجعل وراءه الفعلة يشتغلون حتى اكمل بناء الحصن المتهدم

وفي تلك المدة احتشد أمراء الاسبانيول ثانية للغزو وزحفوا بستة آلاف فارس واثنى عشر الف راجل وعليهم مركيز قادس وكونت قبرة وقائد القنطرة وصاحب صنتياغو والدون الونزو دواغيلار وبويرتو كريرو وغونسالف القرطبي وغيرهم فاجتاحوا أراضي مالقة وحطموا زرعها وأحرقوا البيوت المنفردة ونهض اليهم المالقيون فلم يفوزوا منهم بطائل

وكان فرديناند قد استبدل بآلات الحصار القديمة المدافع النارية الجديدة ونزل بها على البلورة ولم يكن لاهلها عهد بهذه الادوات الجهنمية فارتاعوا وسلموا بلدتهم صلحاً وانحاشوا الى مالقة فلم يقبلهم أهلها ظنا بأنهم جبنوا عن القتال وخاموا عن اللقاء ثم سير فرديناند بهذه الآلات جيوشا اكتسحت بسائط غرناطة فسأله أبو الحسن الهدنة فأبى وأظهر التعصب لابنه أبي عبدالله وبعث اليه بالمدد بمكانه من المرية وكان أبو الحسن قد بلغ من الكبر عتيا وكف بصره ولزم الفراش فنزل عن الحكومة والقيادة لاخيه أبي عبدالله الملقب بالزغل وكان له أمينا وبه براً فهاج أهالي المرية على أبي عبد الله محمد وقاموا ببيعة عمه ولم يلبث ان حضر هذا اليهم بنفسه فافتتح قلعة المرية وفر ابن أخيه شريداً الى قرطبة مستغيثا بالملك والملكة واستوسق أمر غرناطة كلها الزغل وسار الى مالقة وحومت عليه الخواطر وانشرحت له الصدور وعقد به مغاربة اسبانية انواط الامال

قال صاحب النفح بشأن الوقائع المتقدمة: ولما استقر السلطان ابو عبدالله ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها وأتى ابنه السلطان أبو عبدالله في جند غرناطة والجهة الشرقية والتقوا في موضع يعرف بالدب فكسر

السلطان أبو عبد الله . ولما سمع السلطان أبو عبدالله صاحب غرناطة بأن عمه بمالقة غنم من النصارى اعمل السفر للغزو بأهل بلده من غرناطة والشرقية وذلك في ربيع الاول من السنة الى ان بلغ نواحي لشانة وقتل وأسر وغنم فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعهم كبير قبرة وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار فانكسر الجند وأسر من الناس كثير وقتل آخرون، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبدالله ولم يُعرف، ثم علم به صاحب لشانة وأراد صاحب قبرة ان يأخذه منه فهرب به ليلا وبلغه الى صاحب قشتالة ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد وتفاءل به فقلما توجه لجهة أو بعث سرية الا وبعثه فيها ولما أُسر السلطان أبوعبدالله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الاندلس وذهبوا لمالقة للسلطان ابي الحسن وذهبوا به لغرناطة وبايعوه مع انه كان أصابه مثل الصرع الى ان ذهب بصره وأصابه ضرر ولما تعذر أمره أقام اخاه ابا عبدالله وخلع له نفسه ونزل بالمنكب فأقام بها الى ان مات واستقل اخوه ابو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده انتهى

وقد سار المؤلف رحمه الله في تاريخ هذه الوقائع كلها على قاعدة الايجاز فيه البلاغة

ثم ان فرديناند اعاد الكرة سنة ١٤٨٥ خامس ابريل فحشد في قرطبة تسعة آلاف فارس وعشرين الف راجل وقصد بها مالقة لانها ميناء غرناطة ومنها كان يتسرب المدد من جهة البحر فابتدأ بفتح الحصون التي في طريقه وأشهرها ذكوان وأسرع حامد الزغبي لاغاثتها فوجد اهلها قد استأمنوا وخرجوا منها . وفي النفح ان الف دارع من النصارى دخلو

ذكوان عنوة فاظفر الله تعالى أهل ذكوان بهم فقتلوهم جميعاً ثم طلبوا الامان وخرجوا . فسار الى مالقة فخرج اليه الزغل بالف فارس فرده وقتل من الفريقين فانعطف صوب رندة باشارة مركيز قادس لمنعة هذا الحصن وكثرة ما فيه من اسرى المسيحيين وكان قائد رندة قد خرج للغزو وعاد بغنائم لا تحصى وعند ما وجد الاسبانيول منازلين حصنه بعث بالصريخ الى أهل الجبال المجاورة فاسرعوا اليه واشعلوا الحرب واقدموا اقدام الآتي ولم تؤخذ رندة الا بسبب عين كان يستقي منها أهلها وينزلون اليها بدهليز طويل ولا ماء لهم غيرها فاما تمكن العدو من هذه العين لم ينفعهم الثبات وطلبوا الامان على شرط الاجازة الى أفريقية فأذن لهم وخرجوا ووجد في اسرهم عدد غفير من كبار الاسبانيول وابناء الامراء

ثم عزم فرديناند على منازلة حصن مكاين لما بلغه من ضعف الجند المرتب له وحصل التواعد بين الملك وبين كبير قبرة على المسير معا فبادر الزغل الى الجهاد وبرز الى ملاقاتهما فلم يصبر صاحب قبرة عن ملاقاته وحده وناوشه باربعة آلاف فارس وستة آلاف راجل ظانا انه يأسره كما أسر ابن اخيه لكن الزغل غير الشيقتو والفرق شاسع بين أبوي عبد الله ابني الاحمر فوصل صاحب قبرة الى واد عميق وكمن فيه لكن القمر بغى عليه وخانه فافتضح امره للمغاربة وانهالوا عليه بنبل متتابع فاستسلم جيشه وقتل أخوه وهلك جواده فامتطى جواد أخيه ولما رأى شدة فتك المغاربة باصحابه فر شريداً فطاردوه مدة واذرعوا في عسكره القتل فهلك في ذلك اليوم جملة وافرة من أمراء النصارى وابناء البيوتات الاسبانية وآب الزغل بالغنيمة

وساء جدا وقع هذه الواقعة عند الاسبانيول فاراد الملك محو أثرها وأجمع على مهاجمة حصن قبيل والحصن الذي بجانبه وهما مبنيان على صخرتين متناوحتين ترتبطان بجسر ولهما حامية شديدة تكثر المغاورة في أراضي العدو خصوصا جهة جيان وقائد الحصنين محمد بن يوسف بن سراج من رءوس فرسان العرب فوضع الملك المدافع النارية الجديدة بازاء الحصنين وشرع يرسل عليهما النيران وأدار الحركة الدون فرنسيسكو راميرز أول مهندس في اسبانية لوقته واستمر إطلاق النار يوماً كاملا حتى خرت الجدران وهلكت الابطال ولم يجد ابن سراج فائدة في المقاومة بازاء هذه النيران المحرقة التي لم تكن عنده فسلم القلعتين على شرط الخروج الى غرناطة فأجيب الى ذلك

وكان قائد الحامية الدون غايتارز دو باديلا فحضر لديه مرة مغربي من طبقة التجار الذين من عادتهم أن يلحقوا الجيش لشراء السلب فطلب الكلام معه قائلا كم تنقدني من المال اذا سلمتك قلعة زالمة؟ فاجابه وكيف يكون ذلك؟ قال ان لي فيها اخا أوعز اليه سراً فيمكن جنودك من دخولها ليلا، قال له وهل تخون دينك وامتك لاجل المال؟ قال المغربي انني بدات ديني وامتي وأمي أمة اسبانيولة وقائد زالمة رجل ظالم سلبني مالي فأريد الانتقام منه فأرسل الدون رجالا راسلوا الخائن فأنزل اليهم سلما تسلقوا بها الحصن فذبحوا نصف رجاله واستولوا عليه

وكان أبو عبد الله ابن أخي الزغل قد جعل حاضرة ملكه بلش البلانكو وتقوى به حزبه سكان البيازين وعادت الحال الى مكانها بينهم وبين أصحاب الزغل وتخضبت غرناطة بالدماء من أبنائها وازدادت الحمراء

حمرة مع جميع ما اشتق من هذا المصدر ونكثت قرحا على قرح . وبينما
كذلك اذ بلغهم تأهب العدو لاكتساح البلاد فتكلم النـاس فى الصلح
واتفقوا على قسمة المملكة بين الزغل وابن أخيه فجعلوا للزغل غرناطة
ومالقة وبلش مالقة والمرية وما يلحق بها وتركوا الباقي لعهدة ابي عبد
الله وسألوه أن يقيم بلوشة لكونها ثغر المسلمين طمعا فى دفع العدو عنها
لمكان السلطان أبي عبد الله من الاتصال بالطاغية فسار الى لوشة وبعث
الى فرديناند يسأله التجافي عنها فلم يجبه بل انه فى ربيع عام ١٤٨٦ زحف
الطاغية بجحفل جرار مؤلف من ١٢ الف فارس و ٤٠ الف ماش و ٦ آلاف
من ممهدي الطرق وكان فى جيشه كثير من مطوعة الفرنسيس وفيهم
من المشاهير مثل غاسطون اليوني ومن غزاة الانكليز وفيهم اللـورد
سكالس وكان معه آلات ومدافع تفوق الاحصاء بادارة جنـد ألمانيين
بادروا لاجابة داعي الحرب المقدسة من اقاصي بلادهم فقبل الوصول
الى لوشة استأذن مركيز قادس من الملك أن يتبوأ رابية « أبو الحسن »
التي حقت فيها الهزيمة على الاسبانيول المرة السابقة والتمس كبير قبرة
أن يكون في طليعة الجيش فأذن لكل بما سأل وخيم مركيز قادس في أبو
الحسن بخمسة آلاف فارس وأثني عشر الف راجل وأخـذ كونت قبرة
باتباع الوادى طامعا فى اسر ابى عبدالله وأما هذا فبرز الى القتال يطلب
الموت وتقدم الصفوف ينافح ويكافح وما زال يخوض غمرات المنايا الى
ان أصيب بجرحين كبيرين فالتزمت حاشيته أن يرجعوا به ولكن القتال
بقي مشتدا وتبايع الفريقان على الموت وتحاجزوا وتناجزوا واذا بفارس
مغربي زميت المنظر شديد الروعة راكبا جواداً ادهم كالليل الحالك قد

أحدق به أبطال من غمارة ووثب كالاسد الحارد فاخترق مصاف الاسبانيول وهزم من لقيه فانتشب به بأس المسلمين وراجعوا بصائرهم ونبهوا عزائمهم وحملوا حملة الرجل الواحد فاختل مصاف الاعداء على كثافة جموعهم وكان هذا الفارس هو حامد الزغبي فانكشف الاسبانيول من جهة الوادي وكاد صاحب قادس يقع في الاسر فبادر الملك فرديناند ببقية الجيش والى جانبه اللورد سكالس البطل الانكليزي ومعه غزاة الانكليز يقاتلون بالفؤوس على عادة بلادهم ولم يكن ذلك معهوداً عند المغاربة فذعروا واوجرح الزغبي فاحتملوه الى المدينة وارتخت عزائمهم فنكصوا الى الارباض وألح عليهم الاسبانيول فاشتد العراك وراجع المسلمون ضمائرهم وصدقوا الحملة فكشفوا العدو وجرح اللورد الانكليزي وحمل الى الخيام فنصب الطاغية مدافعه وأخذ يرمي البلدة بالنيران الدائمة فهدم أسوارها وحاول اهلها ترميم جدرانها وسد فرجها فلم يفلحوا وكان النساء والاطفال والشيوخ تحت نيران المدافع يصابرون على مر الحمام فيئس من ذلك المسلمون وحملوا على الاسبانيول فقتلوا منهم مقتلة عظيمة واستمروا يفتكون بهم لياتين ويوما لكن تهدم بلدتهم ووقفهم بازاء النيران المحرقة اضطراهم أخيراً الى التسليم على شرط الانصراف آمنين فاجيبوا الى ما سألوا وخرجوا الى رياغو على ثلاث ساعات من لوشة

وهاك ما ورد في النفح بشأن ماتقدم ببعض تصرف قال

« ثم انتقل (أي الطاغية) في جمادى الاولى الى رندة وحاصرها وكان أهلها قد خرجوا الى نصرة ذكوان وسواها فحاصر رندة وهد اسوارها وخرج أهلها على الامان وطاعت له جميع البلاد ولم يبق بغربي مالقة

إلا من دخل في طاعته وتحت ذمته وضيق بمالقة وفرق حصصا على بعض الحصون ليحاصر مالقة وعاد الى بلاده

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحب غرناطه لتحصين بعض البلاد وبينما هو كذلك اذ بالخبر جاءه ان محلة العدو خارجة لذلك الحصن وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على الحصن كانوا قد سروا اليه ليلا وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين فقاتلهم المسلمون من غير تعبية فاختل نظام المسلمين ووصل النصارى الى خباء السلطان ثم التحم القتال واشتد وقوى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شر هزيمة وقتلوا منهم خلائق وقصر المسلمون خوفا من محلة سلطان النصارى اذ كانت قادمة في أثر هذه ولما رجعت اليهم الفلول رجعوا القهقرى واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا ذلك كله بالحصن ولم يحدث شيء بعد الى رمضان فتوجه العدو لحصن قبيل ونازله وهد أسواره ولما رأى المسلمون ان الحصن قد دُخل طلبوا الامان وخرجوا باموالهم واولادهم وفر الناس من تلك المواضع واستولى العدو على عدة حصون مثل مشافر وحصن اللوز وضيق بجميع بلاد المسلمين ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها ثم إن العدو دبر الحيلة مع ما هو عليه من القوة فبعث الى السلطان أبي عبدالله الذي تحت اسره وكساه ووعده بكل مايتمناه وصرفه لشرقي بسطة واعطاه المال والرجال ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين فانه فى الهدنة والصلح وخرج لباش فأطاعه أهلها ونودي بالصلح فى الاسواق وصرحت به فى تلك البلاد الشياطين وسرى هذا الامر حتى بلغ ارض البيازين من غرناطة

وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى وتبعهم بعض المفسدين المحبين تفريق كلمة المسلمين وممن مال الى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماسرتها بتقبيح وتحصين الى ان قام ربض البيازين بدعوة السلطان الذي كان مأسورا ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها لما أراد الله من استيلاء العدو على تلك الاقطار ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة وعظم الخطب وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الاول عام احدو تسعين وثمانمائة ودامت الفتنة الى منتصف جمادى الاولى من العام وبلغ الخبر ان السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزغل صاحب قلعة غرناطة بان العم يكون له الملك وابن أخيه تحت ايالته بلوشة او بأي المواضع احب ويكونون يداً واحدة على عدو الدين وبينما هم كذلك اذا بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعَدد وعِدد ونازل لوشة حيث السلطان ابو عبدالله وضيق عليها الحصار وقد كان دخلها جماعة من اهل البيازين بنية الجهاد ولمعاضدة وليهم وخاف اهل غرناطة وسواها من ان يكون ذلك حيلة لم يأت لنصرتهم غير البيازين (انظر الى ماتجنيه الفرقة واختلاف النية من ثمرة التخاذل) واشتد عليهم الحصار وكثرت الاقاويل بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة ودخل على أهل لوشة في ربضهم وخافوا من الاستئصال فطلبوا الامان في انفسهم واموالهم فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك وأخذ البلد في السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وهاجر اهل لوشة الى غرناطة وبقي السلطان ابو عبدالله بلوشة فصرخ عند ذلك اهل غرناطة بانه ماجاء

لوشة إلا ليدخلها العدو وقيل إنه سرح له حينئذ ابنه الذي كان مرهوناً في الفداء ثم رجع صاحب قشتالة الى بلاده ومعه السلطان المذكور وفي نصف جمادى الآخرة خرج الى البيرة فهد بعض الاسوار وتوعد الناس فاعطاه أهله الحصن على الامان فخرجوا وقدموا على غرناطة وانتقل للصخرة فأخذها وحصن هذه الحصون كلها وشحنها بالرجال والعدة ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة ثم عاد لبلاده وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بان من دخل في حكمه فهو في الامان واشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب افرنسية فخرج لبلش وأطاعته ثم بعث لمن والاه من البلاد انه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق وان من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه وان معه وثائق بخطوط السلاطين فلم يقبل الناس ذلك الا القليل منهم مثل أهل البيازين فلهجوا بهذا الصلح وأقاموا على صحته الدلائل وتكلموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح مع تمكن الفتنة والعداوة في القلوب فبعث له أهل البيازين انه اذا قدم بهذه الحجج اتبعه الناس وقاموا بدعوته من غير التباس فاتى على حين غفلة ولم يكن يظن اتيانه بنفسه. فدخل البيازين ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة وقالوا : مابعهد لوشة من قدم. ودخل ربض البيازين بالرجال سادس عشر شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وعمه بالحمراء واشتد أمر الفتنة وأمد صاحب قشتالة صاحب البيازين بالرجال والعدة والبارود واشتد أمره بذلك وعظمت أسباب الفتنة وفشا في الناس القتل والنهب، انتهى

وفي رواية المقري اختلاف مع الروايات الافرنجية في بعض المظان من تقديم وتأخير وتصغير وتكبير كما لايخفى على من تدبر النقلين وقال

مؤرخو الاسبانيول: ثم زحف فرديناند نحو (ايلورة) الواقعة على ستة عشر الف متر فقط من غرناطة فضيق عليها ورماها بالنيران فسلمها سكانها وخرجوا وكان حصن متن فريد من أمنع حصون المغاربة وقد حفر الزغل حوله الخنادق وارسل من فيه من النساء والاولاد الى غرناطة فأناخ عليه فرديناند يرميه بالمحرقات حتى اشتعل مخزن البارود. وفي النفح يقول دار العدة وتهدمت المنازل وهلك الناس فطلبوا الامان وخرجوا الى غرناطة ودخل ملوك النصاري الحصن ووجدوا فيه جملة وافرة من أسرى المسيحيين هذا والزغل لا يتحرك من مكانه بالحمراء خوفاً من انتقاض أهل البيازين الذين كان لهم مع نساء القصر السهم الاوفر في اسقاط تلك السلطنة

وزعموا أن قائدي متن فريد وايلورة كانا اخوين وكانا اخوين في البأس كما في النسب والمغاربة يحبونهما كثيراً لاقدامهما فبعد تسليم الحصنين تبدلت محبتهما قلى ، فيئسا من الحياة وشرعا يجدان في استعادة منزلتهما واستأذنا السلطان في نزال النصاري فعقد لهما على جيش وافر وخرجا للجهاد فالتقيا بالاسبانيول عند جسر بينوس على مسافة ساعتين من غرناطة فكانت ساعة مؤرخة في وقائع حروب الدنيا ابدى فيها الاخوان من حسن البلاء وصدق الجلاد ما لا يدخل تحت وصف فكانا كيفما حملا في مصاف العدو احتلت امامها الصفوف وتهاوت امامهما الابطال وكان مركيز قادس قائد الطليعة فاوشك أن يولي منهزما فاسرع لاغاثته كونت قبرة فلم يقض أرباً فبادر الدون جويان ابن أخي الملك فلم يشف غليلا فوافاهم الطاغية الكبير بنفسه وبباقي جيشه فرد المغاربة بكثرة العديد وبقي الاخوان المستميتان يقاتلان في مقدمة الجند وقد احاط بهما شرذمة من

انجاد الغارة الى أن وقعا صريعين الواحد بعد الآخر، فعظم الخطب فيهما، واشتدت النكاية بموتهما، وبكاهما اهل غرناطة بسيول الدموع

وعاد فرديناند الى قرطبة بعد أن اجتاح مرج غرناطة واخني على نضارته ولم يكد يخلص الى بلاده حتى استؤنفت الفتنة في غرناطة بين الزغل وابن أخيه وكان ماكان من حضور ابي عبد الله الى البيازين وقيام دعوته فيها واستمرار القتال بين الفئتين أياما حتي قيل ان السلطانين تبارزا بانفسهما في اسواق غرناطة فلم يفز أحدهما بالآخر

وذكر مؤرخو الفرنجة ان اخبار الاندلس كانت وصلت الى المشرق فارتج لها العالم الاسلامي ووافقت حصول الفتنة بين السلطان بايزيد الثاني وصاحب مصر فتهادنا ووقع الاتفاق على أن يرسل بايزيد اسطولا على سواحل صقلية لكونها تابعة لمملكة أسبانية وان يجهز صاحب مصر بعوثا من جهة افريقية فلما أحس بذلك فرديناند وايزابلا اجمعا على سد الثغور البحرية كلها عن غرناطة قطعاً للامداد ولما كانت مالقة هي الثغر الاعظم وميناء الاندلس ومركز التجارة مع مصر والشام ومنها كانت تتسرب الاموال والاسلحة والجنود والخيول من تونس وطرابلس وسائر المغرب كان أول ماأعملا فيه الاستيلاء على مالقة ولكن قبل النزول على مالقة عزما على أخذ بلش القريبة منها ففي ربيع سنة ١٤٨٧ زحف الطاغية بعشرين الف فارس وخمسين الف ماش قسمها قسمين احدهما بقيادة صاحب القنطرة والثاني قاده بنفسه وأخذ الاول بطريق الوادي وسار الثاني بطريق الجبل وامامه نحو أربعة الاف من الصناع وممهدي الطرق فلم يزل حتى أطل على مرج بلش وجنانها وهي من أزهي بقاع الارض

وابدع أقاليم الدنيا وقد ارتفعت حفافيها الحصون والابراج وهنالك قوم من الجبليين اهل شدة ونجدة، فما خيم الملك حتى انقضوا عليه من وراء الصخور، انقضاض النسور من الوكور، فهزموا طائفة من جنده واستلحموا جماعة فقتل جملة وافرة من أبطاله وأصيب ابن دوق براغانس بجراحة ثم أرسل جندا للمحافظة على الذخيرة الآتية بطريق الجبل فلم يتمكنوا من حفظها واصابها المغاربة وابعدوا في معسكره النكاية واخذوا يضرمون النيران في الليالي على رءوس الجبال اشارة بعضهم الى بعض على حد ماقال

وضعوا السلاح الى الصباح واقبلوا يتكلمون بألسن النيران

وكبسوا معسكر الطاغية بياتا مرارا جمة وأخيرا تجمعوا من كل ناحية وهاجموا المعسكر وبعد قتال عنيف ارتدوا الى جبالهم هذا والحرب الداخلية لم تزل قائمة على سوقها في أسواق غرناطة فلما شاهد المسلمون ما هم عليه من الغفلة والاشتغال بمناظرة بعضهم لبعض أحوج ما كانوا الى الانضمام والوئام شددوا النكير على السلطانين ونصحوا لهما بالعدول عن الشأن الذي هما فيه فأبى أبو عبد الله التخلي لعمه عن الملك وأصر على المطالبة غير متأمل في عواقب هذه الحال التي ستنتزع الملك منه ومن عمه ومن جميع أهل بيته وملته في أرض عمروها ثمانية قرون الا ان الزغل لم يصبر عن نجدة بلش فابقى في الحمراء حامية كافية لدفع ابن اخيه المشؤوم وخرج ليلا بالف فارس وعشرين ألف ماش، واجتمع اليه من أهل الجبال أعداد، وعلا الصوت في الربى والوهاد، « الزغل الزغل » فوقع الرعب في قلوب الاسبانيول وكانت مدافع الطاغية في الطريق فحاول رضوان المكناسي استخلاصها فلم يفز بطائل وكتب الزغل الى قائد بلش يأمره انه عند ما يشاهد

النار ليلاً يخرج من احدى جهات المدينة وهو يقابله من الجهة الثانية وكان الرسول من المتمسلمة فوقع الكتاب في يد فرديناند فخاف جداً وخافت الملكة اكثر منه ولكن أفادهما الظفر بذلك الكتاب عدم توقف قائد بلش على أمر الزغل فبقي في المدينة لا يبدي حركة وتقدم الزغل نحو معسكر الاسبانيول فلم يجدوا أحداً خرج من البلدة فلم ينكصوا على أعقابهم بل اقتتلوا اقتتالا شديداً وانتظر المغاربة ان يخرج اهالي بلش لمساعدتهم فطال الامد ولم يبرز أحد فاصابهم الهلع وتقهقروا وتقدم صاحب قادس فتبوأ مرقبا عاليا ركب فيه ريحهم فاجتهد الزغل في ضم شملهم فلم يفلح فعاد بهم الى غرناطة، ولما طار الخبر اليها بما حل به من الفشل بايع أهلها ابن أخيه فضرب هذا اعناق اربعة من اعيان الغرناطيين انصار عمه ولما بلغ الزغل نهر شنيل اخبره بعض حواشيه أن الحضرة بايعت ابن أخيه فتحول الى المرية فالمنكب فوادي آش . ولما أصبح أهالي بلش وقد رأوا الزغل أقلع بعسكره عنهم وهت عزائمهم فعولوا على التسليم وعقدت شروط الصلح بين رضوان قائد البلدة وبين الكونت دوسيفو نتاز صاحب شريش الذى كان أسيرا في بلش وخرج أهل باش بأموالهم الى غرناطة وانطلق اسرى الاسبانيول وأطاعت جبال البشرات ونحو أربعين بلدة فيما قيل بنواحي مالقة وطلبوا حماية الطاغية وصار المسلمون في جميع هاتيك النواحي مدجنين

وقال صاحب نفح الطيب بشأن الحوادث المتقدمة ما ملخصه « إن صاحب غرناطة بعث الى الاجناد والقواد من أهل بسطة ووادي آش والمرية والمنكب وبلش ومالقة وجميع الاقطار وتجمعوا بغرناطة وتعاهدوا وتحالفوا على أن يدهم واحدة على عدو الدين ونصرة من قصده العدو من المسلمين

وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج بمحلته قاصداً نواحي بلش وبعث صاحب البيازين وزيره الى مالقة والى حصن المنشأة يذكر ويخوف ومعه النسخة من عقود الصلح فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته خوفاً من صاحب قشتالة وطمعا في الصلح ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة والسبب الحامل لهم على ذلك فلم يرجع اهل بلش عما عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الاندلس من العهود وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها ولما صح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس فاشاروا بالمسير لاغاثة بلش للعهد الذي عقدوه واتى اهل وادي آش وغيرها وحشود البشرات وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ووصل بلش فوجد العدو نازلا عليها براو بحرا فنزل بجبل هنالك وكثر لغط الناس وحملوا على النصارى من غير تعبية وحين حركتهم للحملة بلغ السلطان الزغل ان غرناطة بايعت صاحب البيازين فالتقوا مع النصارى فشلين وقبل الالتحام انهزموا وتبددت جموعهم مع كون النصارى خائفين وجلين منهم ولا حول ولا قوة الا بالله فرجعوا وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان فقصدوا وادى آش وعاد النصارى الى بلش ودخلوا ربضها عنوة ولما رأى أهلها تكالب العدو عليهم وادبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الامان فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الاولى من السنة واطاعت النصارى جميع البلاد التى بشرقي مالقة وحصن قمارش ،، انتهى

ثم ذكروا أن فرديناند أجمع على حصار مالقة وكانت من قواعد

سلطنة غرناطة وميناء الاندلس وثغرها المحروس كما تقدم الخبر وهي مبنية في قمر واد خصيب فاتح فاه لجهة البحر تضمها الجبال والابراج والاسوار من البر والامواج المتكسرة على الاسوار من البحر وعلى رابية في أحد طرفي المدينة القصبة (دار الحكومة باصطلاح المغرب) وفوق القصبة صخرة شامخة عليها المنارة البحرية المسماة بالفار، ولها وراء السور ربضان أما المناوح منهما للبحر فجنات معروشات وغير معروشات، ومنازل رحبات، وأما المقابل للبر فكان مشتبكا بالعمارة متصل البيوت. وكان لمالقة حامية وافرة مجربون في الحروب ومعتادون لقاء الاهوال وأهلها من ذوي الحركة والنشاط والعمل والحزم أكثرهم تجار وفيهم عدد من ذوي اليسار وفي مقدمة هؤلاء التجار الموسرين رجل يقال له علي دردو له عدة سفن تجارية تسافر الى جميع موانى الشرق وله في ثغر مالقة الكلمة العالية والرأي المقدم، فجمع هذا عصبة من كبار القوم وسار الى قائد القصبة وبين له عقم الدفاع وخلو المقاومة من كل جدوى، وان الاجدر بهم قبول دعوة السلطان أبي عبد الله حليف الطاغية، فرضي القائد وسار الى خيام الاسبانيول للمكالمة في شروط التسليم وترك القيادة لاخيه

وكان حامد الزغبي المشهور بلدد العداوة للنصارى قائد موقع المنارة البحرية وعنده من بني غمارة طائفته كلهم على شاكلته من شدة الباس وصعوبة المراس فطارت عقولهم عند ما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة واستنفروا من كان باقيا من أهلها على عهد الزغل واستدعى حامد الخواص الى حضرته فحضروا جميعا ولم يتخلف منهم الا دردوق الآنف الذكر فقرروا وجوب الدفاع ونقضوا ما أبرمه قائد القصبة بتمامه

وكان صاحب قادس قد عرف في بلش مالقة رجلا شهير من تجار المغاربة وعده بقتل ذؤابة حامد عن المقاومة فعرض الامر للملك ففوضه بالعمل وأركبه المركيز جواده وقلده سلاحه واردفه بعربي آخر من انسبائه بكتب يعرض فيها على حامد مدينة كوهين مع أربعة الآف ذهب ان سلم قصر المنارة أو جبل نارو وان رضي بتسليم البلدة كلها كان جزاؤه أعظم وكان حامد يحترم مركيز قادس احترام الابطال بعضهم لبعض فاكرم الرسل واصغى اليهم لكنه رفض خيانة ملته ووطنه رفضاً باتا فكرر فرديناند الرسالة فكاد الاهالي يقبلون بالصلح لولا ما قال حامد للرسول وهو ،، اذهب وقل لسيدك اني قد تسلمت مدينة مالقة لاحميها لا لأسلمها ،، فعندما يئس فرديناند منهم قدم المدافع وزحف بالجيش وقابلته أساطيله من البحر فاحرق حامد الارباض وسير ثلاث فرق لمصادمة العدو وذلك انه لما كان لا بد للاسبانيول من المرور بمضيق بين قصر المنارة والجبل امر الزغبي فرقة من جيشه باحتلال المضيق وفرقة أخرى باحتلال الصخرة المشرفة وفرقة ثالثة بالنزول بالجهة البحرية

وانتشبت الحرب بداية في المضيق المذكور وتصارعوا قرناً لقرن وعولوا على القتال اكثر من الاسر وتلاحقت النجدات للمسيحيين فعظم سوادهم واشتدت وطأتهم لكن المغاربة ثبتوا فى مواقفهم وقلوا حدودهم فالزموهم الرجوع فنكصوا على أعقابهم ولما يقضوا وطرا وكان فرديناند مشتغلا بتركيب مدافعه وتصويبها مما اقتضي من المشقة ما لا يوصف فلما تم له ذلك رمى البلدة بالنيران وظاهرته الحراقات من البحر وارتفع دوي المدافع ولكن المدينة قاومت مقاومة شديدة لمتانة أسوارها ومنعة مواقعها

ولم تؤثر النيران الا في برج واحد كبير تداعى اكثره للخراب فاهتبل النصارى فيه الغرة وتسلقوه فدحرهم المسلمون أول مرة وأهلكوا منهم خلقاً كثيرا فحملو ثانية وصدقوا الحملة فازاحوا المسلمين وملكوا الحصن فتجمع المسلمون وحملوا عليه واحتفروا عند ركنه أخدوداً ووضعوا النار في الاخدود فخرمنه جانب وهلك بسقوطه جم غفير من الاسبانيول ففتحوا منه ثغرة لجهة معسكرهم يتسرب لهم بها المدد وبقي الفريقان يراوحون القتال ويغادونه يومين وليلتين وانكفأ المسلمون ولم يتمكنوا من الحصن واشتدت عزائم الاسبانيول باخذه ولكنهم لم يطمعوا في مهاجمة المدينة لما فيها من الجيوش المدربة على القتال وطال بهم المقام فسئموا وتبرموا وخافوا العاقبة ووقر في نفوسهم من خوف الزغبي وطائفته ما آل بهم الى القنوط ففر منهم جماعة وافرة الى المدينة وانضموا الى المسلمين واخبروهم عن ضيق الحالة بالنصارى وبالغوا في الحكاية فثارت الحمية برءوس هؤلاء فاخذوا يندلقون على الاسبانيول اندلاق السيوف من الاغماد، ويندفقون اندفاق السيول من الانجاد، فلا يلقونهم في مأزق، الا مزقو شملهم كل ممزق

واتصل بفرديناد ان النصارى الخائنين بشروا حامداً بكون الملكة ترجت زوجها كثيرا برفع الحصار عن مالقة فذهب الى تقطيع آمالهم باستدعاء الملكة الى المعسكر فجاءت وصحبتها ابنتها وبعد وصولها راجع حامداً في التسليم فجبه حامد الرسل وانكر الامر وترجاه بعض الخواص بالقبول فقيل انه قتلهم فامر الطاغية باطلاق المدافع فاطلقت نيرانها دراكا واتفق ان حضر الملك والملكة الى معسكر صاحب قادس فجرب في حضرتهما

بعض مدافعه الكبار ولم ينشب ان ابصر الراية التي فقدها في جبال مالقة وهي تخفق فوق برج قريب من جبل فارة أو المنارة فأثر ذلك في خاطره ولج في اطلاق النيران ثم تقدم بالجند نحو ذلك الحصن وطمع في أخذه فانهال عليه الف مغربي من ذؤبان الجيش فذبحوا أجناده ذبح الشياه وهزموا من سلم منهم فلاحق المدد للنصارى فاعادوا الكرة والتحم الفريقان وهلك منهما خلق كثير وتولى الصبر مقام المغاربة فكاد المركيز ينهزم ثانية وكادت رايته تقع أيضا في يد العدو لولا أن قائد تلك القطعة من جيش المسلمين ابراهيم بن زناتة جرح في معمعة القتال فعاد بقومه الي الحصن وأرسلوا من هناك نبالهم فنالت من الاسبانيول وتقهقر عسكر المركيز وفشا فيه القتل وهلك في هذه الوقعة أورتاغو دوبرادوا الفارس الشهير أول من تسلق قلعة الحامة فكان يوما شديدا على الاسبانيول

ومن ثمة أصبح الكفاح بين الفريقين يأس المرء من الحياة ومبايعة الارواح في أسواق المنايا وتهالكت المقاتلة وتكالب الجند بعضهم على بعض وشرع حامد يرمم المتهدم من أسوار المدينة حتى أنه عزم على بناء ست سفن حراقات بقصد الهجوم على اسطول الاسبانيول وأما الملك والملكة فاستجلبا الذخائر والاقوات من جميع مدن اسبانيا وأمرا ببناء ابراج من الخشب يسع الواحد منها مائة مقاتل تمشى على دواليب ولها سلالم لاجل التسور والنزول وعقبا ذلك بحفر الخنادق ونقب الاسوار وحشر لهذه الغاية الفعلة والصناع واستكثرا من العدة والآلة وقام العمل على قدم وساق وحامد لايترك للمحاصرين راحة ولا يمهلهم فواقا بل يغاديهم النزال ويراوحهم حتى ملوا وامتلات الخيام بالجرحى والمرضى ثم لم يلبث أهل

مالقة ان اكتشفوا الحفر التى أداروها على جدران المدينة فحفروا بازائها ونقبوا تحت الارض الى أن اتصل بعضها ببعض فكان الفعلة يتلاقون من المسلمين والنصارى في تلك الدهاليز ويتصارعون في بطن الارض صراعهم فوق ظهرها الا أن الظهور كان للمسلمين هنالك دائما وكان الاسبانيول يخرجون من اخاديدهم مدحورين ويهال على ماحفروه

ثم تجمع المحصورون وحملوا من البحر والبر حملة واحدة واستمر القتال ست ساعات فلم يكشفوا العدو وعادوا الى مراكزهم وكان الجوع قد فشا في مالقة وانقطع عنها المدد وسدت دونها المسالك وفنيت في أهرائها الغلال فاشتد الضيق بالناس واجتمعوا عند علي دردوق واجمعوا على مراسلة الطاغية فى أمر التسليم بشرط الامان على النفوس والنفائس وانفذوا بالرسالة رجلا آب اليهم بجواب شاف طبق مايشتهون فشعر به أصحاب حامد فرشقوه بالسهام فأصيب وانهزم صوب مخيم الاسبانيول

هذا ولما رأى أهل وادي آش ما حل باهل مالقة من الضيق سألوا السلطان الزغل المسير لنجدتهم فساعدهم فيه وحشد جيشا وجهز له مايلزم وبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ابن أخيه فأرسل جيشا لمعارضة جيش عمه في الطريق اثباتا لامانته وتأكيداً لصداقته لملوك النصارى، لم تأخذه رأفة بابناء جلدته وقضى الله بظهور أصحاب أبي عبد الله المذنب بالشقي فقفل جيش الزغل الى وادي آش وفرح أبو عبد الله فرحا جزلا بهذه النصرة وبعث بالبشائر مع تفصيل الواقعة إلى فردیناند وایزابلا وأسنى الهدية فجاوباه شكراً وتمجيدا وظن انه قضى بذلك وطراً لكنه أوغر عليه بهذه الفعلة قلوب المسلمين فمال عنه كثير من حزبه وخاف على نفسه فأرسل يستمد فردينا ند

فأمده بالف فارس وعشرة آلاف راجل لاجل حراسته. لعمري جدير بملك كهذا أن يكون آخر لملوك قومه

وفي هاتيك المدة وصل وفد من ملك تلمسان الى فرديناندوايزابلا بهدايا فاخرة وقد تضمنت رسائلهم الكلام في شأن أهل مالقة فاستقبل الملك وامرأته ذلك الوفد برآ وترحيبا واقتصرا على ذلك واشتد الجوع بأهل مالقة وأكلوا الخيل وهلك منهم سغبا خلق كثير

ثم ظهر من وادي آش رجل يدعى بابراهيم ويلقب بالصانتوأي الولي فلما رأى رجوع عساكر الزغل عن نجدة مالقة أخذ يطوف في أسواق وادي آش منادبا إن الله أوحى اليه كيفية خلاص مالقة فسألوه عن كيفية خلاص مالقة فاجتمع حوله اربعمائة رجل من أولى النجدة وسار وابصحبته الى تلك المدينة فرأوا أوفق مكان للدخول جهة معسكر المركيز صاحب قادس فهجموا عليه فنهم من قتل الخفراء ومنهم من ألقى بنفسه في البحر ثم تسور جدران البلدة فبلغ منهم مائتان المدينة وانهزم الباقون

أما الصانتو فلم يخش الكريهة بل دلف اليه الاسبانيول فوجدوه ساجدا قانتا لا يتحرك فأخذوه الى المركيز فسأله عن حاله فأجابه انه ولي الله وان الله تعالى قد كاشفه بفتح مدينة مالقة فسأله عن كيفية ذلك فأجابه انه نهي عن كشف ذلك السر الا للملوك فارسله المركيز الى الملك والملكة وكان فرديناند قد طعم ونام فلم ينبهوه وقادوا المغربي الى سرادق المركيزة مويا والدوق القارو دو برتغال فتشابه هذان عليه بالملك والملكة لما رأى من اجلال الجند لهما وما شاهد من الرياش الفاخر في فسطاطهما فطلب ماء ليشرب وبينما هو يمد يده لتناول القدح اذا استل من تحت جنبه شفرة

فاجأ بها الدوق بضربة فصرعه ثم أراد أن يثني على المركيزة فاخطأها ووقع خنجره في نضائد الديباج فوثب عليه الجند وقتلوه واخشوا المثلة في جسده وطرحوه الى أهل مالقة فاخذها غمارة وغسلوها ودفنوها بكل اكرام ثم ذبحوا أحد كبراء الاسبانيول المأسورين عندهم وناطوا جثته بذيل حمار وسرحوه بها الى معسكر المسيحيين

فارتاب النصارى من ذلك وزادوا عدة الحرس على فسطاط الملوك وامروا جميع المدجنين اي المغاربة الخاضعين بالانصراف من المعسكر ولم يمت ابرهيم الولي حتى قام في مالقة ولي آخر وادعى مثل دعواه ونشر راية فرفعها حامد فوق الابراج تشديدا للمحصورين

وفي تلك المدة حضرت النجدات الوافرة لمعسكر الطاغيه فكان ماوردمن قبل دوق مدينة سيدونيا ماخلا الجيوش مائة سفينة دخلت جون مالقة موقرة بالميرة والكراع واكثر من عشرين الف ذهب من النقود ، وعند ذلك راجعت الملكة اهل مالقة في امر التسليم فرفض حامد كل الرفض ومنع انعقاد الصلح فعزم المسيحيون على الحملة العامة والوقعة الفاصلة

وكان عند المدينة جسر ذو اربع قناطر على كل من طرفيه برج شاهق فترلى قائد المدفعية الاكبر فرنسيسكو راميرز افتتاحه فحفر اخدودا تحت الارض وجعل منه مسربا إلى أحد البرجين وتقدم بالجيش ووضع البارود في الاخدود وقذف بنيران المدافع فاصاب الشرر أثناء المعركة البارود الذي في الدهليز نخرت طائفة من البرج وقتل من حماته جماعة وفر البقية فاستولى عليه الاسبانيول وناشبوا الحصن الثاني

وكان الجوع قد عض أهل مالقة بنابه حتى طلبوا لحم الخيل فلم يجدوه فأكلوا الجلود وطبخوا الورق بالزيت وهلك منهم خلق كثير والتجأ جماعة الى معسكر النصارى مؤثرين الرق على الموت جوعاً فعند ذلك توجه علي دردوق جماعة من أعيان البلدة الى حامد فوجدوا عنده الدرويش المار الذكر فقالوا له اننا نتوسل اليك بالله وبرسوله أن لا تصر على مقاومة عقيمة من الجدوى فان أسوارنا دون أسوار رندة وقد تهدمت رندة

وان رجالنا ليسوا بأشد من رجال لوشة وقد سلمت لوشة وليس لنا في غرناطة كبير أمل فان سلطانها أبا عبدالله تابع للملوك النصارى وان الزغل عمه طريد منها شريد في وادي آش فما ننتظر ونساؤنا وأطفالنا يهلكون أمامنا جوعا فأجابهم حامد علينا بهجمة اخيرة فلا تثبطوا عزائمنا عنها وخرج في اليوم الثاني رافعا راية الدرويش ووراءه ابراهيم الزناتي وجماعة غمارة ورتب المصاف وصعد النساء والاولاد على أعالي الابراج لمشاهدة الوقعة الاخيرة وتزاحفت الصفوف وجاءت الهجمة على معسكر صاحب قلعة رباح ومعسكر صانتياغوا فصدق المسلمون الحملة وهبت الريح المبشرة نخفقت لها راية الدرويش وحمي الوطيس وتسابقت غمارة الى تسنم الجنة وقاتلت بما يعرف من بأسها وصدق جلادها فانكشف الاسبانيول وطاردهم المغاربة بالقتل والاسر واذرعوا الفتك فوقع الرعب في قلوبهم وتداعوا من كل ناحية للفرار وبينما الامر كذلك اذ خر الدرويش صريعا بحجر أصابه وسقطت الراية فتطير المسلمون ونزل بهم الهلع ورجعوا أدراجهم فلما رآهم النساء مدبرين ارتفع عويلهن ونادين بالويل والثبور ولبث حامد سائراً الى معقله مع قومه الغماريين وانقطع أمل المالقيين وعولوا على التسليم فراسلوا الملوك

ملتمسين الامان على النفوس والنفائس فلم يجابوا اليه وقيل لهم إن أبا الرأفة قد مضت فراجعوا في ذلك فأجيبوا بالاعراض أيضا حينئذ أرسلوا الى الملك يقولون له انهم عزموا أن يشنقوا الفا وخمسمائة أسير مسيحي فوق السور ويجمعوا نساءهم وذراريهم في القلعة ويحرقوا البلد ويخرجوا منه بالسيف مقاتلين الى آخر نفس من حياتهم فعندها حسبوا لذلك حسابا ورضوا منهم التسليم على ذلك الشرط ودخلوا مالقة وتبوأوا الحصون وبقي الزغبي ممتنعا في مكانه الا أن جماعته جنحوا الى التسليم من الجوع والتزم أن يتابعهم فبعث الى فرديناند بذلك فاجابه انه لا يناله الا ماينال أهل مالقة فلما استسلم غدر به وأخذ هو وأصحابه أرقاء وحينما سأله عن سبب مقاومته الشديدة أجابه أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني وسلطاني ولو طار عني جندي ماأسلمت السلاح أبدا فغضب الطاغية وأمر به فحمل على الادهم

وعند ما دخل مالقة حول المسجد الاعظم كنيسة واقام بالقصبة واقامت الملكة بجبل فارة وبعد فتح المدينة اطاع غربي البلاد كلها وخضدت شوكة اهلها وجدع مارن عزمهم وسكنت سورة بأسهم، واما السلطان أبو عبد الله فبعث يهنيء الملك والملكة بهذا الفتح ولم يكن هذا المسكين يدع فرصة لاظهار امانته إلا وينتهزها فلم تنفعه تلك الامانة الاحينما كان مظاهراً للطاغية على عمه، وللاسبانيول على قومه، حتى اذا خارت قوى مناظريه واستسلموا الى العدو وظن الامر قد استتب له نزلت الصاعقة على رأسه وأخذ من حيث كان يرجو الامن وختم به ملك آبائه، وشقيت مئات من الالوف بشقائه، ولم ينج من المحنة سكان

البيازين الذين ظاهروه على غيه، وشاركوه في فساد سعيه

وتأمل فيما قال المقري بشأن حصار مالقة تجده منطبقاً على الرواية الفرنجية لولا شدة الاختصار قال وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين وأتى اليها النصارى بالميرة ولمنازل باش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائدشريش الذي كان مأسوراً عندهم فلم يلتفت اليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فارة وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش وارتحل صاحب قشتالة الى مالقة ونازلها براً وبحراً وقاتله أهلها قتالاعظيما بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم وطال الحصار حتى اداروا على مالقة الخنادق من البر، والسور والاجفان من البحر ومنع الداخل اليها ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار وحاربوا حرباً شديداً وقربوا المدافع ودخلوا الارباض وضيقوا عليهم بالحصار الى ان فني ماعندهم من الطعام فاكلوا المواشي والخيل والحمير وبعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون في الاغاثة فلم يأت اليهم أحد (ولكن عهدي بالنضال قديم) وأثر فيهم الجوع وفشا في أهل نجدتهم القتل ولم يظهروا مع ذلك هلعاً ولاضعفا الى أن ضعف حالهم ويئسوا من ناصر أومغيث من البر والبحر، فتكلموا مع النصارى في الامان كما وقع ممن سواهم فعوتبوا على ماصدر منهم وماوقع من الجفاء وقيل لهم لما تحقق العدو التجاءهم: تؤمنون من الموت وتعطون مفتاح القلعة والحصن والسلطان مايملكم الا بالخير اذافعلتم وهذا خداع فلما تمكن العدو ومنهم أخذهم أسرى وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ولم يبق في تلك النواحي موضع الا وملكه النصارى انتهى

وفى هاتيك الايام خرج الزغـل بعساكره من وادي آش منقضا كالصاعقة على الاسبانيول فأجلب على الاطراف وشن الغارات في البسائط وقتل وأثخن وسبي وغنم وعاد بالاسرى والغنائم الى وادي آش ثم جمع فرديناند حشوده كلها في مرسية في ربيع ١٤٨٨ وزحف بها على ديار الاسلام فدخل فى طاعته نحو ستين بلدة الا المرية فان سالما قائدها هزم جيوش الطاغية فمال الى بسطة وكان الزغل قد وصل اليها ووضع كمينا في واديها فزحفت طلائع الاسبانيول فصدمها الزغل صدمة رئبال وبعد مقاتلة شديدة أخذ يتقهقر حتى أصبح الكمين من ورائها فلما حصلت بين الجيشين كر الزغل من ناحية ونفر الكامنون من أخرى وانقضوا على الاسبانيول انقضاض النسور فافنوهم بحد السيف ولم يسلم منهم الا الطويل العمر فقدم الملك فرديناند للكرة فصدمه الزغل صدمة جديدة وعلا الصياح في الربي والوهاد «الزغل الزغل» فهلعت قلوب الاسبانيول فانهزموا ومنحوا القوم اكتافهم فتعقبهم المغاربة بالقتل والاسر فاهلكوا منهم خلقا كثيرا واجلت الواقعة عن مصرع الدون فيليب الارغواني من كبار أمراء أسبانية وغيره من الامراء ولم يرجع الزغل عنهم حتى وافاهم المدد فانصاع فرديناند الى نهر قريب وفرق كتائبه على المدن والحصون فخرج الزغل ودهم هذه المدن فلم يدع فيها اسبانيوليا فيه عين تطرف وافى خلائق لا تحصى في قلعة نزار

وكان قائد قلعة نلار معتمداً على متانة جدرانه ومركزه من قمة الجبل محاطا بالاهاوي والاودية فغاب عنها فدهمها الزغل والسيف مشهور بيده فانهزم الاسبانيول من وجهه ولا ذرا طراً بالحصن وكان لهم قائد مقدام

اسمه جوان دوافالوا فأحسن البلاء وأحكم التدبير فلم يتمكن الزغل من الحصن فأدار حوله الخنادق وهدم جانبا من السور وأوشك أن يدخل الحصن عنوة لو لا ما أمطروه من النشاب والحجارة وقذفوا عليه من الانفاط والزفت وبقي القتال خمسة أيام متوالية لم يسيغوا فيها الريق حتى يئست الحامية ومالت الى التسليم فأنذرهم القائد بان الزغل يفحش فيهم العقوبة والانتقام بما هو معهود من قسوته فاعتبروا قوله وفضلوا الموت تحت الحصار على الموت صبراً بين يدي العدو وما زالوا في الضنك الى أن نفس من خناقهم بويرتودوكريرو بنجدة وافرة فأحرق الزغل المدينة وقفل الى وادي آش

ثم إن مغاربة المرية وطبرنة وبرشنة خرجوا واغاروا على مرسية وجهاتها وثار كثير من المغاربة الذين عاهدوا العدو، وفي هاتيك الايام هطلت أمطار غزيرة وجاءت سيول جارفة هدمت كثيراً من البنيان في مملكتي قشتالة واراغون واشتدت عواصف البحر فتحطم كثير من السفن

ولما أقبل ربيع سنة ١٤٨٩ عرض فرديناند جيوشه في جيان فبلغت ١٣ ألف فارس و ٤٠ ألف راجل فزحف بها قاصداً مدينة بسطة موطنا نفسه على ابادة ملك الزغل فاعد الزغل قوته لمصادمته لكنه لم يتجرأ أن ينهد اليه بنفسه خوفا من أن يشد عليه ابن أخيه من الوراء فيقع بين عدوين كبيرين ليس أدناهما اليه بالاقل عدوانا فسرح الى بسطة جميع الاجناد التي يستغني عنها في وادي الاشات واستنفر العامة الى الجهاد فامتلأت برشنة وطبرنة وقلاع البشرات بالخيل والرجل ورنت الاودية بقعقعة السلاح وصليل البوارق وكان ابن عم الزغل سيدي يحيي الناصر بن سالم في المرية

وكان قائد مجربا مقداما وللزغل فيه مزيد الثقة فاستدعاه من مكانه وأرسله الى بسطة بعشرة آلاف من شجعان المغاربة فتقوت بسطة بهذا المدد وبلغ مقاتلتها عشرين الفا عليهم ثلاثة من اكابر قواد الاندلس الاول محمد ابن حسن من أبطال عصره المشاهير والثاني حامد أبو حلي قائد الجند المخيم ببسطة والثالث قائد قيجار وكان من روس القواد وكانت القيادة العامة لسيدى يحيى ولكن علو الرأي كان لمحمد بن حسن لمزيد خبرته وبلائه وسداد آرائه وابحاثه

وبسطة بلدة حصينة واقعة في واد خصيب متسع الارجاء طوله ثماني مراحل وعرضه ثلاث يسمى الهوية محاطة بسلسلة روابي اسمها جبل الكحل ويسيل في واديها نهران يسقيان أرضها والمدينة مبنية في السهل لكنها محصنة من أحد طرفيها بوعر الجبل وبقلعة متينة ومن الطرف الآخر بسور مكين عليه أبراج شاهقة ولها ربض الى جهة السهل فيه حصون وأبراج وفي مقدمة هذا الربض غوطة أشجار مسافتها مرحلة مشتبكة السرح فينانة الدوح كأنها أجمة واحدة تدور عليها المياه باقنية متشعبة تسقي جميع غياضها وفيها مئات من الابراج متفرقة في البساتين فكانت هذه الغوطة بما فيها من اشتباك الشجر وكثرة مجارى المياه وعدد الابراج والحصون تجعل مقترب تلك المدينة في غاية الصعوبة

فعند ما قصد جيش الطاغية نزال بسطة اخذ أهلها يتأهبون للمقاومة ويعدون ما استطاعوا من قوة فحصدوا زروعهم قبل أن يستدرك الحب في السنبلة وادخروا المؤونتهم جميع ما وصلت اليه أيديهم فكنت ترى اقاطيع المواشي تباعا داخلة من الابواب والبهائم موقرة احمالا من

المؤن والميرة والسلاح والكراع من كل نوع فيمكن أن يقال على وجه التقريب ان بسطة أخذت عدة لحصار خمسين شهراً ولما اناخت عساكر فرديناند بساحة الموقع اشتدت الحركة في البلدة وازدادت الجلبة من قرع الطبول وتقليب السلاح وجاء فرديناند فضرب خيامه في الوادي بين البساتين وبعث الي أهل المدينة يدعوهم الى التسليم على شروط موافقة لهم ان انقادوا الى ذلك منذ البداية ويؤكد لهم أنه لا يرفع الحصار ولا يفرج عن البلدة ابداً حتي يتمكن منها، فعقد قواد المغاربة مجلساً حربيا وتشاوروا فيما يجاوبون به ملك الاسبانيول وكان سيدى يحيى قد استاء من انذار فرديناند فاراد أن يجاوبه بان حامية بسطة لا تسلم ابدا ولكنها تقاتله حتى تفنى جميعاً تحت انقاض السور فاجابه محمد بن حسن ان لا فائدة لنا من هذا الجواب فلنجتهد ان يكون في فعلنا ماينقض اعلان الطاغية وان تزيد فصاحة العمل على فصاحة القول وهكذا فقد أرسلوا الى الملك فرديناند جوابا في غاية اللطف والايجاز يشكرونه فيه على عرضه التسليم بشروط خفيفة لكن يعتذرون له عن الرفض بكونهم اؤتمنوا على المدينة ليحافظوا عليها لا ليسلموها

فعند ماأخذ الملك جوابهم شحذ غرار العزيمة وعوّل على التضييق والاخذ بالمخنق فتقدم بجملته صوب السور لاجل تمكين المحرقات من البلدة وأوجف بخيله ورجله وتغلغل الاسبانيول في البساتين ليتخذوا مركزا يمنعون فيه المغاربة من الخروج وانتشروا في أطرافها وكان الشبان الاغرار منهم متقدمين كأنما يوفضون الى اعراس الا أن أهل الحنكة والتجربة كانوا يرون في كل خطوة بين تلك الغياض خطراً ،وأما صاحب

صانيتاغو فحث أصحابه وتقدم بهم ووعدهم عن الله بالنصر وبينما هم على هذه الحال اذا ارتجت الارجاء بقرع الطبول وأصوات الهجاء واندفقت فرقة من المغاربة يقودها سيدي يحيي بنفسه لصد الاسبانيول عن التقدم فالتقت الفئتان فى مشتبك تلك الغياض مبالطة بالسيوف ومناضلة بالسهام ومطاعنة بالحراب لكن طبيعة ميدان الحرب من جهة التفاف الشجر وتقطيع البساتين بالاقنية وكثرة الابراج والبيوت جعلت الربح للمغاربة الذين كانوا يقاتلون مشاة حال كون الاسبانيول ركبانا ، زد على هذا كون أولئك أخبر بالارض وثناياها وزواياها وادرب على الكر والفر ، فلما رأى قواد الاسبانيول ذلك أوعزوا إلى كثير من الخيالة أن يترجلوا ويقاتلوا على أرجلهم فعندها استحر القتل وحمي الوطيس ، ولم تكن معركة عامة ، بل مجتمع معارك متفرقة ، إذ كل بستان أصبح ميدانا لمعركة ، وكل روضة صارت موطنا للنزال ، وعاد كل من المقاتلة لا يبصر إلا الذي حواليه ولا يعلم بالبعيد عنه ، وعادت القيادة وقرع الطبول عبثا ، لان كلا من الجند مشغول بنفسه متجرد لقرنه ، وفي بعض الاماكن كان الاسبانيول هم الظاهرين وفي غيرها كان العلو للمغاربة وربما انهزمت فئة من وجه فئة فتبعتها فسقطت على فئة ظافرة فانضم اليها شمل المنهزمين وجددوا الكرة ، وقد يقصد بعضهم الفرار من شدة الهول فيقع في جهة العدو ولا يدري إلا وهو فيهم ذلك من عدم تمييز العدو من الصاحب في مشتبك تلك الغياض وانصرف جهد كل من الفريقين إلى احتلال تلك الابراج القائمة في وسط البساتين ووضعت فى كثير منها النار فامتد الحريق وارتفع اللهيب وخرت الجدران وعلت الاصوات كقيام الساعة وازداد مشهد القتال هولا وروعا . هذا

وفرديناند ينتظر بذاهب الصبر نتيجة المصاف وهو في غاية القلق والجزع لا يعلم شيئا مما وراء هاتيك الاشجار الحاجبة لنور الشمس فكان يسرب البعوث والنجدات الي المواقع التى يخشي فيها الدائرة على قومه واجلت المعركة عن مهلك الدون جويان دولارة من أفراد ناشئة الاسبانيول وأعيانهم وأحبهم إلى قلب الملك، وكان قد اقترن حديثا بالدونة كاتالاينة دو أوريا من أبدع فتيات عصرها

وأما من الجهة الثانية فكان القائد محمد بن حسن وحوله جماعة من القواد مراقبين حركات القتال من فوق الاسوار مدة اثني عشرة ساعة استمرت فيها المناجزة وكانت كثافة ورق الاشجار تحول دون رؤية التفاصيل فلم يكن يرى الا بريق الخوذ ولا يلمح سوى لمعان النصال، ثم أخذت تفد الجرحي فارتفع عويل النساء وكانت ضجة هائلة عند موصل جثة رضوان ذي الفرغى من متمسلمة النصارى الذى صار من اعاظم قادة المسلمين ثم أخذ المغاربة يتقهقرون الى جهة المدينة وأمر فرديناند بنقل خيامه الي هاتيك الجهة وعندها طار محمد بن حسن الى نجدة سيدي يحيي واجتهد أن يزحزح الاسبانيول عن مراكزهم الجديدة لكن هجوم الظلام، حال بينه وبين المرام، فوقف متربصا مكانه ولم يدع للعدو راحة الليل بطوله، ولما أصبح الصباح كان مشهد القتال هائلا فالارض مغطاة بجثث القتلى تنبيء بلسان حالها عما احتملت من الحرب وأهوالها وهكذا أصبحت تلك الخمائل وهاتيك الحدائق مجر العوالى ومجرى السوابق

ثم ان فرديناند ادرك حرج الموقف الذى ضرب فيه خيامه وشدة الخطر الحائق، فاجمع على تقويض خيامه منه لكنه قدم طائفة من جيشه تشاغل العدو

الى أن يتمكن من إعادة المعسكر إلي محنه الاول فاغار سيدي يحي بقوة جسيمة من الخيل والرجال فلم يفز من المعسكر بطائل يذكر لكن رجوع المحـلة الى المكان الاول جعل المغاربة في منجاة من السوء عند الكر والفر نحو المدينة فعقد الملك مجلـسا مؤلفا من كبار القادة واستشار فيما يفعل فاشار عليه مركيز قادس بترك الحصار موقتاً بزعمه ان المدينة محصنة مكتفية في الميرة والذخيرة والسلاح وعدد المقاتلة لا يمكن افتتاحها الآن والجيش في تربصه أمامها معرض للمرض وإذا جاء الشتاء تعذر القتال وسالت الاودية وان من رأيه أن يعتاض عن الاصرار على منازلة بسطة باجتياح الكورة وافساد زرعها واطلاق الغارة على المدن والقري المجاورة إلى ان تكون تهيأت فرصة أخرى. وأما الدون غوتيارو دو كردناس امير لاره فذهب إلى أن رفع الحصار عن بسطة يتخذه العدو دليلا على الضعف ويزيد المغاربة جرأة ويستأسد به الزغل وربما يكون سبباً لانتقاض أهل غرناطة على أبي عبدالله وميلهم اليه فهو يرى الافراج من سفه الرأي، وكان الملك متردداً بين أن يقلع أو أن يقيم تارة يتصور المشاق التي ستحيط بمسكره خصوصا في جلب الذخيرة فيعول على رأى صاحب قادس وطوراً يتأمل فيما يترتب على الانصراف من استغلاظ أمر العدو فيميل إلى رأي أمير لاره، وبلغ الجند ماكان من تشور الملك واهتمامه وعزمه على الرحيـل ضنا براحتهم فقاموا يطلبون الاقامة في ساحة البلد الي أن يتم لهم فتحه ولما تضاربت الآراء بعث الملك يسأل الملكة رأيها بمكانها من جيان وكانت بينهما بُرُد مرتبة ذات مراكز يقوم أصحاب كل مركز منها بقطع المسافة التي تخصه بحيث تصل الرساله في عشر ساعات فاجابته انها تترك قضية الاقامة أو

الظعن إلى رأى الملك ووزرائه لكن فيما لو أريد الاستمرار تستعين الله فى تقديم جميع مايلزم للجيش من المؤونة والمال إلى أن تكون البلدة قد أطاعت فاجمع حينئذ فرديناند على الاقامة وعند مابلغ الجند عزيمة الملك ارتفع ضجيج السرور كأنهم اصابوا غنما أو أحرزوا فتحا

واتصل بسيدي يحي ماهو واقع من المراء في أمر الحصار فملل النفس بالآمال وترقب الفرج برحيل الملك لكن محمد بن حسن لم يكن يصدق ذلك واذا بحركة بجانبه في صبيحة يوم كادت تحقق رجاء سيدي يحي فان الخيام قوضت والآلة أنهضت والمدافع تعاورها النقل وخيل أن قد شالت نعامة الاسبانيول وخمدت لهم بارقة النصر وإذا بالطاغية قد قسم جيشه شطرين فجعل مركيز قادس على أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل وأصحبه بالدون الونزو دواغيلار ولويز فرديناند ربويرتو كريرو وغيرهما من مشاهير أبطالهم وجعل معه المدافع وسيره الى الجهة المقابلة للجبل واتخذ الملك لنفسه قيادة القسم الثاني وهو مؤلف من ستة آلاف فارس وجيش من المشاة كثيف وعدد من الجليين واستظهر بجماعة من عظماء المملكة مثل الكونت دو تنديلا وصاحب صانتياغو فأقام كل فريق على طرف من البساتين وضرب أوتاده هناك فنظر محمد بن حسن قائد بسطة فقال أما إنه لم يزل بينهما حاجز من الشجر لكن لم يكد يخرج منه هذا القول حتى ملأ الفضاء صوت انقعار الاشجار واعمل الاسبانيول الفأس فطارت قلوب المغاربة شعاعا بما أصاب بساتينهم وتصايحوا للمهاجمة دون القطع والتحطيم فاشتبك قتال أياما وتعددت الوقائع واتصلت الكرات باستمات البشر دون الشجر ، ورخصت الارواح في سبيل الادواح ، واستمرت

المناوشات أربعين يوما تمكن خلالها الاسبانيول من استئصال الملك الغياض وابادة هاتيك النضرة بملاحقة العمل والصبر على هجمات العدو ، وازيل الحاجز الذي كان بين المحلتين وعطلت بسطة من حلاها وعريت في آن واحد من جنة نزهتها وجنة وقايتها. ثم جعل الاسبانيول من احدى المحلتين الى الثانية ممرا وضربوا دونه السدود ورتبوا مجاري المياه وبنوا الابراج على الجوانب بحيث أصبح من المحال أن يحال بين المحلتين ، ثم طمع فرديناند في منع الماء عن بسطة وقال بعض الاسبانيول ممن أرخ الوقائع ان الماء ضروري لهؤلاء أكثر من الخبز لانهم على اضطرارهم اليه لاجل الشرب يحتاجون اليه لاجل الوضوء والغسل واسقاط الجنابة مما تأمر به ديانتهم ولا نحتاج اليه نحن الاسبانيول. وكان لبسطة عين تجري من قمة «أبو الحسن» وراء البلدة وكانوا يتبركون بمائها فلما احسوا بما أجمع عليه الاسبانيول خرجوا تحت جناح الليل وأقاموا اعندها من الحصون مايعصمها من كل غارة

وفى خلال هذا الحصار خطر لبعض فتيان الاسبانيول شن الغارة على نواحي وادي آش وكان في مقدمتهم فرنسيكو دوبازان وأنطونيو دوكويفا فجمعا نحواً من ثلثمائة فارس ومئتي راجل وسارا مستترين بجناح الليل آخذين بشعاب الجبل حتى وافيا قرى الوادي قبل تحقق الفجر فاسروا من صادفوه من اهلها وأنهبوا مالها وحطموا زرعها وساقوا نعمها كل ذلك في لحظة وقفلوا غانمين قبل أن يشعر بهم أحد فطار بعض رعاة المواشي الذين خلصوا من شرهم واعلموا بهم الزغل فسرح فى أثرهم ستمائة من نخبة فرسانه ورجالته فادركوهم في طريق انصرافهم ولما التقت العين بالعين وجد الاسبانيول أنفسهم دونهم في العديد والقوة فتصوروا ترك الغنيمة والرضى بالاياب

لكن فرنسيكوا دوبازان وانطونيو دوكويفا لم يوافقاهم على الفرار بحجة أن المشاة الذين مهما لو فروا لاستاحمهم العدو وان المقاومة هي أنجى لهم في تلك الحال فاختلفت الآراء بينهم وأراد القواد حسم النزاع فأمروا حامل الراية أن يتقدم فتوقف وكاد القوم يولون الادبار فتقدم فارس من الحرس الملكي اسمه هرناندو بيرز دلبلغار قائد حصن سالار ورفع منديلا كان متلثما به على حسب عادة أهل الاندلس وعقده برأس الحربة ونادى أصحابه فدبت الحمية برءوسهم وكروا بقلب واحد وصدقوا الحملة فانكشف العدو دون انتظار وقتل نحو ثمانمائة من المغاربة وأسروا جماعة وقفلوا ظافرين فكافأ الملك هرناندو المذكور بلقب فارس وأجاز له رفع ذلك المنديل في مواطن قتاله

وبينما كان الزغل ينتظر اياب أصحابه بالغنيمة اذ رآهم راجعين فرقاء مغلوبين حزقا، فرأى الاقدار معاكسة له والدهر قد قلب ظهر المجن وما كان يترامى اليه من أخبار بسطة وهلاك قسم كبير من حاميتها واشتداد الكظام بأهلها، ولم يكن في وسعه أن يخف اليها بذاته خوفا من أن يقتحم تلك الفرجة ابن أخيه من غرناطة فيسلبه ملكه فكان يبعث اليها بالمدد بعد المدد لكن الاسبانيول كانوا يلاقون الامداد فيغلونها قبل الوصول الى المدينة ومع ذلك بقيت حالته أجمل من حالة ابن أخيه السلطان أبي عبد الله لانه حفظ لنفسه هيبة سلطان ذي صولة وصاحب دولة

وأما ابن أخيه فكان ملكا تابعا لملوك قشتالة وحزب القتال في غرناطة لم يكن ليساوي بين المجاهد المرابط المثاغر والخائن الخاضع الخانع لغير أهل الدين ، واخبار بسطة كل يوم تنكأ قلوبهم ، وتفت في

اعضادهم ، حتى عثت المراسلات فيما بينهم في الوثوب على الحمراء وقتل أبي عبد الله والنفوذ من غرناطة حزبا واحدا الى وادي آش ومنها الى بسطة للافراج عن المحصورين ، لكن لحسن بخت أبي عبد الله وسوء طالع الاندلس عرف هذا الملك بالمكيدة فضرب أعناق رؤساء الحركة ورفع رؤوسهم فوق جدران الحمراء ، فانزل بذلك الرعب في القلوب ، ولم يبق في غرناطة عرق ينبض لثورة ، واحس فرديناند بما كان في عزم الغرناطيين فازداد حذره وضاعف القوة ووضع المحارس وبث العيون والروادوأخذ يظهر لاهل بسطة كل يوم من القوة بمظهر جديد ، وهم ينتظرون النجدة ولا يحضر لصريخهم أحد حتى يئسوا وغلب عليهم القنوط فاراد محمد بن حسن أن ينبه عزائمهم ويحيي آمالهم ، فقال لسيدي يحيى لزم أن نظهر للعدو اننا لم نزل على عزمنا وقوتنا فجمعا جيوشهما وخرجا بقوة عظيمة فالتقاهما فرديناند بجموعه وهدرت طبول الحرب وتزاحفت الصفوف من كل جانب واستماتت كتائب المسلمين فانكشف الاسبانيول ووقع الخلل في مصافهم ، ولم تتم عليهم الهزيمة لوفرة أعدادهم وسعة محلتهم فقفل المسلمون بالغنائم ودخلوا البلد ظافرين ومن ثمة أخذوا يرسلون الجنود من جهة الجبل فيهبطون السهل كلمح البصر ويغنمون المواشي ويعودون بها الى بسطة ، وجرى خلال ذلك وقائع متفرقة شديدة امتاز فيها بين الاقران الدون الونزو دراغيلار

ومما يروى أن أحد فرسان الاسبانيول المسمى مارتين غالند وشاهد للمغيب الشمس فارسا مغربيا شديد الصولة باهر الفتك يحمل على الاسبانيول فلا يقف في وجهه فارس الا جدله ، ولا يساوره قرن الا صرعه ، فتصدى غالندو لبرازه فتصاولا وتجاولا ساعة فجرح المغربي في وجهه وانقلب عن صهوته

فقبل أن يقحم الاسبانيولي جواده ليفتك به كان المغربي نهض على رجليه واستل حربته واعجله بجرح في رأسه، ومع كونه على رجليه وكون قرنه راكبا كاد لشدة بأسه وخفة حركته يورده حتفه لولا اسراع رفاق للاسبانيولي بنجدته. فعندها أخذ المغربي يتقهقر رويداً رويداً الى أن صار بين أصحابه. فسئل عنه فاذا به من عشيرة بني سراج. ولما كان الوجه في أكثر هذه المبارزات الفردية للمغاربة شدد الطاغية في منع قومه عن قبول هذا البراز وحظر عليهم المناوشات الخاصة لعلمه اليقين ان المغاربة اقوم من كل شعب في الارض على هذا النوع من القتال وانهم أدرى بالارض وأهدى فيها سبيلا

قالوا وبينما كان الاسبانيول يحصرون بسطة اذ شوهد في المعسكر أثنان من أجلاء رهبان الفرنسيسكان الواحد منهما ذو هيبة وهيئة ووقار عظيم راكب جوادا كريما بسرج مذهب والآخر متصاغر متضائل يسعى وراء الاول راكبا رمكة بسرج خالٍ من الزينة، وكان دائما مطرقا في الارض ماشيا القصد خافض الجناح، فلما شوهد هذان القسيسان في الجيش تكلم الناس في مجيئهما، على انه كان معهوداً حضور الرهبان في هاتيك الحروب المقدسة، فطالما اجتمعت الخوذة والقلنسوة تحت راية واحدة فظن من البداية أنهما من الرهبان المجاهدين لكن فُهم أخيراً أنهما قادمان من الاراضي المقدسة برسالة مهمة. أما صاحب الوقار والتصدر ودلو النعمة فهو الاب انطونيو ميلان رئيس دير الفرنسيسكان في بيت المقدس كان ممتلىء الجسم جهير الصوت طلق اللسان ذا أساليب خطابية ممن تعودان يقول في الناس ويسمع له الناس، وأما رفيقه فكان صغير القد مختصر الجرم مصفر اللون لين الحديث خفي الاشارة خافت الصوت وكان من التواضع وخفض الجناح على ما ينبغي أن

يكون عليه من انتمى الى مثل دعوته، وتلبس بمثل حلته، لكنه كان من أهم رهبان الدير وأحسبهم وأدربهم، كان اذا رفع نظره من الارض انقدحت عيناه شراراً فبينما يظنه الانسان أودع من الورقاء، اذا هو أدهى من الحية الرقشاء

وكان هذان الراهبان آتيين من عند سلطان مصر في ذلك الوقت الملقب قبل الافرنجة بسودان مصر لانه كان الاتفاق بين هذا السلطان وبين السلطان بايزيد الثاني صاحب القسطنطينية على إصراخ مملكة غرناطة وضمافيما بينهما اوزار الحرب اجتماعا على مظاهرة الملة وتفرغا للجهاد ثم أوفد صاحب مصر هذين الراهبين بكتاب منه إلى ملوك قشتالة وإلى البابا والى ملك نابلي منكراً عليهم ماهو واقع من العذاب على مغاربة غرناطة الذين هم من بني ماته وجلدته بينما عدد كبير من المسيحيين راتعون في ممالكه في بحابح الراحة والامان متمتعون باملاكهم وحقوقهم ناعمون بحريتهم الدينية فهو يلح في الافراج عن مسلمي الاندلس وتمكينهم من الاملاك التي اغتصبوهم إياها وأجلوهم عنها، والا فانه يمحو بذباب السيف جميع النصارى الذين هم في ممالكه ويخرب معابدهم ويجعل كنيسة القيامة في القدس قاعا صفصفا. وكان خبر هذا الانذار قد ذاع بين مسيحيي الشرق فأقض مضاجعهم وروع قلوبهم وصاروا ينتظرون خلاص مسلمي الغرب لئلا يؤخذوا بجريرة المعتدين عليهم

فالتقى فردينانِد ذينك الوافدين براً وتجلة كعادته من ملاقاة رجال الدين وخلا بهما مراراً مستقصيا منهما ملياعن أحوال النصرانية في المشرق

وكان الوافدان قد عاجا برومة لتسليم البابا كتاب سلطان مصر فكتب البابا معهما الى ملوك قشتالة يستشير فيما يجب أن يجاوب على خطاب صاحب مصر وكتب بمثل ذلك ملك نابلي وتوخى في كتابه تخطئة ملوك

قشتالة ولو من طرف خفي فيما هم مباشروه ومما جاء فيه انه والئن كان المغاربة مخالفين فى المذهب فليس من الجائز الاساءة اليهم بدون سبب عادل وانه ان كان ملوك قشتالة لا يصبرون على أدنى أساءة من مسلمي اسبانية فليس من اللائق بمقامهم أن يأتوا أقل عمل من شأنه أن يجر على النصرانية وبلاء — الى آخر ماذكر من هذا القبيل مما نقله بعض الاسبانيول وعقبه بالطعن فى ذلك الملك والقدح فى أمانته للنصرانية واتهامه بالعصبية مع صاحب مصر الا أن بترو باركا لا يعزو ركوب ملك نابلى ظهر الخلاف فى هذه المسألة إلى نقص في حميته الدينية بل لمآرب سياسية بأنه كان يعتقد انه ان تمكن فردينامد من فتح غرناطة أمكنته الفرصة وتهيأت له الوسيلة للادعاء بملك نابلي انه تابع لمملكة أراغون

أما فرديناند فأجاب ذلك الملك جوابا في غاية اللطف والرشاقة أتى فيه على تفاصيل تلك الحرب وبين له وجوه الحق في غشيانها وختم كتابه بتسكين روعه من جهة نصارى المشرق مؤكداً له أن الاموال التي يدفعونها هي الجنة الواقية لهم دون مايتهدد به سلطان مصر من استئصالهم وكتب إلى البابا يعرض له أسباب الحرب وهي تنحصر في ثلاثة الاول استرجاع أرض تملكها المغاربة بالسيف والثاني مجازاتهم على سيء المعاملة التي عاملوا بها المسيحيين والثالث انها حرب مقدسة يقصد بها اعلاء مجد الكنيسة

وبعد أن أقام الراهبان الوافدان بالرسالة مدة بمحلة الملك يقصان على قواد الجيش أخبار المشرق شخصا الى جيان لمقابلة أعظم الملكات كذلكة الا وهي الملكة إيزابلا فاستقبلتهما من البر والاحتفاء بما يفوق الاطراء وعينت لدبرهما في بيت المقدس احسانا سنويا نحو الف دوكا وعند انصرافهما

سلمتها غشاء باهر النفاسة مطرزاً بيدها الملوكية لوضعه على القبر المقدس

قال الكاتب الانكليزي الشهير واشنطون أرفن: ولم يذكر الاب أغابيدا مؤرخ هذه الوقائع نتيجة الرسالة التي وفد بها ذانك الراهبان وهي انه فيما بعد أزعج فردیناند وایزابلا المؤرخ الشهير بطرة مارتير انغلريا سفيراً الى الشرق لدى صاحب مصر أو بحسب قولهم السودان لاعظم فابدى من الحذق والمهارة بتلك السفارة ما أقنع به ذلك الملك الشرقي واستجلب به ميله وفاز منه بايثار غرضه وحصل على أوامر برفع كثير من المغارم عن زوار القدس الشريف ولبطرة المذكور رحلة شهيرة في بلادهم ضمنها جما من الفوائد والنوادر (١)

هذا وبقي الحصار مستمراً على بسطة ونفير فردیناند وایزابلا ينبعث الى آفاق اسبانية فتكثف الجيوش وتتوارد المقاتلة من كل فج ولم يكن العناء كله في جمع الاجناد بل بازاحة عللهم وتوفير أقواتهم ولم تنحصر النفقة في الجيش المقاتل وحده بل كان يلزم الملك وامرأته تسريب لذخيرة لجميع المدن التي دخلت في حوزتهما وكفاية حماتها الماسبق أخذها من الاكتساح والعيث الذي غادرها كجوف العير فرتبت الملكة الوفا من البهائم لنقل الاقوات وجعلت عليها خفارة وافرة لصد غارات المغاربة في الطريق وأقامت توصل الامداد صباح مساء ولما فرغت خزينتها من النقد استعانت باعيان البلاد والبطارقة فقدم كل منهم ماوصلت اليه يده من النقد وبعضهم قدم ماعنده من الحلي والجواهر وباع الاساقفة آنية الكنائس واستنزفوا

---

(١) لا يوجد حل لهذه المسائل الا بوجه واحد وهو ان الشرقيين اكرم اخلاقا من الغربيين وان قاعدة « اذا ملكت فأسجح » لا تعرفها اوربا

مافي خزائن الاوقاف من الكنوز وتبرع التجار بمبالغ طائلة من المال وجاد كثير من العشائر الاصيلة بذخائرهم وتفائسهم وأخيراً أرسلت الملكة نفسها حليها وآنية القصر الثمينة الى برشلونة وبلنسية وباعتها لاجل شراء الاقوات والميرة ولإزاحة علل العساكر

وبينما كانت قطر الحيوانات ترد تبعا موقرة بالذخيرة والطعام إلى مخيم الملك فرديناند وقوة الاسبانيول تتعزز يومافيوما بازاء بسطة كانت الاقوات ابتدأت تنفد في البلدة والمجاعة تمض الحامية بنابها، لكن بقي لاهل بسطة أمل في الفرج بهجوم الشتاء وتراكم الامطار وحسبوا أن لا بد من أن السيول المتحدرة من الجبال تضطر الطاغية للظعن بمحلته وبينما هم يتعللون بهذا الامل إذ أخذ الاسبانيول يبنون بيوتا من الخشب مسقوفة بالآجر حتى كمل لهم نحو الف بيت على هذه الصورة لاقامة الامراء والقواد، واتخذ الاجناد لانفسهم بيوتا من الطين موطدة بفروع الاشجار ومغطاة بالخوص، وصارت المحلة عبارة عن مدينة قائم في وسطها بناء كبير لنزول الملك يخفق فوقه علما أراغون وقشتالة وقد عول فرديناند على اختطاط هذه المحلة توقيا من السيل وقطعا لامل المغاربة من الافراج الا أنه لم يكد يتم بناءها حتى عصف إعصار شديد صحبه مطر مدرار وسيل أتي فتهدم جانب من البيوت وهلك خلق كثير من الجند والخيل والماشية وفسدت الاقوات والذخيرة وارتاع الجيش وخافوا الهلاك ولكن أسعدهم الطالع باقلاع المطر فخفت وتيسرت الحركة وأرسلت الملكة بعوض عما نقص من الزاد وبعثت ستة الاف رجل لترميم الطرق التي أضر بها السيل وإقامة المعابر عليها وأعاد الملك بناء البيوت التي تهدمت في المحلة ورجع

الاطمئنان إلى قلوب الاسبانيول

وخاف الطاغية تكرر الاعصار والغرق وتفشى المرض في جيشه فراسل أهل بسطة في التسليم على أن يؤمنهم في أنفسهم ونفائسهم فبعث اليه محمد بن حسن بجواب لطيف العبارة سلبي المعنى وكانت أخبار السيل وما ألحقه من الضرر بمعسكر فرديناند قد وصلت اليهم مع المبالغة فطمعوا في رحيله وتشددت عزائمهم وبرزوا للقتال فحدثت عدة مناوشات هلك فيها جملة وافرة من رجالات الفريقين وحدثوا أن في احدى هذه الوقائع خرج نحو ثلثمائة فارس وألفي راجل فاحتلوا مرقبا وراء المدينة وركبوا فيه ريح الاسبانيول فتنازشوا ساعة واستوت الهزيمة على هؤلاء فتبعوهم وقد فقد منهم جملة الى أن حصلوا في محلة كونت تنديلة وغونسلاف القرطبي فصدقوها الحملة فتداعى رجالها للفرار وثبت الكونت وصاحبه في موطنهما اذ وجدا الثبات أدنى الى السلامة من الهرب فانضم اليهما من صبر من الجند وصدوا المغاربة فاوقفوهم ولكنهم كادوا يختلون في مصافهم ويحق عليهم الغلبة واذا بالونزودواغيلار وكونت ارزينه وجماعة من رجالاتهما قد أقبلوا فتلقوا الصدمة وتكاثروا فارتد المغاربة نحو المدينة وجرى على هذا النمط عدد من الوقائع لم تخفق فيها راية ظفر تام لاحد وكانت ثمرة المغاربة في القتال تزداد بازدياد يأسهم وخناقهم وكان الامير سيدي يحيي دائما في مقدمة جنده لكن فراغ الخزائن من المال ونفاد القوت قطعا من آماله وتذاكر مع محمد بن حسن في الحالة فاجمعا على استمداد الاهالي وبينما لهم تعذر المقاومة مع إعواز القوت فتشاور أهل بسطة بعضهم مع بعض وجمعوا ما عندهم من الحلي والآنية من ذهب وفضة ودفعوها لمحمد

ابن حسن قائلين له «خذ هذه فاضربها نقداً أو فبعها أو فارهنها واستحضر مالا لقوت العسكر» وقالت نساء بسطة بعضهن لبعض «هل يليق بنا أن نتبرج ونتزين بهذه الحلي حالة كون بلادنا خرابا ورجالنا محتاجة الى القوت الضروري» ثم جمعن ماعندهن من العقود والاساور وسائر الحلي ودفعنه لمحمد بن حسن قائلات له «خذها ودافع بها عن ديارنا وعيالنا فان افرج عن بسطة لم نحتج الى الزينة لاجل اظهار فرحنا وان اخذت بسطة فاي حاجة للاسير بالحلي والجواهر».

فتمكن محمد بن حسن بهذه الاعانة من مداومة الدفاع ونمي الى الملك مافعل أهالي بسطة وما تجدد عندهم من النشاط فعمد الى مقابلتهم بما يوهن عزائمهم وكتب الى الملكة يدعوها الي المعسكر فبينما محمد بن حسن يشدد حماة البلدة ويبسط لهم الامل برحيل الملك اذ سمع قرع الطبول فشخصت الانظار الى جهة محلة الاسبانيول فاذا بالملكة قادمة بجيش يحف بها بطانه عظيمة بابهى الملابس وعلى يمينها كريمتها البرنسس ايزابلا وعلى الشمال الـكردينال الاكبر في اسبانية ووراءها جماعة من عقائل اسبانية السريات فلما شاهد القائد محمد هذا المشهد فت في عضده والتفت الى أصحابه قائلا «يا اخواني أصبح تسليم بسطة مقرراً»

وقد كان لوصل الملكة ايزابلا من الابهة والوقار ما أثر في خواطر المغاربة أنفسهم وعزم بعض رجالهم أن يهاجموا موكب الملكة لدن وصوله فنعهم الامير سيدي يحيى حرمة لمقام الملكة وأطل جميع سكان بسطة من السطوح والمآذن والابراج لمشاهدة وصول الموكب وكان احتفالا فائقا وعلت فيه السكينة جميع الجوانب وعند ما أيقن المسلمون أن الملك والملكة

لا يرحلان إلا بتسليم بسطة مالوا الى التسليم وتمشت رجالات الاسبانيول بالصلح فحضر الدون غوثيار دو كردناس واجتمع بالقائد محمد بن حسن وقال له باسم الملك انه ان سلم أهل بسطة الآن يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وحرية اعتقادهم والافان أصروا على المقاومة لم يأمنوا أخيراً لا على دم ولا على مال ولا على دين محمد، وذكره بما أصاب مدينة مالقة فراجع سلطانهم الزغل في ذلك وكتب له سيدي يحيى كتابا وأرسل به القائد محمد بن حسن فلما وصل الى وادي آش وجد السلطان منقطعاً في جهة من قصره يتأمل في سوء بخته وما آلت اليه الاحوال فسأله عن حال بسطة فأجابه تفهم من هذا الكتاب ودفع اليه كتاب سيدي يحيى فقرأه حتى أتى على آخره وعرف اضطرار البلد للتسليم وما عرضه عليهم الطاغية من الشروط الموافقة ولم يخالج صدره أقل ريب في كلام سيدي يحيى لما كان عليه من الثقة فيه والتعويل عليه وخلطه بنفسه كأنهما شخص واحد فتنفس الصعداء وتوجع ملياً وأخذ يفكر فيما يعمل مطرقا ساعة ثم أمر فحضر الفقهاء والشيوخ وتشاوروا فيما يفعلون فاجلى المجلس عن تعذر إمداد بسطة بشيء فاستدعي الزغل قائد بسطة محمد بن حسن وقال له اذهب الى ابن عمي سيدي يحيى وقل له لا ينتظر مني نجدة لانني لا أقدر على تلبيته بشيء فليفعل ما يبدو له فعاد القائد بالجواب وكان أمراً مقضياً لان قواد بسطة تصالحوا مع فردينا ند على أن يدخل البلد وينال الجميع الامان ويخرج من جاء في صريخ بسطة من فرسان المغاربة بخيلهم وامتعتهم الى حيث شاءوا ويكون تسليم البلدة والقلعة في ستة أيام وأما أهل بسطة فلهم الخيار بين أن يرحلوا بأموالهم أو أن يقيموا بالربض متمتعين بأملاكهم وحريتهم

الدينيـة وخلع الملك فرديناند على القواد وأكرمهم وأنعم عليهم واختص بايثاره الامير يحي وأدناه ونال هذا من الحظوة لديه ولدي الملكة ما أكد لهما صداقته وتعلق قلبه بالملكة بما بهره من جمالها ولطفها ورصانتها فأخذ يسعى فى خدمتها ويتزلف الى مرضاتها بانواع المناصحة وحبب اليه حبها النصرانيـة فيقال انه تنصر سراً وقد أطنب المؤرخ أغابيدا الاسبانيولي في وصف تلك النعمة وعد هذه من فتوحات فرديناند وذهب بعض مؤرخي العرب بحسب قول واشنطون أرفن الى أن الطاغية استغوى هذا الامير باجزال الصلات واسناء الجوائز وتوسيع الاقطاعات ولـكن أغابيدا يقول ان ذلك كان حكمة منه لاجل بسط يده وانفاذ كلمته فيما يعود باستمالة كثير من قومه الى النصرانية وانه بقصد ابقاء سطوة الامير يحي على المغاربة صدر أمر الملكين بابقاء مسألة تنصره مكتومة الى أن يكون قضى بواسطته أوطاره كذلك دخل القائد المجرب محمد بن حسن في خدمة فرديناند واقتدى به كثير من فرسان المغاربة

وكان تسليم بسطة فى رابع دسمبر سنة ١٤٨٩ بعد حصار ستة أشهر وعشرين يوماً ووجد فيها نحو خمسمائة أسير نصراني وهلك تحت أسوارها من عساكر الطاغية عشرون ألفا قيل منهم سبعة عشر الفا ماتوا بالامراض والباقون هلكوا في القتال واقتدى ببسطـة غيرها من المدن كالمكب وطبرنة وكثير من حصون البشرات ودخل أهل تلك الجهات جميعا فى ذمة الطاغية واعتنى فى البداية باحسان معاملتهم واجزال العطاء في قوادهم سياسة منه لاستمالة جمهورهم اليه ورضاهم بسلطانه

وكان من هؤلاء القواد رجل يقال له علي بن الفخار في يده عدد من

المواقع والحصون فحضر فى جملة القواد الذين سلموا مفاتيح حصونهم وانقلبوا بالصلات والجوائز وكان شامخ الانف شديد الرزانة والوقار فلما وصل الدور اليه خاطب الملكين بحرية الرجل العسكري وان كان لم يستطع اخفاء يأسه وانكساره فقال لهما « أنا رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبرشنة قد تسلمت هذه الحصون لاجل محافظتها لكن الذين عهد الي بقيادتهم فقدوا كل نهضة وقوة وعادوا لايطلبون سوى الامان فهذه الحصون أصبحت أيها الملوك العظام لكم متى شئتم ابعثوا من يستلمها » فأمر فرديناند فى الحال باعطائه مبلغا طائلا من المال جزاء هذا التسليم الجزيل القدر فامتنع من أخذه منكراً ذلك انكاراً شديداً وقال لهما أنا لم آت لابيع ماليس ملكي بل لاسلم ماجعلته الاقدار الالهية ملكا لكما وايكن يقينا عند جلالتكما انه لو وجد من يسعفني كما يجب لكان الموت هو ثمن هذه الحصون بدلا من الذهب الذي يعرض علي »

فاعجب الملكان بانفة هذا القائد وشهامته وأمانته وتمنيا أن يكون منتظماً فى جملتهم ويدخل فى خدمتهم فأبى خدمة أعداء ملته وقومه ولما يئسا منه قالت له الملكة إيزابلا إذا لا يوجد لك حاجة نظهر لك بقضائها مالك فى جانبنا من الاعتبار، أجابها بلى حاجتي عندكم أنني تركت فى المدن والحصون التي سلمتها كثيراً من بني ملتي البائسين الذين لا يتيسر لهم الرحيل عن أوطانهم بنسائهم واطفالهم فأرجوا أن تعطوني وعداً ملوكيا بحمايتهم واطلاق الحرية لهم في دينهم وأملاكهم، فوعداه بذلك ثم، قالت له الملكة وهلا تطلب شيئا لنفسك قال كلا سوى الاذن في الاجازة بخيلي ومتاعي فأراد الملكان أن يجبراه على قبول صلتهما من المال مع الخيل الثمينة المسروج

لا يقصد المكافأة بل على سبيل الهدية فانكر أن يصيب هذه النعمة وذالك الوفر في زمن بؤس قومه وخراب وطنه ثم أخذ تذكرة الاجازة من الملك فرديناند واستصحب خيوله وخدمه وامتعته واسلحته والقى على بلاده نظرة الوداع كاسف البال بادي الكآبة لكن بدون أن تسقط له دمعة ولا يترطب له جفن وركب جواده قاصداً البحر لاجل الاجازة الى افريقية

وقال في نفح الطيب بشأن بسطة وحصارها الطويل « وفي عام أربعة وتسعين خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب واستولى على ماهنالك من الحصون ثم نازل بسطة وكان صاحب وادي آش لما تبين العدو محلته بعث جميع جنده وقواده وحشد أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات فلما نزل العدو بسطة أتت الحشود المذكورة ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تقهقر العدو عن قرب بسطة ولم يقدر على منع الداخل والخارج وبقي الامر كذلك رجب وشعبان ورمضان ومحلات المسلمين نازلة خارج البلد ثم ان العدو شد الحصار وجد في القتال وقرب المدافع والآلات من الاسوار حتى منع الداخل والخارج بعض منع واشتد الحال في القعدة والحجة وقل الطعام وفي آخر الحجة اختبر الطعام في خفية فلم يجدوا الا القليل وكانوا طامعين في اقلاع العدو عند دخول فصل الشتاء واذا بالعدو بنى وعزم على الاقامة وقوي اليأس على المسلمين فتكلموا في الصلح على مافعل غيرهم من الاماكن وظن العدو أن الطعام لم يبق منه شيء وأن ذلك هو الملجيء لهم للكلام وفهموا عنه ذلك فاحتالوا في إظهار جميع أنواع

الطعام في الاسواق وابدوا للعدو القوة مع كونهم في غاية الضعف، والحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم وهو عين ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس وعند تحققهم بقاء الطعام والقوة أعطوهم الامان على أنفسهم دون من أعانهم من أهل وادي آش والمنكب والمرية والبشرات فان دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الامان وإلا فلا، فلم يوافق أهل البلد على هذا وطال الكلام وخاف أهل البلد من كشف الستر فاتفقوا أن تكون العقدة على بسطة ووادي آش والمرية والمنكب والبشرات ففعلوا ذلك ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو وعلى شروط شرطوها وامور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم وقبض الخواص مالا وحصلت لهم فوائد . وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملكوها ولم يعلم العوام كيفية ماوقع عليه الشرط والالتزام وقالوا لهم من بقي بموضعه فهو آمن ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالما ثم أخرج العدو المسلمين من البلد وأسكنهم بالربض خوف الثورة »

وكان الزغل قابعا في كسر بيته من وادي آش يسمع كل يوم صريخا ويرن في اذنه كل ساعة صدى ويل، وبلاده تسلم الواحدة بعد الاخرى الى العدو، والاقدار تتكسر اطرادا، والضربات تنهال عليه دراكا، وفي هذه الحالة قدم عليه ابن عمه سيدي يحيى عدوا في ثياب صديق، وبعيدا في صفة قريب مشارك في الهم والدم، ولم يكن الزغل علم بتنصره اذ بقي ذلك سرا فارتاح جدا الى رؤية ابن عمه في ذلك الوقت الضيق ولما أقبل عليه عانقه لزاما وضمه الى صدره وبثه همه فأخذ سيدي يحيى توطئة لما يترجى من خدمة الطاغية يبين له اليأس من الحالة وعقم الدفاع من الفائدة لما هو مقدر

من سقوط مملكة غرناطة بين أيدي النصارى، وان المنجمين لم يكذبوا فيما حكوه عن أبي عبد الله الشقي وان السقوط سيكون على يده وانه لما أسر في لشانة كان تبادر للظن انها هذه الواقعة التي أشار اليها المنجمون وان النحس قد انقضى فظهر الآن أن ليس المقصود واقعة مفردة بل وقوع المملكة باسرها، بحيث كان أمر الله قدراً مقدوراً لزم التسليم لمشيئته تعالى واذ وقع القضاء فليس الا التسليم والرضى. فاطرق الزغل ساعة وهو غريق في لجج الهواجس والاشجان، ذاهب من التأمل والتألم في بحران، ثم رفع رأسه وكبر وحوقل وقال ليس من القضاء مفر. (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) تالله لو لم يكن سقوط غرناطة قدراً لكان سناني وحسامي زعيمين بحفظها

فقال له سيدي يحيى وماذا استقر في عزمك الآن هل أجمعت تسليم المدن الباقية لك الى ابن أخيك أبي عبد الله حليف النصارى فلما سمع الزغل ذلك اضطرب كله وقال له كلا بل أفضل ان أرى رايات العدو خافقة فوق هذه الابراج من أن أسلمها لهذا الشقي فاغتنم سيدي يحيى فيها الفرصة، وأخذ يرغبه في التسليم ويحسن له الانحياش الى الطاغية والدخول في ذمته، الى أن حصل أخيراً على موافقته، فانقلب الى الطاغية بما أراد وتقرر تسليم المرية ووادي آش وسائر البلاد التي في يد الزغل وأن يكون الزغل لقاء ذلك حليفا للملكين ويقطع أرضاً واسعة في البشرات مع نصف الملاحة ويلقب بملك اندرش ويكون الفا مدجن رعية له، ويتمتع بدخل أربعة ملايين مراويد. هذا الى مواعد كثيرة

وتقرر بينهما على أن يكون التسليم في المرية في سبع عشرة خلت من دسمبر تحرك الملك فرديناند من بسطة بقسم من جيشه وتبعته الملكة

بالقسم الآخر ماراً بالمدن والحصون التى دخلت فى طاعته فلما صار على مقربة من المرية لقي السلطان اباعبدالله الزغل خارجا في ملاقاته مع الامير سيدى يحيي وجماعة من الخواص ولم تخف على وجه الزغل علامات الغيظ الشديد والاسف البالغ وكان ظاهراً على خضوعه التكاف وفى مقادته الصعوبة وكأن لسان حاله يحدث بان خضوعه انما كان للقدر لا للقُدر ولله لا للبشر

على انه لما اقترب الملك فردبناند ترجل الزغل وتقدم اليه وهوى على يده كمن يريد استلامها فتجافى الملك عن ذلك حرمة للقب السلطنة وانحنى اليه فعانقه رأشار اليه باستئناف الركوب وأجمل في مكالمته ولما تم لهاستلام البلاد لحق الزغل بارضه في جبل البشرات حيث انقطع يحثو على رأسه تراب الذل

وحيث توخينا نصحا بالتاريخ وامعانا في تمحيص الروايات مؤاخاة النقل الافرنجى بالرواية العربية نتبع ماقاله بهذا المقام أيضا صاحب النفح وهو ،، ثم ارتحل العدو للمرية واطاعته جميع تلك البلاد ونزل صاحب آش للمرية ليلقاه بها فلقيه واخذ الحصون والقلاع والبروج وبايع له السلطان ابو عبدالله على أن يبقي تحت طاعته فى البلاد التى تحت حكمه كما أحب فوعده بذلك وانصرف معه الى وادى آش ومكنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور واطاعته جميع البلاد ولم يبق غير غرناطة وقراها وجميع ماكان في حكم صاحب وادى آش صار للنصارى في طرفة عين وجعل في كل قلعة قائداً نصرانياً وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم مالا من عند صاحب قشتالة اكراما منه لهم بزعمهم فتباً لعقولهم وماذلك منه إلا توفير

لرجاله وعدته ودفع باتي هي أحسن ثم أخذ برج الملاحة وغيره وبناه وحصنه وشحن الجميع بالرجال والذخيرة وأظهر الصلاح والصحبة مع صاحب وادي آش وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرا منه وخداعا ودهاء » انتهى

وأما صاحب غرناطة الشيقتو فلما وصل اليه خبر نزول عمه على حكم الطاغية طار فرحاً وظن انه بالغ امنيته وانه من الآن فصاعداً أمن النزاع واصبح بدون مناظر وتمكن سلطانه بتمكين ملك الاسبانيول الذي هو حليفه الى غير ذلك من الاماني الكواذب التي قلما تخطر الا في بال امثاله ممن يضيعون مثلما أضاع وكاد يأمر بالزينة لبشرى خذلان عمه لولا أن وزيره يوسف ابن كماشة نبهه من غفلته وأصحاه من نشوته وقال له أفق فان الزوبعة كانت في أفق واحد فستنتقل الى أفق آخر مع هذا لم يقنع لحماقته وسخفه وأمر فاسرج له جواده وخرج للنزهة فسمع باذنه كلام السوء في حقه وأيقن بغضب العامة منه اذ كانوا يعتبرون الزغل هو السلطان المجاهد المرابط الحامي ذمار الملة وانه ما سيق الى ماسيق اليه الا اضطراراً بمظاهرة ابن أخيه للعدو عليه فأسرع ابو عبدالله الاوبة الى قصره وأرسل الى فرديناند يستدعي نجدته خوف الانتقاض فاجابه فرديناند يطلب النزول له عن غرناطة ويذكره بالعهد الذي عقده معه بعد أسره بأنه عند ما يتمكن من وادي آش ومرية بسطة يمكنه الحمراء من وهوذا قد تمكن فيتقاضاه الوفاء بالعهد الذي عاهده إياه فاجابه ابو عبد الله ان ذلك قد كان منه ولكن حيث أصبحت غرناطة مجمعا لجالية المسلمين من جميع أقطار الاندلس وملجأ للشذاذ والمشردين من المدائن التي دخلت في حوزة

الاسبانيول وقد غلت في صدور الجميع مراجل الاحنة واستوفزوا للاخذ بالثار فان داخلهم في طاعة الملك فرديناند الآن انتقضوا عليه واستهدف للخطر المحيق فهو يلتمس المهلة لاجل سكون ثائرهم وانطفاء وقدتهم ومن ثمة لا يبقي مانع من القيام بما عاهد عليه

فلم يقنع الطاغية من جواب أبي عبدالله وقلب له ظهر المجن وكشر له عن ناب العداوة وارسل الى أعيان غرناطة والقواد يعرض عليهم تسليم القلاع والنزول عن الحمراء وهو يفي لهم في مقابلة ذلك بشروط الامان ويعاملهم بما عامل به أهل وادي آش والمرية والا فان حدثتهم انفسهم بالمقاومة وأصروا على الجفاء سار معهم سيرته مع اهل مالقة فمال جماعة التجار وارباب الاشغال الذين يدور نجاحهم على السكون الى رأي التسليم وتابعهم فيه من خاف في عياله مغبة الحرب وعاقبة الخذلان ولكن كانت غرناطة لذلك العهد قد غصت بالمطرودين والموتورين الواردين عليها من كل اوب قد ملأ الضغن قلوبهم وغلا الثار في صدورهم ووطن اليأس نفوسهم على الاستماتة وقد شحنت بالمقاتلة واحلاس الحرب وانجاد الغارة ممن ولدوا على صهوات الجياد، ونشأوا في معامع الجهاد، وممن لا حرفة لهم سوي الغزو والمرابطة، وكان فيها آخرون وان لم تكن الحرب حرفة لهم يرتزقون منها فان هممهم العربية تأبى لهم وحميتهم الاسلامية تربأ بهم من أن يستسلموا للعدو صاغرين ويروا غرناطة الحمراء قبة الاسلام في الاندلس العهد الاخير وحضرة العز ومتبوأ المنعة مئين من السنين والمصر الذي يموج بجموع المؤمنين قد رطئها الطاغية بقدم استيلائه، وقادشممها بزمام استعلائه

واتفقت تواريخ الافرنج على انه كان واسطة عقد هذه الطبقة المجلي

في حلية الفراسة الامير موسى ابن أبي الغسان من سلالة الملوك شاباً بعيد الهمة كريم السجية، أبي النفس باهر القوة مستوفياً شروط الفتوة جامعاً بين صباحة الوجه وضبارة الخلق غاية في بهاء الطلعة و نفاذ العزيمة حداً في عزة النفس وزكاء الطبع، كان لا يوجد أدرب منه في عصره بفنون الفروسية، ولا أحسن منه اقتعاداً لصهوات الخيل، ولا ألبق ولا أرشق حركة بألعاب السيف والترس، وتقليب السلاح بأنواعه، كان اذا برز في ميدان ترك أمره فتنة لحسان غرناطة ومداراً لحديث الاندلسيات واذا شهد الكريهة قذف مشهده الرعب في قلوب الاسبانيول وطالما نُصر المسلمون باسمه

وكان موسى ناقماً على السلطان أبي عبد الله هوادته مع النصارى ولين جانبه لهم فمنذ ماوصل الى غرناطة رسل الطاغية وشاع ماطلبه من تسليم الحضرة والنزول عن الحمراء قام هو وتلك الفئة المائلة الى الحرب مستنفرين العامة للجهاد مستبلغين في حث الهمم وتنشيط العزائم وتحذير القوم عواقب الخضوع من فقد الامن على الاعراض والدماء والاموال، وأعمل موسى في الاحتشاد وبالغ في النفير فبادرت جمهرة المسلمين الى اجابة داعيه وطمعت في استئثار الجنة، ونفرت فتيان غرناطة تريد الموت في سبيل الذب عن ذمار الدين، وتطيع من موسى سيداً كانت تغضب له ألوفهم اذا غضب ولا يدرون لم غضب فكيف وقد غضب للدين، ونفر لحماية عرض المؤمنين، فأرسلوا الجواب الى الطاغية قائلين له انهم يفضلون الموت على تسليم مدينتهم و يوعدونه ان شاء الاجلاب بما استطاعوا من قوة

فلما أيقن فرديناند بما أجمعوا عليه اطلق الغارات على الاطراف وجعل ذلك الى نظر كونت تنديلا قائد ثغر جيان، وشرع في التأهب

والاستعداد للحركة، وقام موسى بن أبي الغسان من الجهة الثانية وقد حف به فتيان سراة غرناطة وتبايعوا على الموت تحت لوائه ونفرت فرسان المسلمين من كل أوب، وماجت أسواق غرناطة وساحاتها بالحشود، وملأ الآفاق صهيل الخيول وموسى روح الجهاد ومحط الآمال وقبلة الخواطر وحياة نفوس المتاغرين، واسمه الرعب المحرق بأقاصي الثغور

فلما أخذ الاسبانيول يشنون الغارات خرج الأمير موسى فرسانه فوالى عليهم الهزائم، وصارت خيوله وسراياه تعود بالغنائم، وتدخل غرناطة دخول الظافر، مما أعاد الى خواطر القوم ذكر الايام الماضية وحدتهم بعود عز الاسلام وايام غلبته على تلك الاقطار، ومضى شتاء تلك السنة على هذه الحال وأقبل الربيع فقال الطاغية علينا أن نجتاح هذه السنة كور غرناطة وفي التي بعدها نهاجم البلد بعد أن يكون زال القوت وانقطع المدد، فخرج بخمسة آلاف فارس وعشرين ألف ماش وأخذ يكتسح مرج غرناطة البديع النضير المنقطع النظير معه من أمراء بلاده دوق مدينة سيدونية ومركيز قادس ومركيز فيلنه والدون الونزو دواغيلار وغيرهم من رؤوس قوادهم فشمل تلك المروج عيثا وتخريبا وبعث النار في جميع ارجائها حتى غطى الدخان الافق وأظلم جو غرناطة من دخان شجرها هذا وأبو عبدالله لا يجسر على الخروج من حمرائه خوفا من فتك العامة به لقولهم انه سبب هذه المصائب، لكن موسى قسم فرسانه الى عدة كتائب وعقد على كل كتيبة لواحد من آحاد القادة وأطلق الغارات على أطراف معسكر الاسبانيول فأبلغ فيهم النكاية، وربما عمد لكثرة حشودهم الى الخدعة والمكيدة أحيانا، ففي إحدى المرات بينما كانت قطعة من الجيش الاسبانيولي سائرة في سفح جبل إذ التقت بجماعة من المغاربة

تقهقروا أمامهم فطمعت فيهم حتى نشبت بين صخور فاندفق عليها المغاربة من وراء الجندل فاستلحم الاسبانيول وفر منهم جماعة وصبرت جماعة بقيت تقاتل فى أرضها واذا بجبل الاسلام قد أطلت منقضة انقضاض العقبان فحصلت فى وسط الاسبانيول وحمى الوطيس وكان مركيز فيلنه وأخوه الدون الونزو دوبشيكو فى بهرة المعمعة فما غنم أن جرح المركيز وخر الدون الونزو صريعاً وبجانبه اصطفان دوسوزون من صيابة القواد وضاق الخناق بالاسبانيول وشاهد الملك أن الوجه للمغاربة وأن جماعته هالكون لا محالة فأمرهم بالرجوع فلم يتريثوا فى تلبية أمره وانكفؤا خاسرين بعد دفاع شديد

ولما رأى فرديناند أن مناجزة المغاربة خصوصاً فى هذه المناوشات الخاصة تعود غالباً بالخسران على عسكره أصدر أمره الصارم باجتناب القتال معهم والاعتماد على العيث فى بلادهم واكتساح أراضيهم واستئصال أسباب القوت ليأخذ غرناطة بالمجاعة بدل الحرب

وكان على مسافة مرحلتين من غرناطة حصن يقال له حصن رومة من فوق هضبة مشرفة على المرج وكان فى مكانه أعز من الابلق يقصده الملتجئون من المغاربة والشذاذ منهم وفل العساكر اذا انهزمت وهو شجاً فى حلوق الاسبانيول فلما كان الطاغية نازلا على مرج غرناطة ازدادت يقظة حراس الحصن وفى صبيحة يوم بينما كانوا ينظرون الى بعيد مراقبين حركات الطاغية اذ تراءى لهم عمائم عجراء واسنة مغربية ولم يكن غير قليل حتى وصل حذاء القصر نحو مائة وخمسين مغربيا معهم قطيع من المواشي مسرعين مهطعين وتقدم منهم عريف عليه سيماء الشرف والنباهة فالتمس الدخول قائلا انهم كانوا فى غارة ببلاد النصارى وقد غنموا منهم

وقفلوا لكن النصارى تطاردهم فهم يخافون ان يدركوهم فى الطريق قبل أن يدركوا غرناطة ففي الحال أسرع الخفراء الى فتح الابواب ودخل هؤلاء المغاربة وأظهروا الاطمئنان وفرحوا بهم الا أنه ماكاد ينتشر حراس الحصن في باحاته حتى علت صيحة بغتة فاسرع كل الى سلاحه مذعورا فوجدوا القصر فى يدهؤلاء الدخلاء فاستناموا الى الخضوع وعلم بعدذلك أن سيدى يحيي السابق الذكر مع ولده قدمامن الجبل بجماعة من المدجنين لخدمة الطاغية فاعملا الحيلة في الاستيلاء على هـذا الحصن استزادة من الزلفي لديه وبهذه الوسيلة تمكنا منه وبعثا بالخبر الى فرديناند فارسل وشحنه بالمقاتلة،واما حامية الحصن فان سيدي يحيي ابقى عليهم واطلق سراحهم فانصرفوا الى غرناطة ولم ينفعه عندالغرناطيين ابقاؤه على حياتهم مع خيانته في أمر الحصن فانهالت على اسمه اللعنات كالمطر الصيب كما انه من الجهة الثانية لم يحمل عمله كله على الخلوص التام فقد قال الاب اغابيدا الاسبانيولى فى تاريخه : ان طلاق سراحهم دليل على أن نصرانيته لم تكن كاملة بل لم يزل فى قلبه بعض ذرات من الاسلام » وهذه غاية المنافقين ان يخلصوا من كل فئة

ثم أوغر صدور الغرناطيين حنق آخر اشد من الاول وهو من عمل مولاي أبى عبدالله الزغل ملك اندرش الذى كان ممتزلا فيها متسليا بهذا اللقب عن احزانه وأوجاعه وكان المسلمون إلى ذلك الحين ينظرون اليه نظرهم الى رجل مظلوم مخذول وصل الى الحالة التي وصل اليها اضطرارا وتسييرا وزجه فيما هوفيه كنود ابن أخيه وقعود بني ملته عن نصره

ففي أحد الايام ساقت الزغل عمايته في بغض ابن أخيه الى النزول من اندرش بمثي مقاتل والانضمام الى عسكر الاسبانيول فلما رأى المسلمون راية الزغل بين رايات ملوك النصارى تحققوا انحيازه للطاغيـة فألحقوه بسيدي يحيي في المنزلة عندهم وعلت عندهم مكانة ابن أخيه حينئذ ونودي باسمه في الاسواق وهتفت الاصوات بالدعاء له وعقدت به الآمال فنفعه عمل عمه ونشط السلطان ابو عبد الله للحركة واعمل في الجهاد بما رأى من اقبال قومه عليه

وبعد أن لبث الطاغية شهراً كاملا يعيث في مرج غرناطة حتي أخنى على نضارته قفل الى قرطبة من طريق الجبل فتوارى عن العين حتي نهض ابوعبدالله متقلداً سلاحه وامتطى جواده ونفر واستنفر فالتفت عليـه فرسان غرناطة وخفت اليه سـكان جبال البشرات الموصوفون بشدة البأس وماجت ساحات الحضرة بالحشود وتبايع الناس على الموت وتبارى الفرسان في ميدان النزال يقدمهم الامير موسى بن أبي الغسان وهو روح النهضة وسيف العزيمة والفجر الصادق بليل الملة

فخرج السلطان من الحمراء في ١٥ حزيران ودهم حصن همدان على بضع مراحل من غرناطة وهو من أعز حصون النصارى يحرسه مائتان وخمسون مقاتلا من أبطالهم معقوداً عليهم لفارس مغوار اسمه مندو دو كويشاده فأناخ بساحته السلطان ستة أيام وست ليال يغاديه القتال ويراوحه حتي هلك أكثر حاميته وسلم الباقون فدمر السلطان الحصن وجعله دكا وارسل الاسري إلى غرناطة .

ثم استولى أبوعبد الله على حصن مارشنة وحصن بلدة من حصون

النصارى وشاع بين المسلمين أن السلطان أثخن في النصاري وافتتح من معاقلهم وأن الكرة مأمولة، فقويت عزائمهم ولاحت لهم بارقة الامل وانتقض الخاضعون منهم للطاغية ناشرين راية ابي عبدالله واخذ خيالة غرناطة يغزون أرض النصارى من جهة ثغرجيان ويغنمون منهم الا انه مرة بينما كان بعضهم عائدين بغنيمة وافرة كمن لهم كونت تنديلة فى أحد الاودية فذعروا وقتل منهم خمسة وثلاثون فارساً وأسر نحوا من خمسين واستعاد الكونت الغنائم وبقيت سرايا الفريقين يغزو بعضها بعضا فرأي السلطان أبوعبدالله ان بقاء الحال على هذا المنوال لايزيده قوة وانه بعد أن جرى ماجري من حطم الزروع وقطع الاشجار ونسف العمران حول عاصمته لابدأن يؤخذ بالجوع ان لم يؤخذ بالحرب ففكر فى فتح طريق بينه وبين البحر والاستيلاء على فرضة بحرية يتسرب منها اليه المدد حيث كانت جميع موانيالاندلس فيايدى النصارى فوجه عنايته نحو شلوبانية وهي مدينة كانت معدودة عند العرب من أحصن مدن الارض وأصعبها مرتقى وكان ملوكهم يستودعون فيها خزائنهم وكنوزهم وكان الطاغية لذلك العهد قد جعلها لنظر الدون فرنسيسكو راميرز دو مدريد قائد المدفعية الاكبر لكنه كان عندزحف أبي عبدالله اليها غائبا في قرطبة ينوب عنه في القيادة أحد فرسانه فانتهز الفرصة سلطان غرناطة ونازل شلوبانية بجيش جرار وكان أهلها من المدجنين فلما رأوا رايات الاسلام قد اقبلت انضووا تحتها وخلعوا طاعة العدو ورأت حامية البلدة من النصارى انها لاتقدر على مدافعة ابي عبدالله فاعتصمت بالقلعة فدخل المدينة واستولى عليها وامتنعت عليه القلعة فنازلها وطمع فى منع الماء عنها وامتد الصريخ فى الجوار بان المسلمين

منازلون شلوبانية فامتلأت قلوب نصارى الساحل رعباً وكان الدون فرنسيسكو انريك قائد باش مالقة بجمع جيشا فيه فرناندو بيرز دلبلغار صاحب المنديل وحضر لاغاثة قلعة شلوبانية فوجد المدينة في ايدي المسلمين تخيم تجاه القلعة فاشتد به أزر الحامية وانساب فرناندو سرا بسبعين من أشداء رجاله فتسلقوا القلعة من باب صغير قبل أن تمكن العدو من الشعور بهم ولم يلبثوا أن حضر الى الميناء اسطول فيه جنود ومؤن لاغاثة النصارى فنزلوا في مكان حصين على شاطيء البحر ولما نازل المسلمون القلعة صاروا بين عدوين فارتدوا عنها وعول ابو عبدالله على أخذ ميناء حدرة الذي كان سلمه الى النصارى سيدي يحي السابق الذكر فيما تزلف به اليهم من الخدمة الا أنه بلغه كون الملك فرديناند زاحفا بعساكره فهاجم القلعة الهجوم الاخير فلم تنز منها بطائل فاقلع عن شلوبانية عائداً الى غرناطة واشتفي في مسيره بالعيث في الاراضي المختصة لسيدي يحي والانتقام من جماعته ورجال عمه الزغل ودخل الحمراء بغنائم كثيرة تسلى بها عن فشله امام شلوبانية ولم يكد يستقر في مقعده بالحمراء حتى وصل الطاغية بجيش مؤلف من سبعة آلاف فارس وعشرين الف راجل بقصد اغاثة شلوبانية فلما بلغه اقلاع ملك غرناطة عنها مال الى المرج فاستقصى جهاته تخريبا وتدميرا واستأصل أشجاره وافسد زرعه حتى قيل إنه لم يبق فيه غصن اخضر ولا نعجة تسرح فبينا هو مرج أخضر اذ انقلب قفرا اغبر ودافع اهل غرناطة عن حياضهم ورياضهم فلم يجد دفاعهم لانتشار العدو في بقاعهم والتزامهم الانكماش في مدينتهم محافظة على اسوارها

وفي تلك الايام كشف النصارى مكيدة دبرها أهل وادي آش والمرية

وبسطة فانهم راسلوا السلطان اباعبدالله أن يزحف الى مدنهم وهم يفتكون بحامياتها ويفتحون له ابوابها فبلغ ذلك مركيز دو فيانه فخف الى وادي آش بقوة وافرة، بحجة انه يريد أن يعرض الاهالي في مكان فسيح فأخرجهم خارج الابواب ثم أغلق الابواب في وجوههم وأبلغهم أنه محظور عليهم سكنى المدن ، ثم أذن لهم بالدخول مثنى مثنى أو ثلاث ثلاث لاجل أخذ نسائهم واولادهم وحيث صاروا بدون مأوى اتخذوا مضارب واكواخا في الارباض والبساتين وأوصلوا الشكوى من هذه المعاملة فأجيبوا بان عليهم الانتظار الى أن تتحقق براءتهم ويصدر أمر الملك بشأنهم فلما حضر الملك فرديناند وفدوا عليه وشكروا اليه معاملة تؤدي لهم خلافا للعهود التي أعطاهم اياها فاجابهم بامعناه يا أصحابي بلغني ان كيداً هنا قد دبر بان تقتلوا عمالي وجنودي وتشتركوا مع ملك غرناطة في قتالي وقد تحققت تدبير هذه المكيدة فيما بينكم فمن منكم تثبت براءته يعود الى منزله ومن دخل في هذه الدسيسة فانني لاأسامحه لانني كما أحب الرحمة أحب العدل أيضاً ، وها أناذا الآن أجعلكم في الخيار فاختاروا الاخف عليكم إما أن تتوسعوا من هنا جالين عن البلاد بعيالكم وأموالكم وأنتم آمنون سالمون في أنفسكم ونفسكم واما أن تسلموا الي رؤساء الفتنة الذين كادوا الي كيدهم . قال المؤرخ غاييدا وهو من النصب والتحامل بالمقام الذي لايخفى » ولما كان اكثر أهل وادي آش مشتركين بهذه الدسيسة آثروا الرحيل بنسائهم وأطفالهم »

ثم خير فرديناند أهالي بسطة والمرية هذا التخيير نفسه تخلصا منهم ففضلوا الاجازة الى افريقية ومن بقي منهم لاذ ببعض القرى والدساكر لابسين اثوب الذل ألوانا وأشكالا

وكان السلطان أبو عبد الله الزغل قد يئس من الحالة التي آل اليها وتكاده الهم واشتدت عليه وطأة الاحزان مما جرى له من فقد الملك، وانتشار السلك، والنزول عن عرش سلطنة الى رتبة شيخ قرية بل كان أهل أندرش ابتدأوا ينشزون عليه وبعد لحاقه الاخير بجيش الطاغية أصبح اسمه ممقوتا عند كل المسلمين، وصار رديفاً للعنة اللاعنين، فضاقت مذاهبه وعول على الرحيل من الاندلس، فقدم على الطاغية وطلب منه المساعدة في الاجازة وعرض عليه شراء أملاكه الواسعة بثمن بخس وكانت نحو آمن ثلاث وعشرين بين مدينة وقرية في وادي أندرش والهورين فاعطي بدلها خمسة ملايين من السكة المعروفة بالمراويد ووهب حصة في الملاحة وأماكن اخر لابن عمه سيدي يحيى وشد حقائبه وأجاز الى افريقية

فلما وصل الى افريقية أخذه سلطان فاس والقاه في السجن وبعد ذلك سمل عينيه بدعوى إنه كان السبب في بلايا مسلمي الاندلس وذهاب غرناطة من اليد استصفى أمواله واستبد بخزائنه ولعل هذا هو السبب في نكبته ثم خلى سبيله فروى مؤرخو الفرنجة أنه التجأ الى أمير باش غمارة وكان صديقا له فاشبعه من جوع وآواه من قفر ولطف مصيبته بقدر الاستطاعة حتى إذا مضى هذا اسبيله لم يبق له مغيث ولا ناصر فهوى ثانية في وهدة الذل والفاقة، وقيل إنه آل أمره أخيراً الى أن يستعطي في الاسواق ويطوف وعلى ثيابه رق غزال مكتوب عليه « هذا سلطان الاندلس العاثر الجد » وهذا مخالف لرواية نفح الطيب كما سترى عند ذكره جواز الزغل

هذا وبعد أن عطل فرديناند مروج غرناطة من حلاها زحف في

حادي عشر نيسان من ذلك العام باربعين الف راجل وعشرة آلاف فارس لحصار المدينة واستصحب في هذا السفر جميع عظماء قواده مثل لدريق بونس دوليون ومركيز قادس ومعلم صانيتاغو ومركيز فيلنه وكونت تنديله وكونت قبرة واورنيه والدون الونزو دواغيلار، وانعقدت العزائم على التضييق بالبلدة ومزاولة الحصار الى أن يتم تسليمها وإنه لا افراج عنها هذه المرة وكانت الملكة إيزابلا مع ولدها البرنس جوبان وابنتيها جويانه ماريه وكاتالينه في حصن كونت تنديله تبعث بالمدد والذخيرة الى المعسكر

فلما رأى السلطان أبو عبد الله من شرفات الحمراء جيوش الطاغية مقبلة وقد غطى عجاجها الفضاء وسد الافق عقد مجلساً مؤلفاً من أعيان غرناطة ورؤسائها فاجتمعوا كاسفي البال نادبي سوء الحال وتخوف بعضهم عواقب الحرب من نزول المرات في بيوتهم فأشاروا على أبي عبدالله بتسليم مقاليد أمره الى كرم فرديناند أملا بأن ذلك يعود بشروط صالح مقبولة

وسئل الوزير أبو القاسم عبد الملك أن يبين مقدار الباقي من الطعام والذخيرة لاجل الحصار فأجاب أن الباقي يكفي مؤونة بضعة أشهر ماعدا الذي في مخازن التجار ومنازل الاغنياء لكن أي فائدة من ذلك اذا كان حصار النصارى لاينتهي، ثم سئل عن عدد المقاتلة فأجاب إنه عدد عظيم لكنه ماذا ينتظر من جيش معظمه من سكان المدن يرغون ويزبدون في أماكنهم حتى اذا دلف اليهم العدو سكنت ثائرتهم وانطفأت جمرتهم

فلما سمع موسى بن أبي الغسان هذه الكلمات نهض قائلا « أي باعث بنا الى اليأس فان دم الابطال من عرب الاندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا وعندنا قوة وافرة وجيوش معودة مجربة في الوقائع لانرتاب

فى إقدامها إذ لدينا عشرون الف شاب يمكنهم أن يدافعوا عن دورهم واسوارهم أعظم قوة واكثف جيش، فأما الطعام فلا نحتار فى أمره ولدينا عقبان من الجياد المسومة نطير بها الى ديار المدجنين الذين استسلموا للنصارى والى بلاد العدو فنعود بالغنائم والانفال »

فثبت كلام موسى عزائم القوم وطنهم على الدفاع وتوزعت القيادة فعهد الى الوزير أبي القاسم بتجنيد الاجناد وتفريق المؤونة والسلاح والى الامير موسى بقيادة الخيالة وحفظ أبواب المدينة والمهاجمة ومعه نعيم رضوان ومحمد بن زاهدة والى عبد الكريم الزغبي قادة آخرين بالمحافظة على الاسوار والى قواد القصبة والابراج الحمر بالدفاع عن الحصون

وأخذ الغرناطيون بالتأهب للجهاد فلم يكن يسمع إلا قرع طبول، وصليل أسنة وصهيل خيول وانتظمت الفرسان بقيادة موسى كواكب يتقدمها شهاب ثاقب، فكان أنجاد الغارة واحلاس القتال يعجبون ببسالته واقدامه وكانت العامة تحوم عليه هاتفين بالدعاء مهللين، كان طائفة العجزة من الشيوخ والنساء يدلمون عليه ويباركونه معتقدين انه حاميهم والجنة الواقية دونهم،

ولما قرب النصارى من المدينة احكم المغاربة أقفال الابواب وجعلوا وراءها السدود والسلاسل واوثقوها بالاغلاق المتينة فجاء موسى وأمر برفعها كلها قائلا : قد عهد الي والى خيالتي حراسة هذه الابواب وستكون أجسادنا سدوداً من دونها وجعل عند كل باب حرسا وافراً وكانت خيله دائما حاضرة للنزال، ومقاتلته على أوفاز للحرب، فاذا دنا العدو انقضت عليه كالصواعق واثخنت فيه النكاية، فكان فى أفعال موسى فضلة على أقواله

قال الكاتب الشهير واشنطون ارفن «فلو وجد عند الغرناطيين عدة رجال

مثل موسى أو كان ظهوره فى بداية هذه الحرب لكان تأجل سقوط مدينة غرناطة وبقي المسلمون مدة مديدة بعد ذلك متبوئين أبراج الحمراء »

هذا ونظر فرديناند الى حالة غرناطة ومن فيها من جموع المسلمين المنضوية اليها من سائر الاندلس تغلي فى صدورهم الاوتار غلي النار فى المراجل وفيهم من ذوي البأس من الرجال وابطال النزال عدد يفوق الاحصاء فرأى أن أخذ البلد بالسيف من قبيل الاحلام، واعتمد أن يأخذها بالحصر والتضييق كما أخذ مدينة بسطة فقطع عنها المدد واجتاح جبال البشرات وصار يقبض على كل قافلة نازلة صوب غرناطة فكان موسى يشن الغارة فى خيله على معسكره فيغنم ويفتك ويعود بالسلب فأمر الملك اتقاء غارات موسى بحفر خنادق واقامة اسداد حول المخيم وجعل المخيم أقساما أربعة على شكل مربع وبينها الاسواق والدكاكين

وبعد أن تم ذلك على هذا المنوال استدعى امرأته الملكة ايزابلا فحضرت باولادها وأقامت معه وذلك دهاء منه لقطع آمال الغرناطيين من الرحيل عنهم حتى يمكنوه من بلدتهم وكان لقدومها في المعسكر ضجة فرح عظيمة أما المغاربة فلم ترتخ عزائمهم بذلك وقال لهم موسى « ان علينا الدفاع عن الارض التي تحت أقدامنا لانه إذا لم تبق لنا ذهب ملكنا ومحيت اسماؤنا »

ولما رأى موسى أن الملك فرديناند لا يناوشهم القتال منتظراً تسليم البلد بالحصر والتضييق وقطع الميرة أخذ يرسل فرسانه لمبارزة فرسان النصارى قرنا لقرن فلم يكن يمضي يوم الا ويقع فيه عدة مبارزات بين شبان الطائفتين فرأى فرديناند أن هذه المصارعات الشخصية قد أثارت جأش المغاربة وقوت عزائمهم وافقدته عددا من فرسانه فأمر جيشه بعدم قبول البراز

وعيرهم المسلمون بذلك فلم يخالفوا أمر الملك، فقال المسلمون « أي فضل الملك يحاول أن يخضعنا باضعاف أجسادنا ويفر من لقاء أرواحنا » ومنذ ذلك الحين شرع فتية المسلمين يحركون شبان الاسبانيول للنزال بما أمكن من الوسائل فكان بعضهم ينقض على معسكر فردينا ندو بيده حربة يثبتها في أقصى معسكرهم وعليها اسمه وربما كتب مع اسمه بعض الشتائم تحميسا للاسبانيول لكن هؤلاء كانوا يحتملون هـذا الذل إطاعة لامر الملك الى انه في أحد الايام أغار فارس مغربي اسمه طرفة مشهور بقوة جسمه وثبات جنانه لكن شجاعته أميل الى التوحش وغلظ الكبد مما هي الى النخوة والحمية فاثبت رمحه في الارض أمام فسطاط الملك والملكة ورجع كالبرق الخاطف فجد الحرس في أثره فلم يدركوه ودخل المدينة فنظروا الى الرمح فوجدوا عليه رقا مكتوبا عليه بعض الشتائم عرفوا أن المقصود بها الملكة

فعظمت نكاية هذا الفعل في قلوب الاسبانيول وكادت فتيانهم تتميز من الغيظ من هذه الجرأة وفي الليلة التالية جمع فرناندو بيريز دابلغار نخبة من الشبان وسرى تحت الظلام الى أحد أبواب المدينة فوجد الحرس نائمين لعدم توقعهم مثل هذا الهجوم فدخل بجماعته وقام كل الى سلاحه فتمكن الاسبانيول من الباب وحفظوه ريثما كان فرناندو قد أوغل في وسط المدينة راكضا جواده الذي يسابق الريح حتى وصل الى الجامع الاعظم فاثبت في بابه لوحا كان معه مكتوبا عليـه اسم « مريم العذراء » ورجع مسرعا فوجد قومه ثابتين في مراكزهم فخرجوا وافرين وما انتبه أهـل غرناطة لهذه الضجة وجدت العساكر من كل نواحي البلد حتى كان الاسبانيول قد صاروا بقرب مضاجعهم

ويقال إن هذا الجامع بعد دخول الاسبانيول الى غرناطة تحول الى كنيسة باسم السيدة مريم وإن الامبراطور شرلكان منح دابلغار مـذا وذريته الحق في دفن أمواتهم بتلك الكنيسة

وكان بعد معسكر الاسبانيول عن المدينة بحيث لا يمكن منها سوى لمحتها العامة فارادت الملكة ازابلا أن تشاهد تفاصيل البلد وقل صبرها عن ذلك فهيأ مركيز قادس بطانة كافرة واحراسا متعددين وسير قطعة من الجيش بين خيل ورجل وسار الملك والملكة وأولادهما وأمراء أسبانية بافخر الزينة وأنفس المراكب وقصدوا مزرعة يقال لها « الزبية » في حدود الجبل شمالي غرناطة مشرفة على حمرائها وأجمل أحيائها فلما قاربوا المحل تقدم مركيز فيلـه وكونت أورينه والدون الونزو دواغيلار بجنودهم وربطوا أعالي القرية ووقف مركيز قادس وكونت تنديله وكونت قبره والدون الونزو وفرناند بجموعهم حذائها ودخل الملك والملكة أحد بيوت القرية حيث أعد المكان لجلوسهما وحف بهما الامراء والاساقفة ينظرون الى غرناطة الحمراء متأملين كيف تتحول قريبا مساجدها كنائس وما آذنها معالق للنواقيس

ولما رأى المغاربة إصطفاف جيش الاسبانيول كانما يريدون القتال رأوا من الذل الاحجام عن مناجزتهم فما مضت هنيهة حتى شوهدت سرية من فرسان غرناطة قد خرجت من المدينة بالعدد الكاملة والاسنة اللامعة وعلم انها فرسان موسى بن أبي الغسان فصدر أمر الملكة لمركيز قادس باجتناب القتال لانها لا تريد أن يراق بمقدار نغبة الطائر من الدم في سبيل نزهتها فالتزم المركيز السكون ولم يعلم المغاربة السبب فيه فأخذوا

يتحرشون بالاسبانيول ويدعونهم الى النزال والملك يمنع قومه من الاجابة
وألح بعض سرعان المسلمين حتى صاروا في مصاف النصارى يهزون أسنتهم
ويحركون حفائظ أعدائهم وهؤلاء ساكنون في مواطنهم وإذا بفارس زميت
الهيئة مفتول السواعد غريب الصولة عظيم البطشة قد تقدم ووراءه جماعة
فعرف بالقرينة انه هو طرفة الذي اهان الملكة حسبما تقدم ونظر الاسبانيول
فاذا به معلق بذيل جواده اللوح الذي كان دليلغار قد ركزه في باب الجامع
الاعظم بما فيه من الكتابة فلما رأى الاسبانيول هذه الاهانة غاب صوابهم
وضاع رشدهم واسرع أحد ابطالهم المدعو كارسيلاسو فاستأذن الملك
في النزول لمبارزة هذا الذي اهان السيدة مريم فاجابه الى ذلك اجلالا
لمقام الطلب فعاد كارسيلاسو وتقلد سيفه وتأتب بدرعه واعتقل سنانه
وامتطى حصانه ونزل لمبارزة الفارس المغربي فتساور القرنان بمشهد من
الجيشين الشاخصة أبصارهما وكان المغربي بحسب رواية مؤرخي الفرنجة
اسد ساعداً وأعظم خلقاً وأوثق اضلاعا وأحسن ركوبا من خصمه ولذلك
كان النصارى خائفين على فارسهم وفي الصدمة الاولى تزحزح كارسيلاسو
عن صهوته وكاد يهوي لولا انه تمكن حالا من لجام حصانه وعاد مستويا
على ظهره فاخذ المغربي يدور حوله متوثبا به دوران الباز الاشهب حول
فريسته وكان جواده طائعا له وخيل للناظرين عند كل ضربة يضربها ان
رأس الاسبانيولي قد طار عن جثته اوفلق شطرين لكن كارسيلاسو
بسرعة حركته اتقى ضربات طرفة تارة بالنكوص بجواده وأخرى بالدرق
يحتمي بها ومع هذا فكانت كلوم البطلين قد غطتهما بالدم وخارت قوى
الاسبانيولي ولحظ ذلك طرفة منه فوثب عليه وأهواه عن سرجه ولما

حصلا على الارض صرعه على ظهره ثم ركع فوق صدره واخترط خنجره وهم ان ينحره به فصاح كارسيلاسو صيحة رج بها الفضاء ولم يكن الا كالبرق حتى سقط المغربي قتيلا وعلم أن خصمه وجأه في احشائه بمدية كانت معه وقام من تحته وقد علا ضجيج النصارى من شدة فرحهم بنجاة فارسهم ونسبوها المدد جاءه من السيدة مريم العذراء التي انتصر لها، وقد روعيت في هذا البراز قواعد الفروسية فلم يتعرض أحد من الفريقين لنجدة ابن جلدته لكن المغاربة لما رأوا سقوط فارسهم هاجت احقادهم فامر موسى بقطعتين من مدافعه فاخذتا ترميان النار على صفوف الاسبانيول فاختل مصافهم فقال موسى لرؤساء جنده عليكم بالمهاجمة ولا نضيعن الوقت في المبارزات الشخصية ثم وثب كالغضنفر الطاوي وتبعه جماعة من خيل ورجال وحملوا حملة الرجل الواحد على صفوف النصارى فشطروها وأوقعوا بها فلما رأى مركيز قادس ذلك لم يجد محلا لطاعة أمر الملكة في التزام السكون وأمر بالقتال واستحر الطعن والضرب من كل الجهات. قال مؤرخو الفرنج ان الملك والملكة وجميع حاشيتهما من الاساقفة والامراء لما حمي الوطيس جثوا على ركبهم بمكانهم من السطح المشرف على ميدان الحرب مستغيثين بمريم العذراء وان استغاثتهم قد صادفت القبول فان الشدة التي حمل بها المغاربة لم تلبث ان انحلت ووقع الرعب في قلوب رجالتهم فولوا الادبار واجتهد موسي كثيراً مع خيالته في ضم شملهم فلم يفلح لان أكثرهم انهزموا الى الجبال وبلغ بحسب زعمهم عدد من قتل وأسر وجرح من الغرناطيين نحو الالفين وهذه المعركة تسمى بمناوشة الملكة ويقال انه بعد ان بردت البلاد للطاغية ابتنت ايزابلا ديراً في قرية ،، زبية ،، باسم مار فرنسيسكو لم يزل الى الآن وفي حديقة الدير

شجرة غار (شجرة النصر) مغروسة بيد الملكة نفسها

وكان مرج غرناطة لم يزل باقيا منه نطاق اخضر يحيط باسوار المدينة فاعتزم فرديناند ان لا يدع هناك غصنا أخضر ولا عذبة مورقة (١) واخذ يستعد لنقل محلته صوب البلدة وبينما هو في ذلك اذ حصل حريق في خيمة الملكة وكانت من ابدع الفساطيط في النصرانية وامتد لسان النار في المعسكر فلم يكن الا كلا ولا حتى أصبحت تلك المدينة المتحركة هباء منثوراً ولكن لم يصب احد باذى وظن النصارى في البداية انها مكيدة من المغاربة بقصد أن يزحفوا اليهم اثناء اشتغالهم بالحريق فأعد مركيز قادس ثلاثة آلاف فارس وتقدم بها نحو المدينة صداً للغارة فلم يبرز أحد وانما شوهدت الرءوس المعممة متطلعة من شرفات الاسوار نحو الحريق وظن المسلمون ايضا أن للنصارى مأربا في احراق معسكرهم وان في طي ذلك كيداً والصحيح أن الملكة كانت أمرت احدى جواريها بنقل المصباح من جانب سريرها الى جهة أخرى فوضعته الجارية في مكان آخر بقرب الستار وهب عليه نسيم فاتصل اللهيب بالنسيج واحدث ما احدث

وكان فرديناند عارفا بطباع المغاربة فخاف أن يحدث هذا الحريق في قلوبهم جرأة ويقوي لهم أملا فلم يصبح الصباح حتى عبأ جيشه وزحف به نحو الاسوار مجتاحا بقية البساتين التي كانت محيطة بالمدينة فبرز

(١) الذين يزورون اسبانية في هذه الايام يقولون ان جميع هذه المدن التي كانت زاخرة العمران في زمان العرب لا تزال منحطة قليلة السكان وان كل تلك الجنان لم يتجدد منها الا القليل مع انه مضى على خرابها نحو اربعمائة سنة وصدق بعض مؤرخي الافرنج في قولهم ان اسبانية بعد العرب صارت جسما بلا روح

السلطان أبو عبد الله من حمرائه بنخبة جيشه يذب عن حوضه ويذود عن روضه في مواطن كاد الجبان فيه يساوي الشجاع، واوشك الهيابة أن يلقى السباع، اذ كان بنو الاسلام هنالك يقاتلون في الدفاع عن أعراضهم واوطانهم الاخيرة، ويناضلون عن أعز ماعندهم تحت أعين نسائهم واطفالهم وشيوخهم المطلين عليهم من مشارف الابراج والمنازل، ولم تكن هنالك واقعة واحدة بل انتشرت المعارك بمدد الغياض والبساتين ففي كل حديقة معترك، وعند كل غيضة مشتبك، ولم يبق من الارض قدم الا اريق عليه دم، وكانت خيل موسى تجول في الميدان مشددة من عزائم المغاربة حتى لو كان منهم جريح معفر بالتراب وشاهد مرور موسى انتفض قائما وذهل عن جراحه وكم من صريع التفت صوب موسى فقرت به عينه ودعا له وحياه وهو يفارق الحياة

وملك الاسبانيول بعض الابراج بقرب البلد لكن بعد أن اذيقوا مر الكفاح، وتساقوا كؤوس الحمام مساقاة لراح، وابلى أبو عبد الله في هذا العراك بلاء تحدثت به الركبان، ولكن رجالته نكصت على الاعقاب وكاد يقع في أيدي الاعداء لولا انه نجا بفرسانه بخفة الحركة وظل قافلا الى المدينة تاركا في وسط المعمعة موسى الذي بذل جهد الاستطاعة في ضم شمل المشاة وكان يناديهم معنفا اياهم، ويحرضهم على الجهاد في سبيل حرمهم ودمهم، ولكن غلب الجزع على قلوبهم فلم يجيبوا مناديا ولا ابوا داعيا، وتراجعت المشاة كلهم صوب المدينة فثبت موسى وفرسانه وانتصب الميزان بينهم وبين العدو باسره ولم يعترهم فتور ولا ملال، ولكن قتل منهم جملة وافرة وأثخن الباقون جراحا، فاخذ موسى يتقهقر بهم مدافعا إلى أن بلغ

المدينة فدخلها وأغلق الابواب وجعل وراءها الاقفال والسلاسل قائلا إنه عدم الثقة في المقاتلة المعينة لحراستها وأمر بان لا يخرج المشاة مرة أخرى من المدينة لملاقاة العدو

وكانت مدافع غرناطة النارية قد فغرت أفواهها فرزأت طلائع الاسبانيول فأمر فرديناند برجوع الجيش بعد أن أحرق آخر ما أحدق بغرناطة من الخضرة وغادرها تختنق بدخان أشجارها، وكانت هذه الوقعة الاخيرة التي خرج بها المغاربة للقاء الاسبانيول دفاعا عن مدينتهم الفيحاء، وشهد سفير فرنسا الذي كان هنالك من باهر شجاعتهم وإقدامهم واقتحامهم حياض المنايا ما ملأه عجبا. قال المؤرخ واشنطون ارفن الانكليزي «ان هذه الحرب حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر بما تخللها من باهر الثبات والاصرار فان النكبات توالت فيها على المغاربة مدة عشر سنوات بدون انقطاع فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الاخرى وفنيت رجالهم قتلا وأسراً وقاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج بل عن كل صخرة كانما هم ينتظرون الفتح ولم يجدوا مكانا تثبت فيه أقدامهم ولا جدارا يمكنهم رمي السهام من ورائه إلا واعتصموا به ينازعون العدو وطنهم المحبوب حتى إذا لم يبق لهم إلا عاصمتهم مقطوعا عنها عن كل مدد غير طامعة في أدنى غوث نازلا على أسوارها أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها كانما هم يترقبون معجزة يرسلها الله في حقهم» وقال غيره من المؤرخين القدماء «إن مقاومتهم الشديدة تدل على الالم الذي كانوا يشعرون به لفراق مرج غرناطة الذى كان لهم فردوسا ونعيما فبذلوا أقصى ما عندهم من القوة محاماة عن أعلق الارضين بقلوبهم لا يفصلهم عنها الخذال ولا ادبار سعد ولا

أثخان جراح حتى ولا الموت نفسه، بل لبثوا يناضلون عن محاب قلوبهم ومواضيع أشجانهم الى أن سقط في أيديهم وأبى السعد أن يخدمهم »

وبرهان ما قاله هؤلاء المؤرخون من الافرنج قول شاعر ذلك العصر في المصر سيدي محمد العربي العقيلي عند ما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة ذلك

بالطبل في كل يوم   وبالنفير نراع

وليس من بعد هذا   وذاك الا القراع

يارب خيرك يرجو   من هيض منه الذراع

لا تسلبني صبرا   به لقلبي ادراع

وهو الذي قال فيمن تنصر من المسلمين :

فان يرتفع عند النصارى بالابتدا   فكم عندنا من حرف حبل يجره

هذا وبعد ان دارت الدائرة الاخيرة على جند غرناطة وخاب الامل وخان الجد لزم المسلمون البلد لا يأتون بحركة وانما انتظروا اقلاع الطاغية وتبرمه بالحصار بعد حريق الخيام فكان منه ان شرع ببناء معسكر من الحجر بدل الاطم والاخبية ولم يكن الا قليل حتى قامت هنالك مدينة عامرة باسواق وحوانيت مقسومة بشارعين عظيمين يقسمانها على شكل صليب فيتكون منها أربعة أحياء وفى الوسط رحبة فسيحة لاجتماع الجيش وللمدينة أربعة أبواب تناوح مهاب الرياح الاربع ولما تم بناؤها أطلق عليها اسم « صنتافي » أو مدينة الايمان المقدس ولم يكد يستقر بها سكانها حتي دارت فيها الحركة التجارية فما كان يرى الا قوافل نازلة اليها وصاعدة منها بينما كانت غرناطة البائسة غريقة فى لجة مقطوعة الامداد ثم لم تلبث أن فشا فيها الجوع بانقطاع الوارد من الميرة

والمرافق وكانت قافلة من الطعام وقطعان وافرة من الغنم قد استولى عليها صاحب قادس وهي نازلة من جبال البشرات الى غرناطة زاد الحال تقدم فصل الخريف وهجوم الشتاء فاشتد الخناق باهل غرناطة وأحسوا بالعجز عن المناصبة وتذكروا جميع أقوال المنجمين عند ولادة ملكهم وما قيل بشأن سقوط غرناطة ليلة أخذ قلعة الصخرة وانقطع قرع الطبول ونفخ الابواق وسكنت جلبة الحرب في تلك المدينة وغلب على الجميع اليأس

حينئذ عقد أبو عبد الله مجلسا في الحمراء حضره أكابر قواد الجند وحماة الحصون وأعيان المصر وفقهائه وسألهم عن رأيهم في اسلام البلد فقام أبو القاسم عبد الملك حافظ البلدة وبين لهم الحالة السيئة التي آلوا اليها فقال «إن اهراءنا قد خلت من المؤونة أو كادت ولا ننتظر الآن شيئا في الطريق بل الذي كان وارداً لاجل الخيل صار قوتا للخيلة أنفسهم وربما أكلوا الخيل نفسها وناهيك انه من السبعة الآلاف من رؤوس الخيل التي كانت عندنا برسم الرباط لم يبق سوى ثلثمائة رأس وان في مدينتنا مائتي الف نسمة كلها تطلب الخبز»

فقال اعيان البلد ان اهل غرناطة أصبحوا غير قادرين على المقاومة واحتمال المحاصرة ولاي شيء يجب استمرار المقاومة مادام العدو غير مقلع عنا ولا راض إلا منا إلا باحدى الخطتين اما التسليم وأما الموت

فاشتدت كآبة أبي عبدالله مما سمع واطرق ساعة وتأمل في وجوه العمل وفكر في أنه لو وصل اليه على الاقل مدد من صاحب مصر أو ملوك المغرب لامكنه الثبات ومع هذا فقلما يتمكن من الثبات الى أن توافيه النجدات من وراء البحر نظراً لانقطاع الزاد ولذلك ارتخت عزائمه وان

عليه اليأس ورأى الجمهور منه ذلك فعولوا على التسليم واصفقوا على الدخول فى ذمة الطاغية ، حينئذ قام موسى معارضا وحده اجماعهم قائلا «لقدعجلتم فيالكلام في امر التسليم فانوسائلنا لم تنقطع، لم يزل عندنا بقية قوة عظيمة الفعل شديدة التأثير وطالما كانت سبب الفتح إلا وهي الاستماتة فلنستنفرن العامة الى الجهادولنسلحنهم ونقتحمن صفوف العدو حتى نخالط اسنتهم واني لحاضر انمضي فيهذا السبيل واتوغل فى كثيف جمع الاعداء وخير لي مرارآات أعد فيمن استأ كلهم الدفاع عن غرناطة من أن أعد في الاحياء من بعدها »

فلماتحرك كلماته منهم ساكنا ولم تثر عزماء لان اليأس كان قد استولي عليهم، والاعتقاد بان المصير هو الى ماانبأ به لمنجمون من السقوط ودلت عليه الحوادث من البوار اصبح عاما عندهم، فكانوا اسرع الى طلب الموادعة من الماء الى الحدور، ولمارأى أبوعبدالله ان هذا هو استعداد القوم جنح معهم الى الي يبتغونها وتقرر اشخاص الوزير أبي القاسم عبد الملك الى الطاغية لعقد شروط الصلح

فلماقدم أبو القاسم على الملك والملكة رحبابه واكرما موصله واحالاه فيالمذاكرة على غونسلاف القرطبي وفرناندو دو صفر كاتب أسرار الملك فبعد المراجعات الطويلة تقرر الامر على انه ان مضت سبعون يوما ولم يرد في اثنائها مدد للمغاربة يتسلم الاسبانيول غرناطة وان جميع أسرى النصارى يطلق سراحهم بدون فدية

وأن أباعبدالله وخواص رجاله يحلفون يمين الامانة للملك والملكة ويعين لهم فيجبال البشرات اقطاعات معلومة لاجل معيشتهم وان سكان

غرناطة يصبحون رعية لملوك الاسبانيول لكنهم يحفظون املاكهم واسلحتهم وخيولهم ولا يسلمون سوى مدافعهم، وتكون لهم الحرية التامة في أمور دينهم، ويتعين لهم قضاة من أنفسهم يحكمون بمقتضى قواعد كتابهم تحت سلطة ولاة منصوبين من قبل ملوك الاسبانيول ويصير اعفاءهم من الضرائب مدة ثلاث سنين وفي ختامها يدفعون لملوك الاسبانيول الجزية التي كانوا يدفعونها لملوكهم بدون زيادة، ومن شاءوا منهم الاجازة الى بر افريقية في خلال هذه المدة تعطي لهم الرخصة بالسفر مع عيالهم واموالهم بدون رسم مرور من أي ثغر شاءوا من ثغور البحر

واتفقوا على تسليم اربعمائة شخص من ابناء البيوتات المغربية تبقي رهائن عند الطاغية الى أن يتم تسليم البلد وفيهم نجل سلطان غرناطة

هذه خلاصة الشروط التي قرأها الوزير ابو القاسم بحضر الملا من اهل غرناطة و بين يدي سلطانه بعد عودته من معسكر النصارى، فلم يبق واحد ممن حضر الا أجهش بالبكاء ولج بالعويل، ففاضت شؤون المآقي، وبلغت الارواح التراقي، وتصاعدت الزفرات من الجميع إلا الامير موسى ابن ابي الغسان فانه بقي ثابت الجأش عصي الدمع، والتفت نحو الجمع فقال لهم « دعوا يا سوالينا البكاء والنحيب للنساء والاولاد فنحن رجال ولنا قلوب لا لاجل ذرف الدموع بل لاجل سفك الدماء واني لارى عزائم هـذه الامة قد ارتخت وقطعوا أمامهم من نجاة هـذا الملك فوالله لقد بقي علينا اشرف الخطتين وهي الموت — فلنمت اذاً في سبيل استقلالنا والانتقام من عدو غرناطة فامنا الارض تتلقى ابناءها في أحشائها غير مقيدين بسلاسل العبودية ولا قدر الله أن يكون اشراف غرناطة صاروا يخافون

الموت فى الدفاع عنها

ثم سكت موسى وعلت المجلس السكينة فالتفت ابو عبد الله نحو الحاضرين واخذ يحدق في وجه كل منهم فلم يقع نظره الا علي وجوه علتها الكآبة وظهرت عليها دلائل اليأس وأبصر الجميع مطرقين كأن على رءوسهم الطير، فصاح حينئذ «الله اكبر لا اله الا الله محمد رسول الله» باطل اجتهادنا فى مماكسة الارادة الالهية، فقد كتب فى اللوح المحفوظ انني اكون شقيا وان هذا الملك يذهب من يدي» فصاح الوزراء والفقهاء «الله اكبر لا حيلة فى قضاء الله» وارتفعت الجلبة بالتكبير والحوقلة من كل جانب لكن وقع الاجماع على قبول الشروط ولما رأى موسى أن جميع الحضور متفقون على امضائها قام من بينهم غاضبا والتفت نحوهم قائلا «يا قوم لا تغشوا انفسكم ولا تتسلوا بالمحال ولا تظنوا أن ملوك النصارى وافون بمواعيدهم لكم وانهم كرام عند المقدرة كما هم فتاكون عند القتال، فوالله إن الموت الاحمر هو أهون ما نتوقع، وانما نحن مستقبلون أمراً أيسره اكتساح الاوطان وفضيحة العيال وانتهاب الاموال وقلب المساجد وتدمير المنازل، هذا عدا السوط والنار والنطع والنفي من الارض والضنى في اعماق الحبوس إلى غير ذلك مما نحن صائرون اليه

فمن العجز أن تموت جبانا   فاذا لم يكن من الموت بد

أما أنا فوالله دون أن اشهد ذلك» (؟) قال هذه الكلمات وخرج محل الاجتماع واجما مطرقا ثم طاف بقاعة الاسود وسائر ابهاء الحمراء بدون أن يكلم أحداً من الحشم الواقفين فى الابواب ودخل منزله وتقلد سلاحه الكامل وأمر فأسرج له جواده الكريم فركب وخرج من

من باب البيرة الى حيث لم يسمع لها بعدها خبر ولم يوقف له على أثر

قال المؤرخ واشنطون أرفن هذه رواية مؤرخي العرب في شأن غيبة هذا البطل لكن اغابيدا روى في انتهاء أمره غير ذلك فقال « كان في أكثر العشيات يجتمع غصبة من فتية الفرسان الاسبانيول سائرين للنزهة حذا في الشنيل ففي إحدى المرات أبصروا عند العشاء فارساً مغربيا أخذ يدنو منهم دارعا مرخي القناع وحصانه مثله مغطي بالزرد ، كانوا دارعين مثله تحت المغافر لانهم في أيام الهدنة لم يكونوا يحملون الاسلحة الدفاع فلما شاهدوا هذا الفارس المجهول متقدما نحوهم بهيئة منكرة نادوه كي يقف عنده ويعرف بنفسه

أما هو فلم يحر جوابا بل ظل حاملا عليهم ومن أول طعنة بسنانه شك فارساً منهم فرماه عن صهوته، ثم دار حول الباقين شاهراً السيف فاذرع الضرب ، وتلاحقت ضرباته فلم ترتفع له يد إلا بحتف، ولم يقم له حد الا في مقتل، وكان الظاهر عليه انه مستميت مولع بالفتك يقاتل للاشتفاء لا للعلاء، ورغب في المنايا لا في الجراح ويهوى الموت لا البقاء الى أن كب نحو نصف الخيالة الذين التقوه صرعى على وجوههم بفياصل ضرباته، وقواصم طعناته قبل أن يصاب بجراحة ذات خطر لشدة تلاحم زرده وسبوغ درعه لكنه أصيب في الآخر وخر جواده من تحته وخيل أنه وقع في اليد فحاول فرسان النصاري أن يمسكوه مسك اليد ابقاء على حياته بما بهرهم من فتكه وادهشهم من اقدامه لكنه بقي يقاتل وهو على ركبه بخنجر من خناجر فاس كان في يده ولما رأى قواه قد خارت واصبح لا يستطيع اطالة الدفاع وخشي أن يؤخذ اسيراً زحف الى النهر فرمى بنفسه في الماء حيث غاصت به درعه في الحال،

وكان هذا الفارس المجهول هو موسى بن أبي غسان وقد عرف جواده بعض المتنصرة المغاربة ممن كانوا في معسكر الاسبانيول. قال ارفن ومع هذا فلم تزل هذه الحكاية مفتقرة الى زيادة التأكيد

•

أما شروط تسليم غرناطة فقد سردها المرحوم ضيا باشا في تاريخه للاندلس وهي خمس وخمسون مادة تتضمن تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق وفى طيها من عهود المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودمائهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا يفي به الانصاف

وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة، وعدم التعرض لامورهم الشرعية بل إعادة ذلك إلى فقهائهم والمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم وأن يبقى هذا العهد معمولا به فى الاعقاب وأعقاب الاعقاب .

وفى المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ومراكبهم ومواشيهم إلا الاسلحة النارية فتقرر أخذها

وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة باموالهم وامتعته وفيما بعدها أجازته على نفقة دولة قشتالة من أي مرسى أراد وتسهيل معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل ، وإذا لم يتهيأ البيع ووكل صاحب الملك وكيلا تعتبر وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وايصالها اليه بمكانه وراء البحر

وورد في المادة الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جامعها بدون رخصة الفقهاء

وورد في المادة الخامسة عشرة إعفا السلطان أبي عبدالله وسائر أمراء المسلمين وقوادهم وفقهائهم من الضرائب والرسوم وإقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا لعهد ملوكهم وأن تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعا

وورد في المادة السادسة عشرة والتي بعدها ما يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين حتى ولا الملك والملكة ومن خالف ذلك من النصارى يجازى بشدة

وفي المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين في سائر الممالك ووصل الى غرناطة فقد نجا ولم يكن للأموري شرطة غرناطة أن يمسكوه لكن ذلك الامتياز مخصوص بعرب الاندلس لا يتناول أسرى المغرب

وفي المادة الثلاثين أن من أسلم من النصارى قبل هذه الكائنة فلا تجوز معاملته الا بالحسنى ولا يرى أقل تحقير ومن خالف ذلك ينال من الجزاء شدة

وفي المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحي

وفي المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجاً بنصرانية وأسلمت لا تجبر على الرجوع الى دينها الاصلي والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها

وفي الخامسة والثلاثين لا يرد المسلمون شيئا مما غنموه أثناء الوقائع التي جرت الى يوم تسليم البلد وفي التي بعدها لا يعاتبون على شيء مما مضي من تحقير الاسري أو اهانتهم

وفي الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصاري في مجلس مؤلف من قائدين أحدهما مسلم والآخر مسيحي

وفي الثالثة والاربعين تعاد جميع أسري المسلمين في مدة ثمانية أشهر من أي بلاد وجدوا فيها من اسبانية وفي مدة خمسة أشهر ان كانوا في بلاد الاندلس

وفي التي تليها ذكر أطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غونسالف هرناندز وعثمان أسير كونت تنديله ورضوان اسير صاحب قبرة واعادة الفقيه ابن محي الدين ورفاقه الذين غابوا على اثر حادثة ابراهيم بن سراج اينما وجدوا

وفي السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة في مواني الاندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقل اسري من النصاري

وفي الثانية والخمسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين بل تكون شرطتهم من انفسهم

وفي آخر هذه المعاهدة تعهد الملك فردیناند وامرأته صاحبا ممالك قشتآلة واراغون وليون وصقلية ان يحافظا على نص شروطها حرفا بحرف ويجريا جميع أحكامها من خاص وعام وكلي وجزئي بكمال التدقيق وبدون ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب وان تبقى على شكلتها وهيئتها ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الابد ، ولا يمكن احداً من خلفاء الملكين المشار اليهما ولا خلفاء خلفائهما ولا حفدتهما ولا اولادهم الى ما شاء الله ان ينقضوا اقل حكم من احكامها او يبدلوا حركة من حركاتها واعطى ، الامر بها الى الامراء والوزراء والقواد والاجناد والرهبان والرعية من

حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير ، وأعلن أن من يجتريء على الخلل بشيء مما تضمنته هـذه المعاهدة يجزى جزاء من اقدم على افساد البرآءات الملوكية او تقليد الحجج والسندت بدون ادنى تأخير

واقسم الملك فردنياند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد على الصورة المبينة وكتبت على رق غزال محلي ومطرز تحريراً في ثلاثين من كانون الاول سنة احدى وتسعين واربعمائة والف من الميلاد

وحررها فرناندو صفره بأمر الملكين وأمضاها الملك فردينانده الملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة وايزابلا الدونة حنة والدونة ماريانة والدونة كتالينة ورئيس أساقفة أشبيلية الدون دياغو هرتادو رئيس أساقفة صانتياغو الدون الفونس وكبير فرسان صانتياغو المسمى بالدون الفونس أيضا والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون الفارو زعيم رهابين ماريوحنا والدون بيروغونزالس كردينال إسبانية ورئيس أساقفة المملكة والدون هنري كبير حكومة أراغون ومن أبناء عم الملك والدون الفونس من أبناء عمه أيضا والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بتروفرناندز رئيس جند قشتالة ويليهم نحو أربعين دونا كلهم من أبناء السلالة المالكة وأساقفة البلاد وامرائها واعيانها وقوادها

وكتب ايضا معاهدة اخرى لسلطان غرناطة ابي عبد الله بن ابي الحسن متضمنة اربع عشرة مادة فيها تمليكه الاقطاعات والاراضي والبلدان التي وهبها اياه الملكان معينا كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر مليونا وخمسمائة قطعة من السكة المعروفة بالمراويد عند دخولهما قلعة الحمراء

واقرار ملكيته لجميع العقار الموروث ، واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم واداء المكوس عما يجلب من الامتعة برسمه ، وانه في اي وقت شاء بيع هذه الاراضي والاملاك يشتريها الملكان كلها بقيمتها العادلة وان لم يشأ بيعها واراد النقلة الى بر المغرب فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفي له حاصلاتها ويوردها عليه في اي جهة كان مما وراء البحر وفي اي وقت عول على الاجازة تنقله مع رجاله وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولا عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجري أيضا في حق والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاي ابي نصر والمعهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا انني وجدت اكثر المؤرخين يؤرخون امضاء المعاهدات في ٢٥ كانون الاول وفق ٢٢ المحرم سنة ٨٩٧

•

ولما كان الاسبانيول قد اعطوا المغاربة مهلة سبعين يوما لاجل التسليم بنا على امل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظا وسهراً وجعل الجيوش محيطة بغرناطة احاطة السوار بالمعصم وجمع الاساطيل وبثها في مراسي الاندلس وفي فرضة المجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطل احد وان أطال فلم يغن شيئا لان سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين متشاغلين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضاً فضلا عن أن الذى اصبح مقرراً في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة الاسلام فيما وراء البحر الى جهة المعدوة الاسبانية وان الجهاد في هذا السبيل عبث وهذا الامر كائن لا محالة فتركوا الامور وشأنها وأهل

غرناطة يملون أنفسهم بلمل وعدى ، ولكن ابتدأ الجوع يعضهم بانيابه فرأى أبو عبدالله ان انتظار آخر المدة ممالا يكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة ولا رجاء في ورود اقل مدد ، ولو كان فى حيز الامكان لظهر ، أو كان فى قيد الحياة تنفس ، فشاور الرؤساء فاشاروا بالتسليم قبل انقضاء الاجل المضروب

وفى العشرين من كانون الاول أرسل وزيره يوسف ابن كماشة مع الرهائن الملك فرديناند وأصحبه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل الهدية فبثه مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الامد . وفى اليوم التالى ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الاسواق مناديا بالجهاد مستنفراً العامة الى الدفاع قائلا لهم إنه سيرد اليهم نجدات من البشرات ومن بر العدوة وان الامل عظيم بالفرج لكن الملك أباعبدالله والرؤساء خائنون وكثر هذا القيل والقال فى البلد وصبوا اللعنات على ابي عبد الله ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن ، شأن كل أمة غلبت وشأن أمة اليونان اليوم بعدان قهرتها الدولة العثمانية وجاست عساكر مولانا السلطان الاعظم خلال بلادها فقام كثير منها ناقمين على الملك جورج وولي عهده ولولا صلاتهما النسبية مع ملوك أوروبا لطردها اليونان أو فتكوا بهما (١)

فثار نحو عشرين الفا من أهل غرناطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا

---

(١) هذا كان في حرب اليونان للاترك أيام السلطان عبدالحميد ولكن في الحرب الاخيرة بين الترك واليونان قام هؤلاء على اسرتهم الملوكية وطردوها كمالايخفي مماحقق كلمتنا هذه

الى الاسواق بضوضاء ملأت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوما كاملا وقسما من الليل بهذه الحركة وإذا باعصار قد عصف بشدة فألزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف ،

وفي اليوم التالي خرج أبو عبدالله من الحمراء محفوفا برؤساء البلد وخاطب الامة قائلا لهم « لاذنب الا لي، انا الذي عققت والدي وجلبت الاعداء على المملكة، لكن الله قد أخذني بجرائري، وانزل النقمة كلها على رأسي وها أنا ذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لاجلكم ياقومي ضناً بدمكم أن يراق وباطفالكم أن يتواجوعا وبنسائكم وذراريكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظا لاموالكم وأملاككم وحريتكم وشريعتكم وديانتكم في ظل ملوك اسعد طالعا من أبي عبدالله المشؤوم » فأثرت رقة كلامه في خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم، واستمالت نعومة خطابه ماخشن في صدورهم. فانفضوا إلى امكنتهم وفي الحال ارسل ابو عبدالله الى الملكين يعرض عليهما التسليم في اليوم التالي حذراً من تجديد الحوادث فرضيا بذلك وتأهبا لدخول الحمراء كما ان اباعبد الله واسرته وحشمه احيوا الليل في التأهب للخروج وقد غسلوا ابهاء الحمراء بدموعهم وملأوا نواحيها بنواحهم وزموا حقائبها بما فيها من الذخائر والاعلاق واحضروا لها البغال وقبل أن تبلج الفجر إنساب حريم أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الابواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المغاربة الذين لبثوا متمسكين بعروة سلطانهم إلى الآخر وساروا من أحد الاحياء المنعزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية، أما عائشة الحرة والدة أبي عبد الله فكانت متجلدة ومتجملة، وأما امرأته وسائر جواري القصر فقد قرح البكاء مآقيهن وخدد

الدمع خدودهن، ولما وصل الموكب الى احدى القرى التي على طريق البشرات وقف ينتظر وصول أبي عبد الله وعند طلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصحبها هرناندو دوتالافيرة مطران أفيلا ودخلت من أحد من أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتفاق فالتقاها السلطان أبو عبد الله، قال للمطران المذكور «امض واستلم هذه الحصون التي صيرها الله الى يدكم عقابا للمغاربة على أعمالهم» ثم تقدم لملاقاة الملكين وتقدمت العساكر فدخلت الحمراء وكان فرديناندو ايزابلا ينتظران رؤية اعلام اسبانية فوق أبراجها فمضت مدة وانظارهما شاخصة فلم يريا شيئا وخشيا وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الحمراء «حيث لم تزل خافقة الى الآن» وبجانبها راية مار يعقوب وعلا هتاف العساكر فلما رأى الملكان ذلك بمكانهما على ضفة الشنيل خرا جاثيين على ركبهما واقتدى بهما جميع الامراء والقواد والجند شكراً لله تعالى على ما من به وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي فلما وقعت العين على العين اراد السلطان الترجل اجلالا للملكين فنماء فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يمكنه فرديناند من ذلك. وقيل أن الملكة أيضاً أبت ان ترسل له يدها وانها احسنت عزاءه وسلمته ابنه الذي كان مرهونا فضمه الى صدره واخذ يقبله كأن الشقاء زاد من تعلق أحدهما بالآخر، ثم سلم ابو عبد الله مفاتيح البلد الى الملك قائلا له «هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في اسبانية خذها فقد اصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرأفة

التي وعدت بها التي ننتظرها منك » فأجابه فرديناند «لا شك فيما وعدنا به وعسى ان يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك في عداوتنا » ثم دفع فرديناند المفاتيح الى الملكة فدفعتها الى ابنها البرنس جويان وهذا اعطاها لكونت تنديله الذي كان قد عين قائداً للمدينة ولسائر مملكة غرناطة

ثم انفصل ابو عبد الله عن الملكين قاصدا المقر الذي عين له في وادي برشانة وسار الطاغية وامرأته نحو المدينة واصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلاها يوم تسليمها بل انتظرا ان تتبوءها جميع العساكر اما سلطان غرناطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن في عينه اجمل منها في تلك الساعة فأخذ يتأمل في ابراجها وقلاعها ومنائرها الضاربة في السماء ومرجها النضير والمنقطع النظير، ووقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون سكوتا قد أبكمهم الحزن وأخرسهم الهم، وإذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة ودوي صوت المدافع إيذانا بان المدينة دخلت في حوزة الاسبانيول وانقطعت منها دولة الاسلام، فعندها خفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه دون البكاء فصاح « الله اكبر »وفسح مجال الدمع، واستمطر ماء العيون، فجادت بالسآبيب فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدة «عليك ان تبكي بكاء النساء، ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال» وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ، فاجتهد وزيره يوسف بن كماشة في تعزيته فلم يقبل قلبه العزاء، وبقيت شؤون عينه فائضة وزفراته متصاعدة، وهو يقول « أي شقاء مثل شقائي » وقد سمي الاسبانيول تلك الذروة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبيب « بآخر

حسرات المغربي »

ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خوف الغيلة الى أن تكون عساكره احتلت المواقع جميعها ارسل مركيز فيلنة وكنت تنديلة بثلاثة آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالامير سيدي يحيى الذي سماه النصارى بعد تنصره بالدون بدرو دو غرناطة وعين للنظر في أمور المغاربة وبابنه الذي أطلقوا عليه اسم الدون الونزوا دوغرناطه وكان أميراً للاسطول فتبوأوا جميع الابراج ونشروا فوقها الاعلام الاسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة الا في سادس كانون الثاني وكان الاحتفال بدخولهما باهراً وظلا سائرين الى مسجد غرناطة الاعظم فحولاه كنيسة وأقيمت الصلاة شكراً لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الامراء والقواد وعظماء الاسبانيول على الملكين يقبلون ايديهما ويهنئونهما على هذه النعمة التي اختصهما الله بها وكرمهما باحرازها. وبعد الخروج من الكنيسة سار الى الحمراء الموصوفة فألفياها فوق ما كان يتصورانها من اتقان الصنعة وفخامة البنيان ورحابة الساحات ولطافة الرسوم والنقوش وأعجبا بما فيها من الزخرفة التي تنقطع من دونها الايدي، والتأنق البالغ حده، سواء في الابهاء والمقاصير، أو النوافر والصهاريج، أو المداخل والتعاريج، إذ يتحير الناظر ما بين مرمر مسنون وعسجد مصون وسواري كانها مفرغة في أحسن القوالب، وسقوف كانها السماء زينت بالكواكب، فاتخذ الملكان لهما عرشا فيها وجلسا للتهنئة حيث جاء أهالي غرناطة والبشرات يقدمون لهما واجب الاجلال ويقبلون أيديهما صاغرين، ووجد في غرناطة يوم دخول الملكين اليها خمسمائة أسير من الاسبانيول

هكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشر سنين لم تفتر فيها الوقائع، ولا نشفت الدماء ولا انقطعت المصارع وبنهايتها انصرم حبل الاسلام في بلاد الاندلس، بعد أن استتبت دولته فيها سبعمائة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزام لذريق على ضفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة، والله وارث الارض ومن عليها

وهاك ما قال صاحب نفح الطيب عن الوقائع المتقدمة الى حين التسليم ننقله ببعض اختصار تابعا لما تقدم من روايته

« ثم بعث (أي الطاغية) في السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكنه عمه من القلاع ويكون تحت ايالته ويعطيه مالا جزيلا على ذلك وأي بلاد شاء من الاندلس يكون فيها تحت حكمه قالوا واطمعه صاحب غرناطة في ذلك فخرج العدو في محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة وهذا سر بين السلطانين فجمع صاحب غرناطة الاعيان والكبراء والاجناد والفقهاء والخاصة والعامة واخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه وليس الا احدى خصلتين الدخول في طاعته أو القتال فاتفق الرأي على الجهاد ونزل صاحب قشتالة على مرج غرناطة وطلب من أهلها الدخول في طاعته والا افسد زروعهم فاعلنوا بالمخالفة فافسد الزرع وذلك في رجب سنة ٩٥ ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة ثم ارتحل العدو عند الاياس منهم ذلك الوقت وهدم بعض حصون واصلح برج همدان والملاحة وشحنهما بما ينبغي ثم رجع الى بلاده وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة الى بعض الحصون التي في يد النصارى

ففتحها عنوة وقتل من فيها من النصارى واسكنها المسلمين ووجع لغرناطه ثم أعمل الرحلة الى البشرات في رجب المذكور فاخذ بعض القري وهرب منها من النصارى والمرتدين أصحابهم ثم اتى حصن اندرش فتمكن منه واطاعته البشرات وقامت دعوة الاسلام بها وخرجوا عن ذمة النصاري وهنالك عمه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملة وافرة فقصدهم في شعبان من غرناطة واستقر عمه بالمرية وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات الى برجه ثم تحرك عمه مع النصاري الى اندرش فاخذوها لرمضان وخرج صاحب غرناطة لقرية همدان وكان برجها العظيم مشحونا فحاصره ونقب أهل غرناطة البرج الاول والثاني والثالث ثم البرج الكبير وهو القلعة وأسروا من كان بها وهم ثمانون ومائة واحتووا على ماهنالك من عدة وآلات حرب وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب فلما وصل حصن شلوبانية اخذه عنوة بعد حصاره وامتنعت القلعة وجاءتهم الامداد من مالقة بحراً فلم تقدر على شيء وضيقوا بالقلعة فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلته لمرج غرناطة فارتحل صاحب غرناطة عن شلوبانية وجاء غرناطة ثالث شوال ووصل العدو الى المرج ومعه المرتدون والمدجنون وبعد ثمانية أيام ارتحل لبلاده بعد هدم برج الملاحة وبرج اخر وتوجه الى وادي آش فاخرج المسلمين منها وهدم قلعة اندرش ولما راى ذلك السلطان الزغل وهو ابو عبد الله محمد بن سعد بادر بالجواز ابر العدوة فجاز الى وهران ثم الى تلمسان واستقر بها وبها نسله الى الان يعرفون ببني سلطان الاندلس

ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها واخذها واسر من

كان بها من النصارى . وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ خرج العدو بمحلاته الى مرج غرناطة وافسد الزرع ودوخ الارض وهدم القرى وكانوا يذكرون انه عزم على الانصراف فاذا به صرف الهمة الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة اشهر غير ان النصارى على بعد والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج فانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء واستولى العدو على أكثر الاماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب ضاق الحال وعظم الخطب وذلك أول عام ٨٩٧ وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر في صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع ناس مع من اشار اليه من أهل العلم وقالوا انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم فاحضر السلطان اهل الدولة وأرباب المشورة وتكلموا في هذا المعنى وان العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكان ظننا انه يقلع عنا في فصل الشتاء فخاب الظن وبنى وأسس وأقام وقرب منا، فانظروا لانفسكم وأولادكم، فاتفق الرأي على ارتكاب اخف الضررين وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الاجناد قبل ذلك في اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس، ثم عددوا مطالب وشروطا ارادوها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط، وذكروا أن رؤساء اجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل ثم عقدت بينهم الوثائق

على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة من الحمراء

« وفي ثاني ربيع الاول من سنة ٨٩٧ استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الاعيان رهنا خوف الغدر وكانت الشروط سبعة وستين منها تأمين الصغير والكبير في النفس والاهل والمال وابقاء الناس في اماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت عليه ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم — وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك وان لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا احداً — وأن لا يولى على المسلمين نصراني ولا يهودي — وان يُفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا خصوصاً اعيانا نص عليهم ، ومن هرب من أسرى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء — وأن لا يؤخذ احد بذنب غيره — وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى — وان من تنصر من المسلمين يوقف أياما ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فان ابي الرجوع الى الاسلام تمادى على ماراد ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ ما سلب من النصارى ايام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة اجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات — ولا يزيدون على المغارم المعتادة وترفع عنهم جميع المظالم المحدثة ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله ولا يجعل

علامة كما يجعل اليهود(١)، أهل الدجن — ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة وان يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده. وامثال هذا مما تركنا ذكره. وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد. ولما علم بذلك اهل البشرات دخلوا في هذا الصلح وشملهم حكمه على هذه الشروط ثم أمر العدو ببناء مايحتاج اليه في الحمراء واصلاح سورها وصار يختلف اليها نهاراً ويبيت بمحلته ليلا الى أن اطمأن من خوف الغدر فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبراً بمايرومه انتهى

وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الاسبانيول انقطع السلطان ابوعبدالله بن الاحمر في ارضه بوادي برشانة حيث فرله الطاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كماشة الذي لزم بابه فاقام مدة هنالك ذاق اثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط، لكن الامر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضي ملكه وعلائه. ويحن الى غابر حمرائه، فتثور فيه الاشجان، تستشعر فؤاده الاحزان. في هاتيك المدة لم يدع المدكان وسيلة الا استعملوها لاجل صبائه عن دين آبائه وادخاله في النصرانية فاخفقت مساعيهما، وبقي لهما مشغولا من جهته اذلم يزل وجوده هنالك محلا للخوف من انتقاص مسلمي الاندلس تحت رايته والتفافهم حواليه، ففي سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كماشة سراً في ابتياع اراضي مولاه بثمانية آلاف دوكا من الذهب فتمت الصفقة وانعقد البيع

(١) فى الاصل: ولا يحمل علامة الخ. او ولا يجعل له علامة كما يجعل لليهود اه مصححه

بدون علم ابى عبدالله و بدون أن يمتني فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكلة بل نقده المال فحمله البغال وسار الى البشرات فلما وصل بين يدى مولاه نثر الدنانير أمامه قائلا له

« رأيت يا مولاى أن بقاك هنا معرض للخطر فان المغاربة أهل اقدام وثار، وحملة أ-ثار، ولا بد أن يثوروا مرة رافعين رايتك وتعزى ثورتهم اليك فتقع فى المقيم المقعد، ومادمت في هذه البلاد يخطر فى بالك انك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة، لذلك رأيت الانجح في حقك بيع اراضيك وهو ذا ثمنها لديك يمكن لك أن تتملك به اراضي واسعة جداً وراء البحر »

فلما سمع أبو عبدالله هذه الكلمات استشاط غضبا واخترط سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره فاسرع هذا الى الفرار من حضرته وبقى أبو عبدالله وحده يتأمل فى هذه المسئلة ويقلب من وجوهها فلم يلبث أن ذهب ما به وعاد اليه سكونه واستدل أن هذه الصفقة لم تكن لتجري لولا رغبة فرديناند فى زيالهم هناك وان الحق قد يكون مع وزيره يوسف، فاجمع الرحلة وشد حقائبه وجمع أمواله وكنوزه وتحمل الى أحد الثغور حيث شيعه كثيرون من قومه دائين له بالتسهيل . فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منهما العبرات، وتصاعدت من صدره الزفرات، ونزل بمليلة ومنها سار الى فاس نزيلا على سلطانها متلهفا على ما سلف، وفى بعض تواريخ الافرنج انه توفى قتيلا فى احدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ اي بعد ٤٤ حولا من فراقه اسبانية ولذلك قال فيه احد المؤرخين انه قتل في سبيل الدفاع عن مملكة سواه بعد ان جبن عن ان يقتل في الدفاع عن سبيل مملكته

واما النفح فيقول في نهاية أمره ماياتي « ثم احتال (أي الطاغية) في ارتحاله (أي أبي عبد الله) لبر العدوة واظهر ان ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية انه ساعة وصول كتابي هذا لاسبيل لاحد ان يمنع مولاي أباعبدالله من السفر حيث اراد من بر العدوة ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بماعهد له فانصرف في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدوة لقي شدة وغلاء وبلاء »

ويقول بعد ذلك « والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقرضت بدولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الانيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة، أو هو المخلوع الوافد على الاصقاع المرينية بفاس ، العائد منها الملك في أرفع الصنائع لرحمانية الماطرة الانفاس . وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان اسمعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصاري الخزرجي رحمهم الله تعالى جميعا. وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه، متلهفاً ، على ماخلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الاندلس رأيتها ودخلتها وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف

ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد ، وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس وعهدي بذريته بفاس الى الآن سنة ١٠٣٧ يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويعدون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انتهى

وأما قوله في رسالته الى سلطان فاس التي أنشأها له أبو عبد الله محمد بن عبد الله العقيلي وهو « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بايمانه ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الاحمر مجاورة الصفر . ولا سوغ لنا الايمان الاقامة بين الايمان والكفر » الى آخر السجع — فهو من قبيل التعالي والتعزز إذ لولا احتيال فرديناند عليه مافارق أوطانه والله أعلم

﴿ حال مسلمي الاندلس فيها ﴾

بعد ذهاب ملكهم

ولنذكر حالة بقية مسلمي الاندلس بعد ذهاب ملكهم فيها فنقول . ورد في تاريخ « الاسلام في اسبانية » تأليف ستانلي لانبول ماحصله « إن آخر أنفاس أبي عبد الله على تلك الربوة لم يكن بآخر حر أنفاس المسلمين في تلك الديار ، بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء ، وافتتاح عهد انتقام وابتلاء ، وان أسقف غرناطة الاول هرناندو دوتلافيره كان رجلا حليما عادلا أحسن معاملة المغاربة وأبى الجور عليهم تعلم العربي وكان يصلي به وعلى يده ارتد ألوف من المغاربة الى النصرانية . قيل ان ثلاثة آلاف تنصروا في يوم واحد الا ان الكردينال كسيميناس الذي كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف السبيل ومال الى العنف والاكراه وأساء معاملة

المسلمين وحمل الملكة ايزابلا على ما بقي نقطة دهما في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم وإكراههم على التنصر، فأثار ذلك ساكنهم، وأخرج كامنهم، وفي احدى المرات حبست امرأة من البيازين لشأن من هذا القبيل فثار سكان البيازين وتحصنوا وحملوا السلاح وكادوا يفتكون بالجند وأوشك الدم ان يسيل بحدة الكردينال كسيميناس

إلا ان المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل ربض البيازين بالسكينة والانس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم ثقة لها منهم بالاستماع والاحتفال وهدأروعهم وأعاد طائر الامن الى وكره وحجب الدماء يومئذ على أن كسيمينيس المشهور لم يزل يغوي الملكة حتى أصدرت أمرها بإكراه المسلمين على احدى الخطتين الجلاء أو النصرانية وذلك بأنهم كانوا يذكرون المسلمين بأنهم سلالة النصارى في الاصل فأقفلت المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبد الحقب وأذيق المسلمون العذاب اشكالا وألوانا ففضل عامتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم الا ان شعلة من الحمية الاسلامية بقيت تنمو في جبال البشرات حيث حمتهم أوعارها من مضطهديهم

وأول جيش ارسل اليهم تحت قيادة الدون الونزو دو اغيلار البطل الشهير انهزم هزيمة شنعاء وذلك في سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من عشيرتهم في حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت طندبلة على قوجار وهدم كونت سرين جامعا على جماعة التجأوا اليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال

فمن بقي حيا من الثوار فر الى مراكش ومصر والبلاد العثمانية وانتهت الثورة الاولى في الجبال

ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب والمسلمون المتنصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فاذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد ماء المعمودية واذا تزوج أحد المورسك (لقب المتنصرة من المغاربة) أجرى القسيس عقد الاكليل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية

وكانوا يستقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونوهم على اختطاف أولاد النصارى ويأتون غير ذلك فلو كانت ثمت حكومة عاقلة قوية ترعى عهودها التي واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ولكن حكام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا عدل وكانوا يزدادون بتمادي الايام شراً ، وما لبثت الاوامر ان صدرت باكراه المغاربة على ترك ألبستهم المخصوصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الاسبانيولية وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداء بغالبيهم في احتمال الاقذار، ثم منعوهم من التكلم بالعربية وصدر الامر بأن لا يتكلموا بغير الاسبانيولي ، بأن يغيروا اسماءهم ويسيروا سيرة اسبانيولية ويسموا أنفسهم اسبانيولا ، وكان تصديق الامبراطور شرلكان هذا الامر الفظيع في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر من اعتماده اجراؤه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف اموال الموسرين من المغاربة وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجر بهذه المسألة ولما صار الامر الى فيليب الثاني شدد في إنفاذ الاوامر بحق المورسك وسنة ١٥٦٧ عزز الامر الصادر بشأن تغيير الزي واللغة باستيثاق غريب لاجل منع النظافة التي هي من سنن الاسلام وذلك بأنه أخذ يهدم حمامات الحمراء

للبديعة فالطرائق التي أخذوا بها لتنكير أحوال تلك الامة هي اشد من ان يحتملها أي قبيل كان ، دع سلائل المنصور وعبد الرحمن وابناء سراج ، ولذلك لم يطل الزمن حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة وثار فرج ابن فرج من نسل بني سراج بجماعة من ذوي الحمية من غرناطه قاصداً الجبال قبل أن تمكنت الحامية من تعقبهم ونودي بهرناندو دو فالور من نسل خلفاء قرطبة ملكا على الاندلس تحت اسم محمد بن أمية وعمت الثورة في اسبوع واحد كل انحاء جبال البشرات ووقع ذلك سنة ١٥٦٨

ولما كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الارض مرتقي وأوعرها مسلكا ، كان تدويخ سكانها من أصعب الامور منالا ، والفتنة فيها بعيدة المرمى ، فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافل تاريخها بحوادث لا تحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاغتيال من الجانبين ، لكنه ايضاً حافل بوقائع يندر في تاريخ الفروسية وكتب الحماسة الظفر بامثالها وتبقى على صفحات السير فخراً للقرون والأمم وكانت المغاربة هناك في موطنهم الاخير والموقف الذي يحاولون فيه ادراك الثأر على نحو مئة سنة قضوها في البلاء العظيم ، والهون الذي ليس له نظير ، فهبوا جميعا منادين باخذ الثار واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية . وهدموا الكنائس وأهانوا مافيها وفتكوا بالقسيسين وعذبوا النصارى الذين وقعوا في أيديهم ، واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابراج ودافعوا دفاعا شديداً . وكان مركيز مونتيجارة قائداً في غرناطة فعمد الى المسالمة وأخذ بالملاينة وكادت الثورة تنطفىء لولا ما أعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء في حبس البيازين من المغاربة قبيل إذ ذبحهم وقع بغير علم المركيز ، لكن الموريسكيين لم يقبلوا العذر ونشروا

لواء الثورة، وصار ابن امية اميراً بالفعل على جميع جهات البشرات، الا أنه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبدالله بن ابوه

فارسلت دولة اسبانية لتدويخ الثوار الدون جون الاوستري اخا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ وأتى من الفظائع مابخلت بانداده كتب الوقائع، فذبح النساء والاطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد، وكانت علامته « لا هوادة » وانتهى الامر باذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاي عبدالله بن ابوه الكرة، فاحتال الاسبانيول حتى قتلوه غيلة، وبقي رأسه منصوبا فوق احد ابواب غرناطة ثلاثين سنة. وأثخن الاسبانيول في قمع الثورة بما اقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب هناك خلقاً كثيراً، وخنم الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا في الرق وسيقوا مماليك وعبدانا ونفي جملة منهم، فاخذ عددهم يتناقص. ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين الفاً والذين أخذوا منهم في معمعة الفتنة صاروا إلى الاستعباد، والباقون أخرجوا من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطرق تعباً فمنهم من أجاز إلى بر العدوة وطافوا هناك سائلين لاجل قوتهم الضروري ومنهم من لجأ الى بلاد فرنسا حيث استقبلوهم براً وترحيباً واحتاج اليهم هنري الرابع لاجل دسائسه في مملكة اسبانية ولم ينته اخراجهم تماما الى سنة ١٦١٠ إذ وقع الجلاء الاخير ولم يبق في تلك البلاد مسلم بعد أن وليها الاسلام ثمانية

قرون. ويقال إن عدد من خرج منهم منذ اليوم الذى سقطت فيه مملكة غرناطه إلى السنة العاشرة بعد الالف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا لآخر مرة نحو نصف مليون.

واما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا أنهم يخربون بيوتهم بايديهم، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة مع أن اسبانية، كانت مركز المدنيه ومبعث اشعة العلم قرونا، وقلما استفادت بقعة أوروبية من حضارة الاسلام بمقدار مااستفادته هذه البلاد، فلما غادرها الاسلام انكسفت شمسها وتسلط نحسها، وان فضل مسلمى الاندلس ليظهر فى همجية هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الامة في سلم الاجتماع، بعد أن خلت ديارها من الاسلام انتهى كلامه ملخصا

واستشهد في حاشية هذه الجملة بنقل يمثل لك درجة هذه الحقيقة وهو أن للملك حول مدينة غرناطة ضياعا واسعة ومزارع التزموا بيعها سنة ١٥٩١ بسبب كونهم يخسرون عليها أكثر من غلتها، مع أن هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق غناء وغياضا ذات افياء وموارد ثروة ورخاء

وقال واشنطون ارفن فى تاريخه لفتح غرناطة مامعناه ملخصا: انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتبة تماما مدة سنوات إلى أن وقع من اجتهاد رؤساء مذهب الكاثوليك في حمل المسلمين هناك على النصرانية ما أيأس مغاربة الجبال المتشددين فى دينهم فثاروا برؤساء الدين وقبضوا على اثنين من هؤلاء الدعاة في مدينة دارين وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما. وقيل ان النساء والاولاد قتلوهما قعصا بالعصي وشدخا بالحجارة وانهم أحرقوا جثتيهما فانتقم النصارى

من هذه الفعلة بان اجتمع منهم نحو ثمانمائة فارس وساروا الى ثغري المغاربة يخربون ويعيثون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها لكن وسطها كان في جبل بر يجه المصاقب للبحر فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المغاربة الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الامر سرا بان من يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ثم رمى تلك الامة بالقائد الشهير الدون الونزو دي اغيلار معه جيش وهو الذي قضى معظم شبابه في قتال المغاربة فلما اقترب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة منهم الى رندة للدخول في النصرانية وجمر الباقون منهم تحت قيادة فارس اسمه الفهري سائقين نساءهم واطفالهم الى حيث يتعذر السلوك من تلك الاوعار ورابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فالتقى الجمعان أمام بلدة مونارده واشتد القتال فيقال ان الدون الونزو مع ابنه الدون بطرو وثمانمائة من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فازاحوهم وتلاحقوا في الهزيمة يتبعهم الجند يسمون وينهبون ولما امتلأت أيديهم بالغنائم كر عليهم الفهري بجماعة من أبطاله دعات الصرخة فارتجت لها جوانب الاودية وذعر الاسبانيول فتبادروا للفرار وثبت الونزو في مكانه يحرضهم ويضم من شتات شملهم فصبر معه جماعة وولى الاكثرون ودخل الظلام وخيم الغسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطرو ابن الونزو فامره أبوه بالرجوع فاصر على البقاء بجانب أبيه فأمر اتباعه بحمله إلى معسكر كونت أورينه فاحتملوه مثخنا جراحا ولبث الدون بمائتين من رجاله يناضلون حتى فنوا عن آخرهم

وتحصن الدون بين صخرين يتقي بهما فبصر به الفهري فقصده

واستحر الصراع وألح الفهري وطمع في قرنه وكانا متماثلين في ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الونزو بخصمه « لاتحسبن نفسك وقعت على صيد هين فأنا الدون الونزو دواغيلار» فاجابه المغربي « ان كنت انت الدون الونزو فاعلم انى أنا الفهري » ثم كوره صريعا ومات بموته مثال الفراسة الاسبانيولية وانموذج الفشمشية في الاندلس

واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم ينكفئوا حتى لاح الصباح فاجلى المعترك عن قتل الدون فرنسيسكو دوراميز المدريدى الذى كان قائد المدفعية الاكبر وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة لكن مصرع الدون الونزو دواغيلار انسي الاحزان جميعها وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة فسكنت بحضوره الثائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم فجازوا الى افريقية، واحتمى آخرون بالنصرانية، وأما أهل البلد الذى قتل فيه الدعاة فسلكوا في سلسلة العبودية وبحث الملك عن جثة الدون فوجدها بين مائتى جثة من الاسبانيول فيها أجساد عدد من الامراء والكبراء فحملوها الى قرطبة في مشهد حافل، بين مدامع كالسحاب الهواطل، ودفن في كنيسة مار هيبو ليتو، وندبه الاسبانيول دهراً طويلا » انتهى كلامه مجملا

* * *

وذكر المؤرخ الفرنسي الشهير فيكتور دروى في تاريخه مايأتي ملخصا « ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب وكان لذلك العهد سكان الجزيرة اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على

توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تمزيزاً للدولة فانشأ ديوانا جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذي يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المتنصرين ظاهراً الباقين في الباطن أمناء لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كالبدع الدينية ايضا

وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد ان سلبوهم أموالهم وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد من خرج منهم ٨٠٠ الف (قال منهم جماعة وافرة بأزمير وأقوام بالاستانة هاجروا اليها في تلك الكائنة ومنذ خمس سنين احتفلوا بعيد مضي الاربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العلية أكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف المطرودين) والقسم الاكبر منهم هلكوا وعذبوا عا لم يعذبه أحد من العالمين ، وسنة ١٤٩٩ صدر أمر بسلب المغاربة حريتهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالي في سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانيـة بوحدتها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود أهم عمالها

وذكر مرة عند كلامه على شرلكان انه أكمل مقصد فرديناند فأكره مغاربة بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيهم والتكلم بغير لغتهم وقال بمناسبة فيليب الثاني انه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى التزموا الثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايذانا بالخروج وكان يمكنهم بما أمسكوه من مخانق جبالهم الثبات طويلا لو امتدت اليهم يد

معونة من اخوانهم أهل افريقية ففرق فيليب شملهم وبددهم في مقاطعته ولم تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم أرقاء

*

ثم لنذكر بحسب عادتنا فى المقابلة كلام المقري فى هذه الوقائع الاخيرة وهو ببعض تصرف « ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة إلى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى ان يرجعوا قهراً للنصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك كان نصرانيا فأسلم فلترجع نصرانيا، ولما فحش هذا الامر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر قالوا ان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا ان يتنصر وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا ،الا ماكان من جبل بللنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة (هو الونزو دواغيلار) وأخرجوا على الامان إلى فاس بعيالهم وماخف من أموالهم دون الذخائر

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها

من الحديد وقا. وأفي بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً الى ان كان إخراج النصاري اياهم بهذا العصر القريب أعوام(١) سبعة عشر والف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة

وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الاقصي منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ووصل منهم جماعة الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى

قلت وأشهر الائمة الذين أدركهم عهد الاستيلاء على غرناطة ورحلوا فيمن رحل الى الشرق قاضي الجماعة أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن الازرق صاحب التآليف الجليلة منها (بدائع السلك في طبائع الملك) حذا فيها حذو ابن خلدون وقد دخل مصر بعد الارتحال عن وطنه واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الاندلس قال المقري فكان كمن يطلب بيض الانوق. ثم حج ورجع الى مصر وجدد الكلام في غرضه فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس فتولاه بنزاهة وصيانة وله نظم بديع فمنه قوله

تأملت من حسن الربيع نضارة ... وقد غردت فوق الغصون البلابل
حكت في غصون الدوح قسا فصاحة ... لتعلم ان النبت في الروض باقل

«١» لعل أصله : أي عام

وقوله

تعجبت من ياسم الورد في سنى وجنة نبتها بارض
ولم لايرى وردها ياسما وقد سال من فوقها العارض

ومنه قوله عند نزول الطاغية بمرج غرناطة

مشوق بخيمات الاحبة مولع تذكره نجد وتغريه لعلع
مواضعكم يالائمين على الهوى فلم يبق للسلوان في القلب موضع
ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرة ومن لي بجفن تنهمي منه أدمع
رويدك قارب للطائف موضعا وخل الذي من شره يتوقع
وصبراً فان الصبر خير غنيمة ويافوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقابااللطف من خير راحم فألطافه من لمحة العين أسرع
وان جاء خطب فانتظر فرجا له فسوف تراه في غد عنك يرفع
وكن راجعاً لله في كل حالة فليس لنا إلا الى الله مرجع

أما لرجوع الى الله فهو أحق الحقائق وأما انه لا بد من انكشاف الخطوب فهذا خطب الاندلس لم ينكشف إلا بتقلص ظل الاسلام من تلك الديار، وطالما ارتقب أهلها اللطائف فلم تطل عليهم إلا البلايا الكبار، حتى آل أمرهم الى الحريق بالنار ذلك بقدر من الله (١) إنا لله وانا اليه راجعون

---

(١) تكرر في هذا التاريخ ذكر القدر وهو هنا في موضعه فان القدر والمقدار أن تكون الوقائع بقدر اسبابها وعللها وجارية على نظام سنن الله المطردة في الخلق — وأما ماتقدم من الاعتذار عن الخضوع للاعداء بالقدر وكونه خضوعا له لالهم فانما يصح في حال العجز التام عن كل عمل في جهادهم ولم يكن كل اولئك المعتذرين بالقدر كذلك، ولاسيما ذلك السلطان الافين الظالم الفاسق فيجب ان يعلم المسلم ان بدعة الاعتذار بالقدر عن المعاصي وعن القيام =

ثم ان الاندلسيين المطرودين النازلين ببر العدوة انتقموا من الاسبانيول ومن طوائف الفرنج عما اذيقوه من العذاب بجهاد البحر الذي أشار اليه المقري حيث انهم انتظموا في سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أيام كان أهلها يلقبون بملوك البحر وكانت دول اوروبا باسرها تدفع لهم الجزية وتواصل الى والي الجزائر الهدايا دفعا لغائلة السفن المغربية عن سفنها فكان من قطع المغاربة خصوصا الاندلسيين منهم السبل البحرية على بحارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعيث الذى أتوه على شواطىء اوروبا لاسيما اسبانية ما ألف له الاوروبيون تواريخ خاصة به وهو يدل على استحكام الاحن في صدورهم وفي الواقع لا نرى عداوة طال أمرها وتوقدت جمرها كالعداوة التي بين المغاربة والاسبانيول

*
* *

وقد اتفق الكتاب على أن الاندلسيين الجالين عن بلادهم الى بر العدوة احتملوا معهم على أيديهم صناعة الاندلس وفي صدورهم همم أهلها، ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث ألقوا عصا تسيارهم، فاخذت

= بما يجب من حقوق الامة العامة كالجهاد وعن الاستسلام للامراض والمصائب وعدم الاهتمام بدفعها بالادوية مثلا - هي اقتل البدع لهذه الامة وقد توسل بها بعض المستعمرين لاقناع الشعوب الاسلامية الجاهلية بالرضا بسلطة الاجنبي بحجة أنها بقدر الله ، وانما الواجب مقاومة الاقدار بالاقدار كما قال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين امر بعدم دخول الشام لوجود الوباء فيها فقيل له أتفر من قدر الله ؟ (قال) نفر من قدر الله الى قدر الله . وقد كان للذي سأله سؤال الانكار أبو عبيدة (رض) فقال له : لو غيرك قالها ؟؟ وكتبه مصحح الطبع .

عنهم فنون،وشاعت بواسطتهم صنائع، وانتشرت بسببهم فوائد ،وكانوا امع رثاثة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدي الا من زهيد المتاع يمثلون حيثما حلوا قطعة من الاندلس ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معايشهم وسائر شؤونهم ومآخذهم مسحة اندلسية تمتاز بالذوق، وتدل على الاصالة في التمدن ،حتى ان الكاتب فليكس دوبوا الافرنسي الذي ساح الى أواسط افريقية في العام المنصرم عثر على قبيل في جوار تنبكتو يقال لهم الاندلوز حقق بما أخذه من أخبار اصول تلك القبائل أنهم من جالية الاندلس كما يدل عليهم اسمهم، وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقا وأعلى طبقة في المدنية من القبائل المجاورة لهم، ولهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقش — الى غير ذلك، والظاهر انهم مترامون الى السودان عن مراكش وسبحان من بيده تصاريف الامور

خاتمة

لا تزال آثار العرب حية في اسبانية تشهد بفضل هذه الامة وتنطق بامتزاج الاسلام مع الحضارة، وان كثيراً من الاماكن في تلك البلاد خصوصا غرناطة وقرطبة واشبيلية بل بلنسية وطليطلة قد يظن الداخل اليها أن المسلمين لم يغادروها الا منذ عهد قريب، وقد اندمج كثير من الاوضاع العربية في البناء بالهندسة الاسبانيولية كما اختلط اللسان الاسبانيولي بالعربي وتولدت من هذا الاقتران ألفاظ خلاسية سرد منها الفاضل المحقق أحمد أفندي زكي (١) جمهورا في رحلته الى الاندلس المنشورة

(١) هو الآن الاستاذ العلامة احمد زكي باشا المصري

في جريدة الاهرام

وقد اتفق المحققون من مؤرخي الافرنجة أن اسبانية كانت مجاز العلم من الشرق الى الغرب ومبعث أشعه العرفان أفاضها العرب فاستنارت بها اوروبا واهتدت بها طويلا وقد تركوا هناك آثارا في الصناعة والزراعة والبناء والفخم مابقي عنهم منها مبانيهم التي لا تزال الى الآن بهجة السياح ودهشة الناظرين ، على انهم في أيامهم لم يتركوا فرعا من فروع العلم ولا شعبة من شعب التمدن الا ضربوا فيها بسهم وكانوا فيها القدوة لغيرهم فما شئت من طب وجراحة وصيدلة وفلسفة ومنطق وطبيعة وهيئة ورصد وحساب وجغرافية .

ومن أشبونة خرج الاخوة المغررون هائمين في بحر الظلمات طمعا في الوصول الى بر وراءه يهدون اليه على ما ذكر الشريف الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق ، الى اختراق الآفاق) ونشره هذا العاجز في الجرائد اجابة لبعض السائلين عن ذلك من أهل أميركا، وكانت عندهم مباديء في الفنون العسكرية والملاحة وعناية جزيلة بخزائن الكتب وحمل العلم وتأليف الانديه العلميـة واختراع الآلات وهم الذين أدخلوا الى اوربا الكاغد والبارود من الصناعة ، على ما أدخلوه من النبات والشجر الجديد في الزراعة، وبالاجمال فكانوا حملة العلم وانموذج الامم المتمدنة في القرون الوسطى ، وكانت اسبانية لعهدهم جنـة الله في أرضه ، ونكتة معمور الدنيا بطوله وعرضه ؛ وغابت شموسها من بعدهم ؛ وأوحشت لفقدهم

وقد ذكر لافاله علي وجه الاجمال مدنية الاسلام باسبانية وأتى على

بيان مزاياهم في الصناعة والزراعة والفراس والبناء، ووصف قصر اشبيلية وحمراء غرناطة وجامع قرطبة، وأطال في خصائص الهندسة العربية والزخرف الشرقي، ثم تكلم على أسلحة الاندلسيين وقرر أن العرب هم أول من استعمل المدافع النارية في اوربا وانهم هم الذين هدوا الاوروبيين الى صناعة البارود وعرفوهم بصنعة اخرى أشد تأثيراً على الاجتماع الانساني وهي عمل الورق، قال وانهم في جميع الفنون فاقوا المسيحيين وبلغوا الدرجة القصوى من الحضارة حينما كان اقرانهم منغمسين في حنادس الجهالة والبربرية ،فكانوا فوقهم في العلم ومثلهم البأس، وكانوا حكماء في المجالس، أشداء في المآزق، فان قيل فان كانت الحال على ماوصفت فلماذا سقطوا . . ؟ قلنا انهم ظلوا مدة ثمانية قرون لم تنقطع بينهم الفرقة والشقاق الذي كان يمزقهم كل ممزق ،وانه أعوزهم روح الوئام والاتحاد الذي به قوة الامم وفلاحها

ولا أتعرض الآن لتفصيل ما انطوي تحت هذه التضاعيف مما يستغرق المجلدات الكبار لا سيما وإن ذيل هذه الرواية قد طال طولا أخاف عليه انتقاد القراء ،والسبب فيه انني لم أستحضر التأليف بتمامه قبل طبعه وانما كنت أؤلفه وأنشره متتابعا، فحرصت أن لا يفوتني فيه شيء أعتقده مهما مما وصلت الى الاطلاع عليه يدي القاصرة ليأتي كتابا مستوفى في بابه ، ويكون قد نقع الغليل في هذا السبيل، وجعلت أكثر اعتمادي في متأخر المدة على الكاتب الانكليزي اللغة واشنطون ارفن مع المقابلة بينه وبين غيره ومزاوجة النقل الافرنجي دائما مع الرواية العربية من نفح الطيب التي لم أطلع على سواها في هذه اللغة عن هذا التاريخ كما لا يخفى. ولا

يبعد اني ان حققت أشياء فوق ما كتبت بهذا الذيل مما يتعلق باخبار غرناطة أضفته الى هذا الكتاب في الطبعة التالية

ولا ينس القارىء اللبيب اني نبهته الى غرضي في مقدمة الذيل وهو التنقيب عن أخبار الحقبة الاخيرة من نزول المسلمين بتلك البلاد لان هذه القطعة هي أشد الاقسام احتياجا الى هذا المعوز من تأريخهم، واني لا أستحسن مذهب الكتابة فيما طال تداول الاقلام اياه بلغة قوم، وصار التأليف فيه زيادة أعداد، واضاعة مداد

ومن الغريب أن هذا التاريخ فضلا عن ندوره بالعربي لمن أجدر المطالعات بالولوع لما جاء فيه من سير الابطال، وأوصاف مواطن النزال، وما تبطنه من غريب الوقائع الحاكية موضوع القصص ومولود الخيال، مما لا يعتري قارئه الملال،

ولا أكتم القاريء الذي هو خليق بان لا يخفى عليه ذلك بشفوف بصره ولطف حسه أن الامر غير خال في هذا الاملاء أيضا من نزعة جنسية، وحنوة عصبية، وهفوة للفؤاد وراء آثار بني الجلدة، مما تستشعر فيه مرضاة هذه النفس العظيمة السر، البعيدة مهوى الغرض، الغريبة شكل الهم، وتوفر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلي السائح في أثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها، على ترجيح الاقرب فالاقرب، وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه والميل للاتصال بابناء أبيه فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التي هي جزء من هذا المجموع لما يحس من أن أقرب أنواع الدم الى دمه هو الجاري في عروق قومه، فهو يحن اليهم، ويحنو عليهم، ويتألم لالمهم، ويعتز بعزهم، وتراه اذا غابت أشخاصهم استأنس

بآثارهم بعد الاعيان، وارتاح الى مواطنهم ورغب فى الدوس على مواطيء أقدامهم ولو بعد أزمان . وقد عهدنا الذي يصاب بعزيز أو بذي قرابة يختلف الى قبره ، ويشفي بالبكاء عنده حرارة صدره ، واذا ظفر بقطعة من ملبوسه أو مفروشه ، أو برقعة من خطه ، احتفظ بها ، وغالى في قيمتها ، وجعلها مدار أنسه ، في خلوات نفسه ، وروح حياته ، في منتبذ مناجاته ، وبناء على هذه القاعدة أولع الخلق بحفظ آثار الغابرين ، وتطلعوا بغريزة فيهم الى معرفة سير السالفين ، ووقفوا على الاطلال الدوارس ، وبكوا على الدمن البوالي ، كأنما يجددون عندها عهودهم مع آبائهم ، ويشدون لديها معهم عروة وفائهم .

ومن هذا المأخذ انبعث الشعور بالميل الى احتذائهم ومحاكاتهم في سيرهم ، واقتصاص الخافي والبادي من أثرهم ، تصديقا لقول نبينا صلى الله عليه وسلم «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » (١) فياليتنا نتبع الآن سنن من قبلنا ونقتدي بسلفنا ونبني بناء اوائلنا ، ونعتبر بحمراء غرناطتنا ، وخضراء

---

(١) الحديث في مسند الصحيحين وتتمته أن الصحابة (رض) سألوه (ص) عمن قبلهم فقالوا يارسول اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفي رواية انهم فارس والروم وكلتاهما بمعنى والمراد أنهم بعد الاهتداء بالاسلام والاعتصام به سيبتدعون في دينهم ويتفرقون شيعا بعد اتحادهم كما فعل من قبلهم من الامم المجاورة لهم فيحل بهم من عقاب الله ما حل بأولئك ، وكذلك وقع ، وما حل بهم في الاندلس من الشواهد عليه . ولكن المؤلف أراد أن يعظ المسلمين من طريق آخر على طريق أسلوب الحكيم فتمنى لو اتبعوا سنن سلفهم الصالح فيما أصلحوا فيه قبل فساد أمرهم . وكتبه مصحح الطبع

دمننا ، ونتأمل في سالف عزها وسابق أمرها ، نجتنب الفرقة التي آلت الى فقدها ، ونسأل رسومها عما مضى من نعيمها ، فهي رسوم ان لم تجبك حواراً ، اجابتك اعتباراً ، فلا يكونن دائماً من شأننا ان نتباهى بمجد الاوائل ونفاخر بالعظم الرميم ، دون أن نقتص اثر الآباء ونحيي ذكر القديم ، ولا يبقى من نصيبنا فى المجد إلا حديث سمر ، ومجرد ذكر ، وما أحسن ماقال شوقي شاعر العصر

وذات دلال من بني الروم حولها ... اذا ما تبدت اخوةٌ سبعة مردُ

عنيت بها حتى التقينا فهزها ... فتى عربي ملء برديه مجد

فقالت أطيب بعد عسر وشدة ... فقلت نعم مسك الاحاديث والند

عطلنا من النعمى وطوق غيرنا ... تداولت الايام وانتقل العقد

وماضاعت الدنيا علينا وحسنها ... ولكن عن أغصانه رحل الورد

هذا وكان الفراغ من كتابة هذا التأريخ ليلة السبت الواقع في
السادس والعشرين من المحرم سنة خمس عشرة
وثلثمائة بعد الالف الموافق ٢٦ من حزيران
سنة ١٨٩٧ والمرجو ممن ينظرون فيه أن
يرمقوه بعين الرضا والحلم. ويرخوا
ذيل الستر على مايعثرون فيه من
الوهم، والله سبحانه المسدد
الى الحق انه تعالى
من وراء العلم